شوقي أبو خليل

هارون الرشيد

أمير الخلفاء
وأجل ملوك الدنيا

Bibliotheca Alexandrina

دار الفكر

22379

بسم الله الرحمن الرحيم

General O

هارون الرّشيد

أمير الخلفاء
وأجل ملوك الدّنيا

هارون الرشيد: أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا/ شوقي أبو خليل. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦. - ٢٧٢ص؛ ٢٥سم.
١-٩٢٣.١-١: هارون الرشيد خ ٢- العنوان ٣- أبو خليل
مكتبة الأسد

ع-١٩٩٦/٤/٤٨٠

22963

909.0492 0992

الدكتور شوقي أبو خليل

هارون الرّشيد
أمير الخلفاء
وأجلّ ملوك الدّنيا

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ٤٢١,٠١١

الرقم الموضوعي: ٩٢٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-261-9

الموضوع: التراجم والسير والأنساب

العنوان: هارون الرشيد

التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٢٧٢ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

سورية - دمشق - ص. ب (٩٦٢).

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.Fikr.com/

E-Mail: Fikr @asca.com

إعادة: 1416هـ = 1996م

ط 4: 1991

ط 1: 1977

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

تصديرُ الطَّبعةِ الجديدةِ

بسم الله القائل في محكم التَّنزيل : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ ، [الأعراف ٨٥/٧] ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد بن عبد الله ، القائل : « ما من أحد أفضل منزلة ، من إمام إن قال صَدَق ، وإن حَكَم عَدَل ، وإن استُرْحِمَ رَحِم » ، [رواه ابن النَّجار عن أنس] ، وبعد ..

أُقدِّم هذه الطَّبعة الجديدة المزيدة من كتاب : « هارون الرَّشيد » ، بعد أن مرَّ على طبعته الأُولى قرابة خمس عشرة سنة ، طُبع خلالها عدَّة طبعات ، وأكرمني الله خلالها أيضاً بزيارة (طُوس) ، حيث توفي الرَّشيد عن خمس وأربعين سنة ، عام ١٩٣ هـ ، ورحت أُفتِّش عن ضريحه فلم أَجده ، ولما سأَلتُ عنه قيل لي : لقد دُرِس ، ولم يبقَ في طُوس وما حولها أثرٌ من آثار الرَّشيد إلاَّ (الهارونيَّة) ، وهي - كما قيل - سجن للرَّشيد .

وقيل لي أيضاً : فقدت طُوس أهميَّتها التَّاريخيَّة لاتِّساع مدينة (مَشْهَد) ، حيث يرقد الإمام الرِّضا (عليه السلام) ، فزرت هذا المرقد الطَّاهر الشَّريف ،

حيث الهيبةُ والجلالُ ، ففوجئت ببيتَيْن من الشِّعر لدِعْبل الْخُزاعي ، كُتبا فوق المرقد :

قَبْرانِ في طُوسَ، خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهم وَقبْرُ شَرِّهِمُ، هـــذا مِنَ العِبَرِ!
ما ينفعُ الرِّجْسَ مِنْ قُربِ الزَّكِيِّ وما على الزَّكِيِّ بقربِ الرِّجسِ مِنْ ضَرَرِ

فتساءلت : وهل كان الرَّشيد حقّاً (رجساً وشرَّ النَّاس ؟) .

الرَّشيد الَّذي كان شديد التَّمسُّك بالإسلام ، غزير الدَّمع إذا ذُكِّر بالله ، ولوعاً بالعِلْم والعلماء ، مشتهراً بعدله في قضائه ، ولم يكن لخليفة ـ من قبله أو بعده ـ ما كان من الهمَّة والنَّشاط في مختلف مناشطه وتحركاته ، سواء في الحجِّ ، أم الإدارة ، أم الحرب ، وبذلك احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة .

أمَّا عاصمته بغداد ، فقد كانت في أيَّامه مركز الثَّقافة العالميَّة ، فلم تحدث في تاريخ المدينة حركةٌ أكثر روعة من ذلك الشَّغف الفجائي بالثَّقافة ، الَّذي امتدّ إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فكان كلُّ مسلم ، من الخليفة إلى الصَّانع ، يبدو كأنَّما قد اعتراه فجأة شوقٌ إلى العِلْم ، وظمأ إلى السَّفر ، وكان تهافت طلاب العِلْم على بغداد ، شبيهاً بهذا التَّيار الحديث من العلماء الأُوربيِّين الَّذين تموج بهم الجامعات بحثاً وراء العلم الجديد ، بل لقد كان أكثر منه روعة ، [تاريخ العالم : ٦٠٧/٤] .

ازدهارٌ وحضارة ، عِلْمٌ وثقافة ، صناعةٌ وتجارة ، حتَّى عُثِر على النُّقود العبَّاسيَّة في الدُّول الإسكندينافيَّة ، مما يدل على مدى اتِّساع التِّجارة مع الشِّمال ، في طلب الفِراء والجلود ، وغيرها من المواد .

فهل يستحقُّ الرَّشيد أن يُوصف بالرِّجس وشرِّ النَّاس ؟!

☆ ☆ ☆

أنا لم أُنصِّب نفسي محامياً للدّفاع عن الرَّشيد في هذا الكتاب ، بل عرضتُ حياته وسيرته بحيادٍ تام ، وبكلّ توثيق ، فوجدت فيهما الطُّهرَ والخير .

هذا .. ولقد أضفت إلى هذه الطَّبعة عناوين جديدة ، حتَّى كاد حجم الكتاب يتضاعف ، وأهمُّ العناوين الجديدة :

(وَفاةُ الرَّشيد : ثأرٌ ، أَمْ مؤامَرَةٌ ، أَمْ غلطةٌ من ابن بختيشوع ؟) .

وعلى الله قصد السبيل .

دمشق في ٢٠ صفر ١٤١١ هـ
الموافق ١٠ أيلول ١٩٩٠ م

الدكتور شوقي أبو خليل

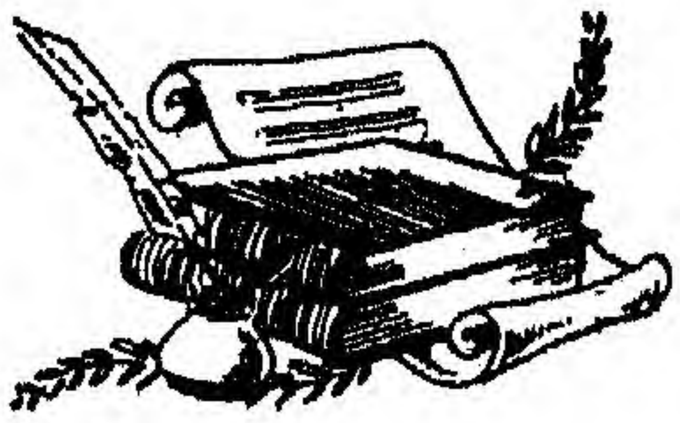

بسم الله الرحمن الرَّحيم

تصدير

☆ كان لهارون الرَّشيد قلنسوة
مكتوب عليها : غازٍ حاج[١] .

بسم الله وله الحمد ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وعلى من اتبعه بإحسان وبعد ..

كنت أُطالع في كتاب لرئيس وزراء الهند الرَّاحل جواهر لال نهرو ، عنوانه : (لمحات من تاريخ العالم)[٢] . ومما لفت نظري فيه ، كلماتٌ عن سيد ملوك بني العباس ، هارون الرشيد ، قالها نهرو يخاطب بها ابنته : « ألا تذكرين بغداد ، وهارون الرَّشيد ، وشهرزاد ، وقصص ألف ليلة وليلة المتعة[٣] ؟ إنَّ المدينة التي ازدهرت في أيام الخلفاء العباسيين ، هي مدينة ألف ليلة وليلة ، كانت مدينة فسيحة ، تزخر بالقصور والمحلات العامة والمدارس والكليات والأسواق والمتنزهات والحدائق الغناء ، وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشَّرق والغرب ... » .

فقلت في نفسي متسائلاً : هل حقّاً بغداد الرَّشيد ، هي بغداد ألف ليلة وليلة ، بما في هذه اللَّيالي من ملذات وخمور ونساء وفجور ؟!؟

وتساءلت أيضاً : وهل سيرة الرَّشيد ، الخليفة المسلم ، هي كما تصورها بعض

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٢١/٨

(٢) منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ط ٢ ، آب « أغسطس » ١٩٥٧ م .

(٣) سنتناول هذه الليالي بالدراسة ، بما يهم بحثنا ، على صفحات هذا الكتاب .

الكتب المتداولة ؟ صورة شهرزاد ، وقصص ألف ليلة وليلة المتعة ، حتى إن مجلة معروفة[1] ، صارت تصوِّر الرَّشيد في كلِّ عدد من أعدادها في منتصف الخمسينات ، وحوله الجواري كاسيات عاريات ؟!

بقي ماسبق في ذاكرتي فترة ... وبينما كنت في زيارة لزميل جاب أقطاراً عديدة في كلٍّ من أُوربة وأمريكة ، سألني هذا الزميل : ماإنتاجك في أيامك هذه ؟ أجبته : إنني أدرس حياة الرَّشيد .. فابتسم الزميل .. فقلت له : خيراً .. ! فقال : زرت أمريكة ، شمالها وجنوبها ، وزرت معظم بلدان أُوربة ، والغريب أنَّ سيرة هارون الرَّشيد معروفة هناك ، ولكن من ألف ليلة وليلة ، ويسمونها : (اللَّيالي العربية) . كلهم هناك يعرفون ألف ليلة وليلة ، سمعاً أو قراءة ، وهم يعتقدون أنَّ بطلها هارون الرَّشيد .

قلت لهذا الزَّميل : ماسمعته منك ، يزيد من همتي ، في دراسة سيرة هذا الخليفة المسلم .

والَّذي جعلني أبدأ بالفعل دراسة هذه السِّيرة ، كتابٌ عن حياة الرَّشيد يحمل اسم : (نوادر أبي النواس وما كان بينه وبين الخليفة هارون الرَّشيد)[2] ، فقد ورد فيه من القصص والنَّوادر والأخبار ، مايجعل المنصف يأبى أن يلصق مافيه بإنسان عادي ، ناهيك عن خليفة مسلم ، كان يحج عاماً ويغزو عاماً .

إنَّ الإشارات البذيئة الَّتي يحفل بها الكتاب المذكور ، في التَّصريح حيناً ، وفي التَّلميح حيناً آخر ، تدلُّ دلالة واضحة على ذوق واضعيه الوضيع ، لأن مجلس الرَّشيد يسمو عن هذه الأخبار ، فمجلسه كان أقرب إلى الفقه والدِّين والحديث وأخبار العرب .

---

(١) هي مجلة « روز اليوسف » القاهريَّة .

(٢) من مطبوعات المكتبة الأدبية في حلب .

وعشت مع الرَّشيد أشهراً ، أبحث عن سيرته ، وشغل مخيلتي حتَّى رأيته في الرُّؤيا ، فصممت أن يكون كتابي هذا على شكل أسئلة أُخاطب بها روح الرَّشيد ، أجعل إجاباتها ماذكرته مراجعنا العربيَّة المعتمدة ، ولكنني وجدت المرحوم عباس محمود العقاد ، قد سبقني إلى ذلك منذ عام ١٩٤٧[١] ، في عدد من أعداد الهلال ، فحمدت الله عزّ وجلّ على معرفتي ذلك ، فلا يظن أحد أنَّه اقتباس لم أُشر فيه إلى مرجعه ، فلعلّ بعض الأفكار الَّتي جئنا بها متشابهة إنَّما هي من قبيل توارد الخواطر ليس غير .

فعدت إلى سيرة سيد ملوك بني العباس ، أدرسها ، حتَّى أشبعتها بحثاً وتمحيصاً ، فوجدتها تعاكس ما في مخيلة غالبية النَّاس ، وتعاكس ما كتبه بعض المؤلفين[٢] ، الَّذين شاعت كتبهم في مكتباتنا .

إنَّه الرَّشيد .. سيد ملوك بني العباس بلا منازع[٣] ، بلغ بملكهم ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده ، من سعة الآفاق ، وهيبة السُّلطان ، وتأمين الحدود والثُّغور ..

عرفه الشَّرق من الصِّين ، وعرفه الغرب حتَّى فرنسة ، فترنَّم بسيرته ، وبعظمة دولته ، وبنظامها ، ورفاهيتها ، وعلمها ... من لم يقرأ التَّاريخ ، أو يهتم به .

إنَّه الرَّشيد .. الَّذي كان يصلي الفرائض والنافلة[٤] ، ويعطي الزكاة والصَّدقات ، ويحج مرَّات ومرَّات ، ويخرج إلى الدِّيار المقدَّسة ماشياً في بعض المرَّات ، وينادِمُ على المباح ، ويوقظ ندماءه لصلاة الفجر قبل الصَّباح .

---

(١) في العدد العاشر « تشرين الأول ـ أكتوبر » عام : ١٩٤٧ م / ١٣٦٦ هـ ، المجلد ٥٥ ، ص : ٢١ من مجلة الهلال .

(٢) كأحمد أمين في كتابه (هارون الرشيد) ، وكتابه (ضحى الإسلام) وكجرجي زيدان في كتابه (العباسة أخت الرشيد) .

(٣) الرَّشيد (أمير الخلفاء) أي أمير الخلفاء العباسيين ، (وسيد ملوك الدنيا) أي سيِّد حكام الدُّنيا في عصره .

(٤) كان الرَّشيد يصلي كل يوم مئة ركعة ، « سير أعلام النُّبلاء ٩/٢٨٧ » .

إنّه الرَّشيد .. الَّذي كان يناظر العلماء ، ويحضر مناظراتهم بعقل كبير حكيم ، ويقرض الشِّعر ويرويه ، أُستاذه قاضي القضاة أبو يوسف ، وقاضيه محمد بن الحسن الشَّيباني ، وهو يستمع إليهما ، وإلى مالك بن أنس ، والأصمعي والكِسائي ، وفي دولته جابر بن حيان ، والْخُوارزمي ، والكندي .. الَّذين أحدثوا أعظم الأثر في الحضارة العلميَّة العالميَّة . كان يتنقل في أرجاء دولته فيتنقل معه الرُّواة والعلماء والقضاة .. في موكب علميٍّ مهيب .

قال عمرو بن بحر (الجاحظ) : « اجتمع للرَّشيد من الجدّ والهزل مالم يجتمع لغيره من بعده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن الرَّبيع ، أنبه الناس وأشدهم تعاظماً ، ونديمه عمر بن محمد ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الموصلّي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مريم ، وزامره برصوما ، وزوجته أُم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب النَّاس في كلِّ خير ، وأسرعهم إلى كلِّ برٍّ ومعروف ، أدخلت الماء الْحَرَم بعد امتناعه من ذلك .. إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها »[١] .

وقال ابن طباطبا[٢] : « وكانت دولة الرَّشيد من أحسن الدُّول ، وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة .. ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشُّعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكُتَّاب .. ما اجتمع على باب الرَّشيد ، وكان يصل كل يوم واحداً منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلاً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذَّوق والتَّمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة » .

وقال عنه أيضاً : إنَّه من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم[٣] .

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٢١٧ ، والنُّجوم الزَّاهرة : ٢/١٤٣ ، وتاريخ بغداد : ١٤/١٤

(٢) مع أنه « طالبي » يبغض الرَّشيد ، ولكنه أقرّ بالحقيقة ، وتفصيل ذلك سيمر في نهاية الكتاب .

(٣) الفخري في الآداب السلطانيَّة ص : ١٧٥

إنّه الرّشيد ، الّذي قدّم إليه الفقيه الشّهير أبو يوسف كتاب « الْخَراج » أجوبةً على أسئلة قدمها الرّشيد إليه ، فكان كتاب « الْخَراج » أثراً من أجمل الآثار التّاريخيّة الاقتصاديّة للدولة الإسلاميّة ، نظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين ، وذلك على النّمط المشروع الّذي سنّه رسول الله ﷺ ، والخلفاء الرّاشدون المهديّون من بعده ، حتى لا يقع حيف على الرّعيّة ، فيثقل الجور كاهلهم .

إنّه الرّشيد .. صاحب بيت المال العامر الزّاخر ، ولقد كانت ثروة الدّولة في بغداد ترده من الأَقاليم الإسلاميّة بعد أن تقضي جميع الأقاليم حاجاتها .

وكانت عاصمته بغداد[1] ، قبلة العلم والعلماء من جميع الأمصار الإسلامية ، يرحلون إليها ليتمّوا مابدؤوا من علوم وفنون ، فهي المعهد العالي للتّخصّص .

☆ ☆ ☆

ولقد سلكت في هذا الكتاب خطّة كانت على مرحلتين :

الأولى ، تقصّي وجمع أخبار الرّشيد ، ثم تصنيفها بحسب موضوعاتها .. ليلمس القارئ ، دون تحيّز أو مراوغة حياة وفكر وعمل هذا الخليفة المسلم .

وسيجد القارئ ثبتاً مفصلاً بأسماء المراجع الكثيرة ، تبدءاً باسم المرجع ثم المؤلّف والطّبعة وسنتها وانتهاء بدار النّشر .

---

(١) كان يسكنها أيام الرّشيد مليونان من البشر ، تتعالى فيها القصور ، وتجري إليها التّجارة من أقصى الأرض إلى أقصاها ، من شرقي آسية حتّى أواسط أوربة وأعالي النيل في إفريقية .
و « كان يعاصر الرّشيد الإمبراطورة إيريني في القسطنطينيّة ، وشارلمان في فرنسة ، وقبله بزمن قصير كان يجلس على عرش بلاد الصّين تسوان دزونج Tsuan tsung ، ولكن الرّشيد بزّهم جميعاً في الثّراء والسّلطان ، وأبّهة الْمُلك والتّقدّم الثّقافي الّذي ازدان به حكمه » ، [قصة الحضارة : ٩٢/١٣] .

والمرحلة الثَّانية :

دراسة أسباب تشويه سيرة الرَّشيد ، التي كانت سيرة إسلاميَّة في سلوكها وتصرفاتها ، أو دراسة العوامل الَّتي جعلت سيرة الرَّشيد مشوَّهة في أذهان النَّاس .

وعلى ذلك فالكتاب قسمان :

١ ـ قسم فيه أخبار الرَّشيد ، الخليفة المسلم الملتزم بدينه .
٢ ـ وقسم ثانٍ فيه اجتهادنا عن أسباب تشويه هذه الأخبار .

وفي خاتمة الكتاب : لماذا شُوّهت سيرة الرشيد ؟!

فإن أصبت في تقصّي أخبار الرَّشيد ودراستها ، فهذا ماقصدته .

وإن قصَّرت .. فلي ثواب العمل والاجتهاد ، فالله سبحانه وتعالى يشهد أنني ماقمت بهذه الدِّراسة ، إلاَّ بغية الدِّفاع عن تراث مقدّس متمثِّل في أعلامه .. لا دفاعاً عن متهم مدانٍ نحاول تبرئته ، ولا دفاع مكابرة وتأويلات ومراوغة لإظهار الوضيع شريفاً ، لا سمح الله .

لا .. ! إنَّه دفاع عن مسلم جليل ، تحاول عوامل عديدة : استشراقية ، أو صليبية ، أو ملحدة مأجورة ، الحطّ من قيمته ، وبالتَّالي الحطّ من قيمة الفكر الَّذي حمله ، بل الحطّ من قيمة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وهي في أوجها .

وهذا جهد يطيب لي ، والله عزَّ وجلَّ من وراء القصد .

فباسمه تعالى ، وعلى بركته سبحانه نبدأ ...

دمشق : ٢٦ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ
١٥ نيسان ١٩٧٧ م

شوقي أبو خليل
ص.ب ٦٢٢٢
دمشق ـ سورية

حياةُ الرَّشيد

« كانت أيّام الرَّشيد كلها خيراً ،
كأنّها من حسنها أعراس »[1] .

هارون أمير المؤمنين .

الرَّشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو جعفر ، استُخلف بعد وفاة أخيه موسى الهادي سنة سبعين ومئة . أمُّه الخيزران الْجُرَشيَّة ، ولد بالرَّي لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمسين ومئة .

كان الرَّشيد أبيض طويلاً ، مسمناً ، جميلاً ، مليحاً ، فصيحاً ، له نظر في العلم والأدب « يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، والكلام في معارضة النَّص ، كان يبكي إلى نفسه ، ولا سيَّما إذا وعظ »[2] . وكان يحج عاماً ويغزو عاماً ...

وكان يصلي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الحياة ، إلاَّ أن يعرض له علَّة[3] .. وإذا حجَّ أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج - بسبب جهاد أو غزوة - أحجَّ في كل سنة ثلاث مئة رجل بالنَّفقة السَّابغة ، والكسوة الظَّاهرة .

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص : ٢٨٦ . (راجع جدول خلفاء العصر العباسي الأول ، وجدول « الخلفاء العباسيين » في آخر الكتاب) .

(٢) تاريخ بغداد : ٥/١٤

(٣) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠ ، وتاريخ بغداد : ٥/١٤ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٣

حاول أخوه الهادي أن يرغم الرَّشيدَ على خلع نفسه من الخلافة بعده[١] ، وأن يكتب بولاية العهد لابنه جعفر ، ولكن الرَّشيد ـ وهو وليّ عهد ـ من الجرأة ومتانة الأخلاق والصراحة ، ماهو حقيق بالإعجاب .

بويع له يوم الجمعة في بغداد ـ مدينة السَّلام ـ لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ، وهو ابن تسع عشرة سنة وشهرين ، وثلاث عشرة ليلة . وولد له المأمون في تلك الليلة ، فكان يقال : ولد في هذه الليلة خليفة ، وولي خليفة ، ومات خليفة[٢] .

كان الرَّشيد يقتفي أخلاق المنصور[٣] ، ويعمل بها إلاَّ في العطايا والجوائز ، فإنَّه كان أسنى الناس عطية ابتداء وسؤالاً .. وكان لا يؤخِّر عطاء اليوم إلى عطاء غد ، وكان حبه للفقه والفقهاء عظيم ، وتقديره أو ميله للعلم والعلماء كبير ، يحب الشِّعر ويحفظه ، ويستقبل الشُّعراء ويسمع منهم ، ويعظم في صدره الأدب والأُدباء . وكرهه للمراء في الدين والجدال ، كان يقول : « إنَّه لخليق أن لا ينتج خيراً »[٤] ، وكان يصغي إلى المديح ويحبُّه ، ويجزل عليه العطاء ، ولا سيا إذا كان من شاعر فصيح مجيد .

قال المؤرخون والأُدباء :

« اجتمع للرَّشيد مالم يجتمع لأحد من جدٍّ وهزل : وزراؤه البرامكة ، لم يُرَ

---

(١) وكما قيل : « إذا كان في وسع عشرة من الدَّراويش أن يناموا على بساط واحد ، فإنَّ ملكَيْن لاتتَّسع لهما مملكة بأكملها » .

(٢) تاريخ بغداد : ٥/١٤ ، وفي مروج الذهب للمسعودي ٤٣٧/٣ : « وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين » .

(٣) المنصور : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، بويع له بالخلافة سنة ١٣٦ هـ وكانت خلافته ٢٢ سنة .

(٤) تاريخ بغداد : ٧/١٤

مثلهم سخاء وثروة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الرَّبيع أتْيَه الناس[1] ، وأشدها تعاظماً ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أُم جعفر[2] أرغب النَّاس في الخير ، وأسرعهم إلى كل برٍّ ، وهي أسرع النَّاس في المعروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك[3] .. » .

كان الكسائي معلم الرشيد وفقيهه ، ومن بعده لولديه الأمين والمأمون ، وكان إماماً في فنون عديدة ، النحو والعربية وأيَّام النَّاس ، وقرأ القرآن على حمزة الزيات أربع مرات ، واختار لنفسه قراءة هي إحدى القراءات السَّبع ، وتعلم النحو على كبر سِنِّه ، وخرج إلى البصرة وجالس الخليل بن أحمد[4] .

ذكر أبو حفص الكرماني أنَّ محمد بن يحيي البرمكي حدَّثه ، قال : بعث الهادي إلى يحيي ليلاً ، فأَيس من نفسه ، وودَّع أهله ، وتحنَّط وجدَّد ثيابه ، ولم يشك في أنه يقتله ، فلما أُدْخِلَ عليه قال : يا يحيي ما لي ولك ؟!

قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلاَّ طاعتُه ؟!

قال الهادي : فَلِمَ تدخل بيني وبين أخي تفسده عليَّ ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، من أنا حتَّى أدخلَ بينكما ؟ إنَّما صيَّرني المهدي معه ، وأمرني بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرني به ، ثم أمرتني بذلك فانتهيتُ إلى أمرك .

---

(١) في البداية والنهاية : « أنبه الناس » .

(٢) ستمر ترجمتها مفصلة بعد صفحات .

(٣) رواية النجوم الزاهرة .

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، ولد ومات في البصرة « ١٠٠ ـ ١٧٠ هـ » [الأعلام ٢/٣٦٣] .

قال الهادي : فما الَّذي صنع هارون ؟

قال : ماصنع شيئاً ولا ذلك فيه ولا عنده ، قال : فسكن غضبُه ، وقد كان هارونُ طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحي : لاتفعل ، فقال هارون : أليس يُتركُ لي الهنيءُ والمريءُ فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمِّي ، وكان هارون يَجِدُ بأُمِّ جعفر وجداً شديداً ، فقال له يحي : وأين هذا من الخلافة !؟ ولعلك ألاَّ يُتركَ هذا في يدك حتَّى يخرجَ أجمع ، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرماني أيضاً عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادي بحبس يحي بن خالد ، على ماأراده عليه من خلع الرَّشيد ، فرفع إليه يحي رقعة : إنَّ عندي نصيحةً ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين أخْلِني فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن كان الأمرُ ـ أسألُ اللهَ ألاَّ نبلُغَهُ وأن يقدِّمنا قبله ـ أتظن أنَّ النَّاس يُسلِّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الْحُلُم ، ويرضَوْن به لصلاتهم وحجِّهم وغزوهم ؟

قال الهادي : والله ماأظن ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسموَ إليها أهلُكَ وجِلَّتُهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرُهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟

فقال الهادي : نبهتني يا يحي .

وكان يحي يقول : ماكلمتُ أحداً من الخلفاء كان أعقلَ من موسى (الهادي) ، ثم قال يحي : لو أنَّ هذا الأمر لم يُعْقَدْ لأخيك ، أما كان ينبغي أن تعقدَه له ؟ فكيف بأن تحلَّ عَقْدَه وقد عقده المهديُّ له ؟ ولكن أرى أن تُقرَّ هذا الأمرَ يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ، وبلغ اللهُ به أتيتَه بالرَّشيد فخلع نفسَه ، وكان أوَّل من يبايعه ويعطيه صفقةَ يده ، فقال : فقبِل الهادي قولَه ورأيه ، وأمَر بإطلاقه .

حدث محمد بن عمر الرُّومي عن أبيه قال : جلس موسى الهادي بعدما مَلَكَ في أوَّل خلافته جلوساً خاصّاً ، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبي جعفر ، وإبراهيمَ بن سلم بن قتيبة ، والحرَّاني ، فجلسوا عن يساره ، ومعهم خادمٌ له أسودُ يقال له أسلَمُ ويُكنَّى أبا سليمانَ ، وكان يثقُ به ويقدِّمه ، فبينا هو كذلك ، إذ دخل صالح صاحبُ المصلَّى فقال : هارون بن المهدي ؛ فقال : ائذن له ، فدخل فسلَّم عليه وقبَّل يديه وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية ، فأطرق موسى ينظر إليه وأدمَنَ ذلك ثمَّ التفت إليه فقال : يا هارون ، كأنِّي بك تحدِّث نفسَكَ بتمام الرُّؤيا ، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرطُ القتادِ[1] ، تؤمل الخلافة !

قال : فبرك هارون على ركبتيه ، وقال : يا موسى إنَّك إن تجبَّرتَ وُضِعْتَ ، وإن تواضعتَ رُفِعْتَ ، وإن ظلمتَ خُتِلْتَ[2] ، وإنِّي لأرجو أن يُفضِي الأمرُ إليَّ ، فأُنصِفُ مَنْ ظلمتَ ، وأَصِلُ من قطعتَ ، وأُصيِّرُ أولادَك أعلى من أولادي ، وأُزوجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب من حقِّ الإمام المهدي .

قال : فقال له موسى : ذلك الظنُّ بك يا أبا جعفر ! ادنُ مني ، فدنا منه فقبَّل يديه ثم ذهب يعود إلى مجلسه ، فقال له : لا والشَّيخ الجليل ، والملك النَّبيل ، أعني أباك المنصور ، لا جلستَ إلاَّ معي ، وأجلسه في صدر المجلس معه ، ثمَّ قال : يا حرَّاني ، احمل إلى أخي ألف ألف دينار ، وإذا افتتِحَ الْخَراجُ فاحمل إليه النِّصفَ منه واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا .. فيأخذ جميعَ ما أراد . قال : ففعل ذلك ، ولما قام قال لصالح : أَدن دابتَه إلى البساط .

(١) القتادُ : شجر شاكٍ صُلْب ، ينبت بنجد وتهامة ، واحدته قتادة ، قال أبو حنيفة : القتادة ذات شَوْك ، وفي المثل : من دون ذلك خَرْطُ القَتاد .
قال الأزهري : والقَتادُ شجر ذو شوك لا تأكله الإبل إلاَّ في عام جدب فيجيء الرَّجل ويضرم فيه النَّار حتَّى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله ، ويسمَّى ذلك التقتيد ، [اللِّسان : قتد] .

(٢) الْخَتْل : تخادُعٌ عن غَفْلَةٍ ، والتَّخاتُل : التَّخادُع ، [اللِّسان : ختل] .

قال الرُّومي : وكان هارون يأنس بي ، فقمت إليه ، فقلت : يا سيِّدي ، ما الرُّؤيا الَّتي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أُريتُ في منامي كأنِّي دَفَعْتُ إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً ، فأورَقَ من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأمّا هارون فأورَقَ قضيبُه من أوَّله إلى آخره ، فدعا المهديُّ الحكَمَ بن موسى الضمري ، وكان يُكنَّى أبا سفيان ، فقال له : عبِّر هذه الرُّؤيا ، فقال : يملكان جميعاً ، فأمّا موسى فتقِلُّ أيامه ، وأمّا هارون فيبلغ مدى ماعاش خليفةً ، وتكونُ أيامُه أحسنَ أيّامٍ ، ودهرُه أحسنَ دهرٍ ، قال : ولم يلبث إلاّ أيّاماً يسيرةً ثمَّ اعتلَّ موسى ، ومات وكانت عِلَّتُه ثلاثةَ أيّام .

قال عمر الرُّومي : أفضتِ الخلافةُ إلى هارون فزوَّج حَمْدونةَ من جعفر بن موسى ، وفاطمةَ من إسماعيل بن موسى ، ووفَّى بكلِّ ما قال ، وكان دهرُه أحسنَ الدُّهور .

لما مات الهادي ، وكان الوقت ليلاً ، جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرَّشيد ، فوجده نائماً ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ، فقال له الرَّشيد : كم تروعني ، لو سمعك هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده ؟! فقال : قد مات الرَّجل ، فجلس هارون فقال : أشر عليَّ في الولايات ، فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرَّشيد ، فبينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك السَّاعة غلام ، فقال : هو عبد الله وهو المأمون ، ثمَّ أصبح فصلَّى على أخيه الهادي ، ودفنه بعيساباذ[1] ، وحلف لا يصلي الظُّهر إلاَّ ببغداد ، فلما فرغ من الجنازة ، أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد ، لأنه كان مع جعفر بن الهادي ، وكانا قد زاحما الرشيد على جسر ، فقال أبو عصمة : اصبر

(١) عيساباذ : ومعنى باذ العمارة بالفارسية ، وهي محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي ، [معجم البلدان ١٧٢/٤] .

وقف حتى يجوز وليُّ العهد ، فقال الرَّشيد : السَّمع والطَّاعة للأمير ، فجاز جعفر وأبو عصمة ، ووقف الرَّشيد مكسوراً ذليلاً ، فلما ولي أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى بغداد ، فلما انتهى إلى جسر بغداد ، استدعى الغواصين ، فقال : إني سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمئة ألف ، فلما كان من أيَّام بعث إليَّ الهادي يطلبه فألقيته إلى الرَّسول فسقط ههنا ، فغاص الغواصون وراءه ، فوجدوه ، فسرَّ به الرَّشيد سروراً كثيراً[1] .

كتب يوسف بن القاسم بن صَبيح[2] ، كاتب الرَّشيد ، بيان الرَّشيد إلى العالم الإسلامي ، حين اعتلائه عرش الخلافة ، فقال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عزَّ وجلَّ ، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ :

« إنَّ اللهَ بمنِّه ولطفه ، منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيِّه ، بيتِ الخلافة ومعدن الرِّسالة ، وآتاكم أهل الطَّاعة ، من أنصار الدَّولة وأعوان الدَّعوة ، من نعمه الَّتي لاتُحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد ، وأياديه التَّامة إذ جمع أُلفتَكُم ، وأعلى أمرَكم ، وشدَّ عَضُدَكم ، وأوهنَ عَدُوَّكم ، وأظهرَ كلمةَ الحقِّ ، وكنتم أولى بها وأهلَها ، فأعزَّكم اللهُ وكان الله قوياً عزيزاً ؛ فكنتم أنصارَ دينِ الله المرتضى ، والذَّابين بسيفه المنتضى ، عن أهل بيت نبيِّه ﷺ ، وبكم استنقذهم من أيدي الظَّلَمة أئمة الجور ، والناقضين عهدَ اللهِ ، والسَّافكين الدَّمَ الحرام ، والآكلين الفيءَ ، والمستأثرين به ، فاذكروا ماأعطاكم الله من هذه النِّعمة ، واحذروا أن تُغيِّروا فيغيِّرَ بكم ، وإنَّ الله جلَّ وعزَّ استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه

---

(١) الطبري : ٢٣٢/٨

(٢) يوسف بن القاسم بن صَبيح العجلي بالولاء ، أبو القاسم (ت نحو ١٨٠ هـ / نحو ٧٩٦ م) : كاتب من ساكني سواد الكوفة ، من بيت بلاغة وفضل ، كان من كتَّاب بني أُميَّة ، ولما آلت الدَّولة إلى بني العبَّاس ، استكتبه عبد الله بن علي (عمِّ المنصور) فكان من خاصَّته ، وهو أوَّل من بشَّر هارون الرَّشيد بالخلافة ، [الأعلام ٢٤٥/٨] .

إليـه ، وولّى بعـده رشيـداً مرضيّـاً أمير المـؤمنين بكم رؤوفـاً رحياً ، من مُحْسِنِكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بـالعفو عطـوفـاً ، وهـو ـ أمتعـه الله بـالنّعمـة ، وحفـظ لـه مااسترعاه إياه من أمر الأُمّة ، وتولاّه بما تولّى به أوليـاءه وأهل طـاعتـه ـ يعـدكم من نفسـه ، الرأفـةَ بكم والرَّحمـةَ لكم ، وقَسْمَ أُعطيـاتكم فيكم ، عنـد استحقـاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، مـا ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مُقاصٍّ لكم بذلـك فيما تستقبلون من أعطيـاتكم ، وحـاملاً بـاقي ذلـك للـدَّفع عن حريمكم ، ومـا لعلّـه أن يحدُثَ في النَّـواحي والأقطـار من العصـاة المـارقين إلى بيوت الأمـوال ، حتّى تعـودَ الأمـوالُ إلى جمامها[1] وكثرتهـا والحال الّتي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجدّدوا شكراً يوجب لكم المزيدَ من إحسانه إليكم بمـا جـدّد لكم من رأي أمير المـؤمنين وتفضّـلَ بـه عليكم أيّـده الله بطـاعتـه ، وارغبوا إلى الله له في البقـاء ، ولكم بـه في إدامـةِ النَّعماء ، لعلكم تُرْحَمُون ، وأعطوا صفقـةَ أيمـانكم وقوموا إلى بيعتكم ، حـاطكم الله وحـاط عليكم[2] ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاّكم ولايةَ عباده الصّالحين » .

ولما أفْضَتِ الخلافة إلى الرّشيد دعا يحيي بن خـالـد وقلّـده الوزارة وقـال لـه : يـا أبَتِ ، أنت أجلستني هـذا المجلس ببركتـك وَيُمْنـك وحسن تـدبيرك ، وقـد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه إليه .

وقال له أيضاً : « قد قلدتك أمرَ الرَّعيّة وأخرجتُه من عنقي إليـك ، فـاحكم في ذلـك بمـا ترى من الصّواب ، واستعمل مَنْ رأيتَ ، واعـزل من رأيتَ ، وأمض الأمور على ماترى » ، ودفع إليه خاتمه ، وفي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي :

ألم تَرَ أنّ الشّمسَ كانت سَقيمَـةً   فلمـا وَلي هـارونُ أشرق نـورُهـا

---

(١) الْجَمُّ والْجَمَمُ : الكثير من كلِّ شيء ، [اللّسان : جمم] .

(٢) حاطَه يَحوطُه حَوْطاً وحِيطةً وحياطةً : حَفِظَه وتعَهَّده ، [اللّسان : حوط] .

بِيُمْنِ أمين الله هـــارونَ ذي النَّـــدى   فهـــارونُ واليهـــا ويحيي وزيرُهـــا[1]

وفي السَّنة التي ولي بها الرَّشيد أمر بسهم ذوي القربى أن يقسم بين بني هـاشم على السَّواء ، وفيها تتبع الزَّنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة ، وفيها أكمل بناء مدينة طَرَسوس على يـدي فَرَج الخادم التُّركي ونزلهـا النَّـاس[2] ، وفيهـا حجَّ بـالنَّـاس ، وفيها غزا أيضاً شتاء ، قال داود بن رزين الواسطي الشاعر :

بهـــارونَ لاحَ النـورُ في كلِّ بلـــدة   وقـامَ بـه في عـدلِ سيرتـه النَّهـجُ
إمـــام بـــذاتِ الله أصبـحَ شغلـــه   وأكثر مـــا يُعنى بـه الغـزو والحـجُّ
تضيقُ عيـون النَّاس عن نـور وجهـه   إذا مـــا بـــدا للنَّـــاسِ منظرُه البَلــجُ
وإنَّ أمينَ الله هـــارونَ ذا النَّـــدى   ينيل الَّذي يرجوه أضعاف ما يرجو[3]

وفيها أيضاً غزا الصَّائفة سليمان بن عبد الله البكائي .

☆ ☆ ☆

---

(١) الطبري : ٢٣٣/٨ ، المسعودي « مروج الذهب » : ٣٤٨/٣

(٢) الطبري : ٢٣٤/٨

(٣) الطبري : ٢٣٤/٨ . وورد البيت الأخير أيضاً على الشكل التالي :

تفسَّحت الآمـــالُ في جـود كفِّـــه   فأعطى الَّذي يرجوه فوق الَّذي يرجو

الخيزُران « أمّ الرَّشيد »

« كانت عاقلة لبيبة ديِّنة ، تنفق دخلها كلَّه في الصَّدقات وأبواب الخير » .

زوجة المهدي العباسي ، وأم بنيه الهادي وهارون الرَّشيد ، ملكة حازمة متفقِّهة يمنية الأصل ، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي[(1)] .

كانت من جواري المهدي ، أعتقها وتزوجها ، ولما مات ، وولي ابنها الهادي انفردت بكبار الأُمور ، وأخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها ، وحاول الهادي منعها من ذلك حتَّى قال لها : « لئن بلغني أنَّه وقف ببابك أحد من قوّادي ، أو أحد من خاصتي ، أو خدمي لأضربنَّ عنقه .. أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكِّرك ، أو سبحة ! »[(2)] .

وسعى الهادي في عزل أخيه « الرشيد » من ولاية العهد ، فقيل إنَّها علمت عزمه على قتل الرَّشيد ، فأرسلت إليه بعض جواريها ، وهو مريض ، فجلسن على وجهه حتَّى مات خنقاً ، وولي بعده الرَّشيد فردَّها إلى ما كانت عليه وزادها ، فكان يحي بن خالد يشاورها في الأمور[(3)] .

قال مروان بن أبي حفصة الشَّاعر النَّابه حين تبوّأ الرَّشيد عرش الخلافة بعد أخيه الهادي :

---

(1) الأعلام : ٣٧٥/٢ ، وهي جُرَشية ، وجُرَش من مخاليف اليمن ، وفي الدر المنثور أنها : الخيزران بنت عطاء . وفي معجم البلدان : ١٢٦/٢ حيث حركت « جرش » كما يلي : « جُرَشُ » .

(2) النُّجوم الزَّاهرة : ٦٤/٢ ، الطبري : ٢٠٥/٨ (بتصرف) .

(3) النجوم الزاهرة : ٦٥/٢ ، البداية والنهاية : ١٦١/١٠ ، الطبري : ٢٠٦/٨

يـا خيزُرانُ هَنـاكِ ثمَّ هَنـاكِ   أمسى يَسُـوسُ العـالَمين ٱبنـاكِ

وصفها ابن تغري بردي في (النُّجوم الزَّاهرة) فقال : « وكانت عاقلة لبيبة ديِّنة ، كانت تنفق دخلها كلَّه في الصدقات وأبواب الخير » .

ومما ورد عنها : وقف الهيثم بن مطهَّر على باب الخيزران على ظهر دابته ، فبعث إليه الكاتب في دارها : ٱنزل عن ظهر دابتك فقد جاء في الأثر : « لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس »[1] ، فبعث إليه : إنِّي رجل أعرَج وإن خرج صاحبي خِفْتُ ألاَّ أُدركه . فبعث إليه : إنْ لم تنزل أنزلناك ، قال : هو حبيس[2] إن أنزلتني عنه إن أقْضَمْتُهُ[3] شهراً ، فانظر أيًّا خير له ، راحةُ ساعة أو جوعُ شهر ؟ فقال : هذا شيطان ، ٱتركوه[4] .

حجَّت الخيزران سنة ١٧١ هـ فأنفقت أموالاً كثيرة في الصَّدقات وأبواب البرّ ، واشترت الدَّار المشهورة بها بمكَّة ، المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام[5] .

توفيت ببغداد سنة ١٧٣ هـ[6] / ٨٧٩ م ، فمشى الرشيد في جنازتها وعليه طيلسان أزرق ، وقد شدَّ وسطه بحزام ، وأخذ بقائمة التَّابوت ، حافياً يخبُّ في الطِّين ، حتَّى أتى مقابر قريش ، فغسل رجليه ، وصلَّى عليها ودخل قبرها ،

---

(١) ورد في سنن أبي داود أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إياكم أنْ تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإنَّ الله إنَّما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشق الأنفس » .

(٢) الحبس ضد التخلية ، وأحبس فلان فرساً في سبيل الله أي وقف ، فهو محبس وحبيس .

(٣) القضم : الأكل بأطراف الأسنان ، وقوله : إن أقضمته شهراً ، أي أنه عزم على أن لا يطعمه شهراً إن أُنزل عن ظهر دابته قهراً .

(٤) عيون الأخبار : ١٦٠/١

(٥) البداية والنهاية : ١٦٤/١٠

(٦) ليلة الجمعة لثلاث بقيت من جمادى الآخرة ، البداية والنهاية : ١٦٣/١٠ ، الطبري : ٢٣٨/٨

وتصدَّق عنها بمال عظيم . ولما خرج من القبر أُتِيَ له بسرير فجلس عليه ، واستدعى الفضل بن الرَّبيع فولاه الخاتم والنفقات ، وأنشد الرَّشيد قول ابن نويرة حين دفن أُمَّه الخيزران :

وكنا كندماني جذيمةَ برهة ... من الدَّهر حتَّى قيلَ لن يتصدعا
فلما تفرَّقنا كأنِّي ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا[1]

روي من طريق الخيزران عن مولاها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من اتقى الله وقاه كلَّ شيءٍ » .

(١) البداية والنهاية : ١٠/١٦٤

زبيدة بنت جعفر بن المنصور

زوج الرَّشيد

☆ زبيدة للمأمون بعد مقتل ابنها الأمين : « أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة ، لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أُم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ماأخذ ، وإمتاعاً بما عوَّض » .

أُم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطَّلب بن هاشم .

سيدة جليلة ، ذات يد طولى في الحضارة والعمران والعطف على الأدباء والشُّعراء والأطباء ، ومن ذوات العقل والرَّأي والفصاحة والبلاغة .

أعرس بها الرَّشيد سنة ١٦٥ هـ في خلافة المهدي ببغداد ، فولدت له محمداً الأمين ، فأحبته حباً عظيماً جعلها تهيئ له كلَّ العوامل الَّتي تعتقدها واصلة به إلى عرش الخلافة ، ولما ولدت محمداً الأمين قال مروان بن أبي حفصة :

لله درُّك ياعقيلة جعفر ... ماذا ولدت من النَّدى والسؤددِ
إنَّ الخلافة قد تبيَّن نورها ... للنَّاظرين على جبين محمَّدِ
إنِّي لأعلم أنَّه خليفة ... إنْ بيعةٌ عُقدت وإن لم تُعقدِ

فأمر له الرَّشيد بثلاثة آلاف دينار ، وأمرت زبيدة أن يُحْشى فوه جوهراً ، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار .

واغتمت زبيدة غمّاً شديداً لما ذكر الرّشيد البيعة لابنه المأمون ، فـدخلت على الرّشيد تعاتبه في ذلك أشد المعاتبة ، وتؤاخـذه أعنف المؤاخـذة ، فقـال الرّشيـد : ويحك إنّما هي أُمَّة محمّد ، ورعـايـة من استرعـاني الله تعـالى مطوّقـاً بعنقي ، وقـد عرفت مـابين ابني وابنـك ، ليس ابنـك يـازبيـدة أهـلاً للخلافـة ، ولا يصلـح للرّعيَّة ، قالت : ابني والله خير من ابنـك وأصلح لمـا تريـد ، ليس بكبير سفيـه ، ولا صغير فيه[1] ، أسخى من ابنك نفساً ، وأشجع قلباً ، فقـال هـارون : ويحـك إنَّ ابنـك لأحب إليَّ ، إلاّ أنّهـا الخلافـة لاتصلـح إلاّ لمن كان لهـا أهـلاً ، وبهـا مستحقاً ، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ، فما أغنـانـا أن نلقى الله بوزرهم ، وننقلب إليه بإثمهم ، فاقعـدي حتّى أعرض عليـك مـابين ابني وابنك . فقعدت معه على الفراش ،ثم دعا ابنه عبد الله المأمون ، فلما صـار ببـاب المجلس سلّم على أبيـه بـالْخِـلافـة ، ووقف طـويـلاً وقـد طـأطـأ برأسـه ، وأغضى ببصره ، ينتظر الإذن حتّى كادت قـدمـاه ترم ، ثمَّ أذِنَ لـه بـالجلوس فجلس ، فاستأذن بالكلام ، فأذِنَ لـه فتكلم ، فحمـد الله على مـامَنَّ بـه من رؤيـة أبيـه ، ويرغب إليه في تعجيل الفرج مما به ، ثم استأذنه في الدُّنو من أبيه ، فـدنـا منـه ، وجعل يلثم أسافل قدميه ، ويقبّل بـاطن راحتيـه ، ثم انثنى سـاعيـاً إلى زبيـدة ، فأقبل على تقبيل رأسهـا ، ثم انثنى إلى قـدميهـا ، ثم رجع إلى مجلسـه ، فحمـد الله إليها فيا مَنَّ به عليها من رضى أبيه عنها ، وحسن رأيه فيها ، ويسأله تعالى العون لها على برّه ، وأداء المفروض عليها من حقه ، ويرغب أن يوزعها شكره وحمده . فقال الرّشيد : يـابني إني أُريـد أن أعهـد إليـك عهـد الإمـامـة ، وأُقعـدك مقعـد الخلافة ، فإنّي قد رأيتك أهلاً لها ، وبها حقيقاً .

فاستعبر عبد الله المأمون باكياً ، وصاح متتحباً يسأل الله العافية من ذلـك ،

---

(١) هكذا وردت في « أعلام النّساء » ولعلها لا صغير في هذا الأمر (أي الخلافة) .

ويرغب إليه أن لا يريه فَقْدَ أبيه ، فقال له : يابني ، إني أراني لما بي ، وأنت أحق ، وسلِّم الأمر لله ، وارضَ به ، واسأله العون عليه ، فلا بدّ من عهدي يكون في يومي هذا ، فقال عبد الله المأمون : ياأبتاه ! أخي أحق منّي ، وابن سيدتي ، ولا أخال إلاّ أنّه أقوى على هذا الأمر منّي ، وأشد استطلاعاً ، عرض الله لك مافيه الرّشاد والخلاص ، وللعباد الخير والصّلاح ، ثمّ أذِنَ له فقام خارجاً .

ثمّ دعا هارون بابنه محمّد الأمين ، فأقبل يجرُّ ذيله ، ويتبختر في مشيته ، فمشى داخلاً بنعله قد أُنسي السّلام ، وذهل عن الكلام نخوة وتجبُّراً وتعظُّماً وإعجاباً ، فمشى حتّى صار مستوياً مع أبيه على الفراش ، فقال هارون : ماتقول أي بني ، فإنّي أُريد أن أعهد إليك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، ومن أحقُّ بذلك منّي ، وأنا أسنُّ ولدك ، وابن قرّة عينك ، فقال هارون اخرج يابني .

ثمّ قال لزبيدة : كيف رأيت مابين ابني وابنك ؟

فقالت : ياأمير المؤمنين ، ابني أحق بما تريد ، وأولى بما لديك ، فقال هارون : فإذاً أقررت بالحقّ ، وأنصفت مارأيت ، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك بعد .. فكتب عهد عبد الله المأمون ، ثم محمد الأمين بعد[1] .

وكما سبق ، كان الكسائي يؤدب الأمين بشدّة ويقول : « إنّ محمّداً مرشّح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التّقصير في تأديبه »[2] .

ولما قتل ابنها الأمين ، دخل إليها بعض خدمها فقال : ما يجلسك وقد قُتِلَ أميرُ المؤمنين محمداً ؟ فقالت : ويلك وما أصنع ؟ فقال : تخرجين فتطلبين بثأره ، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان . فقالت : اخسأ لا أُمَّ لك ، ماللنّساء

---

(١) أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام : ١٧/٢ ـ ٢٩ـ عن « الإمامة والسّياسة » .

(٢) المرجع السابق : ٢٠/٢

وطلب الثَّأر ومنازلة الأبطال[1] ؟! وهذا يدل على رجاحة عقلها .

ثمّ أمرت بثيابها فسُوِّدت ، ولبست مسحاً من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس فكتبت إلى المأمون :

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق[2] فوق أعوادِ منبرِ
ووارث[3] علم الأوّلين وفخرهم[4] ... وللملك المأمون من أُمّ جعفرِ
كتبتُ وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى النّاس منك قرابة ... ومن زال عن كبدي فقلَّ تصبُّري
أتى طاهر[5] لا قدّس الله طاهراً ... فما طاهر في فعله[6] بمطهّر
فأبرزني[7] مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وأحرق أدؤري[8]
يَعزُّ على هارونَ ما قد لقيته ... وما نالني من ناقص الخلق أعورِ[9]

(١) مروج الذهب للمسعودي : ٤٨٦/٣ ، وهذا ليس طعناً بالسيدة عائشة ، إنّما استفادت زبيدة من دروس التاريخ .

(٢) في رواية « وأفضل سام » .

(٣) وفي رواية « لوارث » .

(٤) وفي رواية « وفهمهم » .

(٥) وفي رواية « لأطّهر » ، وطاهر هو : طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي (أبو الطّيب) : [١٥٩ ـ ٢٠٧ هـ/٧٧٥ ـ ٨٢٢ م] ، وهو الذي وطّد الملك للمأمون عندما زحف إلى بغداد ، فهاجمها وظفر بالأمين وقتله سنة ١٩٨ هـ ، وعقد البيعة للمأمون ، وكان في نفس المأمون شيء عليه ، لقتله أخاه (الأمين) بغير مشورته ، ولعله شعر بذلك ، فلما استقرّ في خراسان ، قطع خطبة المأمون ، فقتله أحد غلمانه في تلك اللّيلة بمرو ، وقيل مات مسموماً . [الأعلام ٢٢١/٣] .

(٦) « فيما أتى » .

(٧) « فأخرجني » .

(٨) « آدري » .

(٩) تعني طاهراً ، وكان أعور .

فإن كان ما أُسدى لأمر أمرتَهُ صبرتُ لأمر من قديرٍ مقدَّر
وقد مَسَّني ضرٌّ وذلٌّ كآبة وأرَّق عيني يا ابن عمي تفكُّري[1]
وهمتُ لما لاقيتُ بعد مُصابه فأمري عظيم منكر جِدَّ منكرِ
سأشكو الّذي لاقيته بعد فقده إليك شَكاةَ الْمُسْتَهام المقهرِ
وأرجو لما قد مرّ بي مذ فقدته فأنت لِبَثّي خيرُ ربٍّ مغير

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ، ثمّ قال : اللّهم إنّي أقول كما قال أمير المؤمنين عليّ لما بلغه قَتلُ عثمان : والله ماقَتَلْت ، ولا أَمَرت ، ولا رَضيت ، اللّهم حبِّل قلب طاهر ـ بن الحسين ـ حزناً .

ولما لقيَتْ المأمون قالت له : ياأمير المؤمنين ، إن لكما يوماً تجتمعان فيه ، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله .

وفي رواية الخطيب البغدادي ، أنّ زبيدة قالت للمأمون عند دخوله بغداد ، أُهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفةً ، لقد عوّضت ابناً خليفة لم أَلِده ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أُم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوَّض . فأخذ المأمون بعد ذلك يزيد في تكريمه لزبيدة وأُسرتها .

لقد كانت زبيدة كاتبة ، يُسمع من قصرها دوي كدويّ النّحل من قراءة القرآن الكريم ، شملت عطفها الفقراء ، وأرباب التّقوى والصّلاح والعلماء ، ومن آثارها ، وأعمالها الجليلة الّتي خلفتها وانتفع بها المسلمون خير انتفاع ، أنَّها سقت أهل مكّة الماء ، بعد أن كانت الرّاوية عندهم بدينار ، وأسالت المياه عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر ، غلغلته من الْحلّ إلى الحرم ، ومهّدت الطّريق لمائها

---

(١) تتمة الأبيات من « الطبري » .

في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر . وعرفت هـذه العين بعين الشَّماس ، وكان جملة ماأنفق عليها مما ذكر وأُحصي ألف ألف وسبع مئة ألف دينار .

ووصف اليـافعي في القرن الثـامن للهجرة تلـك العين ، فقـال : إنَّ آثـارهـا باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة ، ممـا يتنزه برؤيتهـا على يمين الـذّاهب إلى مِنَى من مكَّـة ، ذات بنيـان محكم في الجبـال ، تقصر العبـارة عن وصف حُسْنِـه . وينزل المـاء منـه إلى موضع تحت الأرض عميق ، ذات درج كثير جداً ، لا يوصل إلى قراره إلاَّ بهبوط كالبير ، يسمونه لظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيـه وحـده نهاراً فضلاً عن الليل (١) .

وبلغت نفقاتها في بعض حجـاتهـا ألف ألف دينـار ، وبلغت نفقتهـا في ستين يوماً أربعـة وخمسين ألف درهم ، فرفع إليهـا وكيلهـا حسـاب النَّفقـة ، فنهتـه عن ذلك وقالت : ثواب الله بغير حساب .

وقال ابن جبير بعد أن ذكر المصانع والبِرَك والآبـار والمنـازل الّتي من بغـداد إلى مكة : إن كلَّ ذلك من آثار زبيدة ، فانتدبت لذلك مدة حياتهـا ، فـأبقت في هذه الطَّريق مرافق ومنافع تعمّ وفد الله تعالى كل سنة من لدن وَفاتهـا إلى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ، لما سُلِكت هذه الطريق ، والله كفيل بمجـازاتهـا ، والرضى عنها (٢) .

وينسب إلى زبيدة مسجد زبيـدة أُم جعفر ببغـداد ، كان قريبـاً من مسجـد الشَّيخ معروف الكرخي ، وقد اندرس سنة ١١٩٥ هـ ، وكان هـذا المسجـد واسعـاً وطيد البناء قوي الأركان ، ولما بنى سليمان بـاشـا الكبير والي بغداد سور الجانب

---

(١) أعلام النساء : ٢٧/٢ ، « أوردنا النصَّ بحرفيّته ، على الرغم مما فيه من انقطاع وأخطاء » .

(٢) رحلة ابن جبير : ١٦٥ . ورآها بعض الصَّالحين في المنام بعد وفـاتهـا سنـة ٢١٧ هـ ، فقـال لهـا : مافعل الله بك ؟ قالت : غفر لي بأول معول ضرب في طريق مكـة . وينسب هـذا الخبر خطـأ إلى عبد الله بن المبارك لأنه توفي قبلها أيّام الرَّشيد .

الغربي استعملت أنقاضه في بناء السور ، ولم يبق من ذلك المسجد سوى قبر زبيدة ، وعليه قبة مخروطية الشّكل من نوادر الفنّ المعماري .

وينسب إليها (المُحدَث) ، وهو منزل في طريق مكّة بعد النقرة ، على ستة أميال منها ، فيه قصر وقبات متفرقة ، وفيه بركة وبيران ماؤهما عذب ، وينسب إليها (العُنابَة) ، وهي بركة لزبيدة بعد قباب على ثلاثة أميال تلقاء سميراء ، وبعد توز[1] ، وماؤها ملح غليظ ، وينسب إليها بركة أم جعفر ، وهي في طريق مكة بين المغيثة[2] والعذيب[3] ، وينسب إليها القنيعة ، وهي بركة بين الثعلبية[4] والخزيمية[5] بطريق مكّة ، وينسب إليها الْحَسِنيُّ ، وهو بئر على ستة أميال من قَرَوْرى[6] قرب معدن النقرة ، وينسب إليها الزبيدية ، وهي بركة بين المغيثة والعذيب ، وبها قصر ومسجد عمرتها زبيدة .

ومن أخبارها :

وقع خلاف بين هارون الرّشيد وزبيدة في بيت من الشعر هو :

إنّ العيون الّتي في طَرْفها حور ... قتلننا ثمّ لم يُحيينَ قتلانا[7]

فكان الرّشيد يقول : « يحيين » ، وزبيدة تقول : « يجنن » بالجيم والنون ، فتخاطرا على ذلك بألفي دينار ، ودعوا مسروراً الخادم ، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل من ببغداد من أهل العلم ، فإن صوّب قول الرّشيد أعطاه ألفاً ، وإن

---

(١) سميراء : منزل بطريق مكة بعد توز ، وتوز منزل في طريق الحاج أيضاً .
(٢) المغيثة : منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة .
(٣) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .
(٤) الثعلبية : منزل من منازل الطريق إلى مكة من الكوفة بعد الشُّوق وقبل الخزيمية .
(٥) الخزيمية : منزل من منازل الحاج بعد الثعلبية من الكوفة وقبل الأجفر .
(٦) قَرَورى : موضع بين المعدن والحاجر على اثني عشر ميلاً من الحاجر .
(٧) البيت لجرير ، ديوانه : ٥٩٥

صوَّب قول زبيدة فألْفُها ، فخرج مسرور بالشُّموع يطلب من يفتيه في ذلك ، فدلّ على الكسائي ، وكان قريب عهد القدوم من الكوفة إلى بغداد ، وكان يأوي إلى مسجد ، فدخل مسرور عليه بخيله وحشمه ، فتحفَّز له الكسائي ، فقال : لا بأس ، إنَّه بيت أشكل علينا ، واستفتاه في الكلمتين فصوّبها جميعاً ، فأعطاه الألفين ، فأصبح وقد استفاد بكلمة أوضحها ماأغناه ، وهذا دليل على حسن تأتيه ولطافة أدبه[(١)] .

وأنشد رجل زبيدة :

أزبيدةُ ابنةَ جعفر ... طوبى لزائرك المثابِ
تعطينَ من رجليك ما ... تُعطي الأكفُّ من الرّغابِ

فوثب إليه الخدم يضربونه ، فمنعتهم من ذلك ، وقالت أراد خيراً وأخطأ ، وهو أحب إلينا ممن أراد شراً فأصاب ؛ سمع قولهم : شِمَالك أندى من يمين غيرك ، فظن أنَّه إذا قال هكذا كان أبلغ . أعطوه ماأمَّل ، وعرِّفوه ماجهل[(٢)] .

ومات لها قرد ، فساءَها ذلك ، ونالها من الغمّ ماعرفه الصَّغير والكبير من خاصتها ، فكتب إليها أبو هارون العبدي : أيتها السَّيِّدة الخطيرة ، إن موقع الخطب بذهاب الصَّغير المعجب ، كموقع السُّرور بنيل الكثير المُفرح ، ومن جهل قدر التَّعزية عن التافه الخفي ، عَمِيَ عن التَّهنئة بالجليل السَّنيِّ ، فلا نقصك الله الزائد في سرورك ، ولا حرمك أجر الذَّاهب من صغيرك ، فأمرت له بجائزة[(٣)] .

اختلف الرَّشيد وأُمُّ جعفر في اللَّوزينج والفالوذج أيُّهما أطيب ، فمالت زبيدة إلى تفضيل الفالوذج ، ومال الرَّشيد إلى تفضيل اللّوزينج ، وتخاطرا على مئة

---

(١) أمالي المرتضى : ٢٣٥
(٢) زهرة الآداب وثمرة الألباب : ٣٤٩
(٣) المرجع السابق : ٩٦٢

دينار ، فأحضرا أبا يوسف القاضي ، وقالا له : يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه ، فقال : ياأمير المؤمنين مايحكم على غائب وهو مذهبُ أبي حنيفة ، فأحضر له جامَيْن من المذكورَيْن ، فطفق يأكل من هذا مرّة ، ومن هذا مرّة ، وتحقّق أنّه إنْ حكم للرّشيد لم يأمن غضب زبيدة ، وإن حكم لها لم يأمن غضب الرّشيد ، فلم يزل في الأكل إلى أن نصّف الجامَيْن ، فقال له الرّشيد : إيه أبا يوسف ، فقال : ياأمير المؤمنين ، مارأيت خصمَيْن أجدل منهما ، كلّما أردت أن أُسجّل لأحدهما أدلى الآخر بحجّته ، وقد حرْتُ بينهما ، فضحك الرّشيد ، وأعطاه المئة دينار ، وانصرف مشكوراً[1] .

هذه لمحات من حياة زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، الّتي توفيت ببغداد في جمادى الأُولى سنة ٢١٦ هـ ، ولقد كانت سيّدة مؤمنة جليلة ، محبة للعمران ، عطوفة على ذوي الرّأي والبلاغة والعلم .

ومما قيل فيها : « امرأة لها اثنا عشر محرماً كل منهم خليفة : عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جَدُّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك بن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك ابنها ، والوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .

ومثلها في بني العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، جدها المنصور ، وأخوها السّفاح ، وزوجها الرّشيد ، وعمها المهدي ، وابنها الأمين ، وأبناء زوجها المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل »[2] .

وزوجها الرّشيد خليفة سلّم عليه بالخلافة عمه وعم أبيه وعم جده ، سلّم عليه

---

(١) وفيات الأعيان : ٣١٦/٢

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : ٤٤٠/١

سليمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي ، وعبد الصمد بن علي عم جده أبي جعفر المنصور .

وابنها محمد الأمين ، ولّى الرّشيد الكسائي تأديبه وتأديب عبد الله المأمون ، يقول الكسائي : « فكنت أُشدّد عليهما في الأدب ، وآخذهما به أخذاً شديداً ، وبخاصة محمد ، فأتتني ذات يوم « خالصَةُ » جارية أم جعفر - زبيدة - فقالت : ياكسائي ، إنّ السَّيِّدة تقرأ عليك السّلام ، وتقول لك ، حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد ، فإنّه ثمرة فؤادي ، وقُرّة عيني ، وأنا أرقّ عليه رقَّة شديدة ، فقلت لخالصة : إنّ محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التّقصير في تأديبه ، فقالت خالصة : إنّ لرقة السَّيِّدة سبباً أنا مُخبِرَتُك به .

إنّها في اللّيلة الّتي ولدته أُرِيَتْ في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه ، فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه ، فقالت الّتي بين يديه : مَلِكٌ قليل العُمر ، ضيِّق الصّدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوِزْر ، شديد الغَدْر . وقالت الّتي من ورائه : مَلِكٌ قصّاف ، مُبذِّر متلاف ، قليل الإنصاف ، كثير الإسراف ، وقالت الّتي عن يمينه : مَلِكٌ ضخم ، قليل الحلم ، كثير الإثم ، قَطُوع للرّحم . وقالت الّتي عن يساره : مَلِكٌ غدّار ، كثير العثار ، ثم بكت خالصة وقالت : ياكسائي ، وهل يُغني الْحَذَر ؟ »[1] .

لم نَسُق ماقالته « خالصة » ، لصحة الصفات الّتي وردت بحق ابن زبيدة محمد الأمين ، إنها رؤيا أوردتها بعض الكتب منمقة مسجوعة ، والحقيقة تقول : جلس الأصمعي يمتحن ويختبر الأمين والمأمون ، فقال : « ثمّ أمرني - الرّشيد - مطارحتهما ، فكنت لاأُلقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلاّ أجابا فيه وأصابا » .

ورأينا أنّ الأخبار الّتي وردت عن الأمين هي إمّا أحلام ، وإمّا أنّها كتبت

(١) الأخبار الطّوال : ٣٨٨

في عهد المأمون وإخوته أي بعد انحسار العنصر العربي وتغلُّب الشُّعوبيّة . وما من شك أنَّ الرَّشيد كان يقدم الأمين ، ولولا ذلك فما الذي كان يمنعه من تقديم المأمون ؟ ورواية الأصمعي عنهما تؤكِّد أنَّ الأمين كان على مستوى الخلافة . غير أن الحديث عنه تقرُّباً من المأمون والفُرس . وهل كان الرَّشيد منساقاً في عواطفه مع زبيدة ؟! إنَّ ماجاء في هذا من أخبار الأمين والمأمون فيه نظر .

قال الرَّشيد لزبيدة يوماً : أتزوج عليك ؟

قالت زبيدة : لايحلّ لك أن تتزوّج عليَّ .

قال : بلى .

قالت : بيني وبينك من شئت .

قال : ترضين بسفيان الثَّوري ؟

قالت : نعم . فوجَّه إلى سفيان الثَّوري ، فقال الرَّشيد : إنَّ زبيدة تزعم أنَّه لايحلّ لي أن أتزوج عليها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباع ﴾ ، ثم سكت ، فقال سفيان : تمِّم الآية ، يريد أن يقرأ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُم أَنْ لاتَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء ٣/٤] وأنت لاتعدل ، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم ، فأبى سفيان أن يقبلها[١] .

وجرى بين الرَّشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة في شيء من الأشياء ، فقال الرَّشيد لها في عرض كلامه : أنتِ طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثمّ ندم واغتما جميعاً بهذه اليمين ، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه ، فجمع الفقهاء ، وسألهم عن هذه اليمين فلم يجد منها مخرجاً .

---

(١) حلية الأولياء : ٣٧٨/٦

وفي جلسة ضمت فقهاء من سائر الأمصار ، تكلَّم كلّهم باستثناء اللَّيث بن سعد ، فدعاه الرَّشيد وقرَّبه ، فطلب من الرَّشيد إحضار مصحف جامع ، فأُمر به فأُحضر ، فقال اللَّيث بن سعد : يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتَّى يصل إلى سورة الرَّحمن ، فأخذه الرَّشيد وتصفحه ، حتَّى وصل إلى سورة الرَّحمن ، فقال اللَّيث : يقرأ أمير المؤمنين ، فقرأ فلما بلغ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، قال : قِف ياأمير المؤمنين ههنا ، فوقف ، فقال : يقول أمير المؤمنين واللهِ ، فاشتدّ على الرَّشيد وعليّ ذلك ، فقال له الرَّشيد : ماهذا ؟ قال : ياأمير المؤمنين على هذا وقع الشرط ، فنكس أمير المؤمنين رأسه ـ وكانت زبيدة في بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب ـ ثمّ رفع الرَّشيد رأسه إليه فقال : واللهِ ! قال الَّذي لا إله إلا هو الرَّحمن الرَّحيم إلى أن بلغ آخر اليمين ، ثمّ قال اللَّيث : إنَّك ياأمير المؤمنين تخاف مقام اللهِ ؟ قال الرَّشيد : إنِّي أخاف مقام الله ، فقال : ياأمير المؤمنين فهي جنَّتان وليست بجنَّة واحدة ، كما ذكر الله تعالى في كتابه ، ففرحت زبيدة ، وقال الرَّشيد : أحسنتَ والله بارك الله فيك ، ثمّ أمر بالجوائز والخلع للَّيث بن سعد . وأمرت زبيدة له بضعف ماأمر به الرَّشيد ، فَحُمِل إليه واستأذن في الرجوع إلى مصر ، فحمل مكرماً .

هذه هي زبيدة ، الَّتي تزوجها الرَّشيد عام ١٦٥ هـ ، واسمها الحقيقي (أمة العزيز) وغلب عليها لقب زبيدة ، لقد كان جدها المنصور يداعبها في طفولتها ويقول : يازبيدة « لِبَضاضتها ونضارتها »[١] ! فغلب ذلك على اسمها .

لقد كانت كما وصفها ابن تغري بردي : « أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً ، ولقد تركت على طريق الحج مرافق ومنافع عمّت الجميع قروناً . وهكذا كانت بحق من فضليات النساء وشهيراتهن » .

تغمّدها الله برحمته ، وأجزل لها الثواب .

---

(١) وفيات الأعيان : ٣١٤/٢

بيت الرشيد

١ ـ نساء الرَّشيد المهائر[1] :

تزوَّج زبيـدة ، وهي أُمُّ جعفر بنت جعفر بن المنصـور ، سنـة ١٦٥ هـ ، في خلافة المهدي ببغداد ، وفي دار محَّمد بن سليمـان ـ الَّتي صـارت بعـد للعبـاسـة ، ثمَّ صارت للمعتصم بالله ـ فولدت له محَّمداً الأمين ، ومـاتت ببغـداد في جمـادى الأُولى سنة ٢١٦ هـ .

وتزوَّج أمةَ العزيز أُمّ ولد موسى ، فولدت له علي بن الرَّشيد .

وتزوَّج أُمّ محمد ابنة صالح المسكين ، وأعرس بها بالرَّقَّة سنـة ١٨٧ هـ ، وأُمُّهـا أُم عبد الله ابنـة عيسى بن علي ، كانت أملكت من إبراهيم بن المهـدي ، ثمّ خلعت منه فتزوَّجها الرَّشيد .

وتزوَّج العبَّاسة ابنة سليمان بن أبي جعفر سنة ١٨٧ هـ .

وتـزوَّج الْجُرَشيَّـة العثمـانيـة ، وهي ابنـة عبـد الله بن محمـد بن عبـد الله بن عمرو بن عثمان بن عفَّان ، وسمِّيت الْجُرَشيَّة لأنَّها ولت بِجُرَش باليمن .

ومات الرَّشيد عن أربع مهائر : أُمّ جعفر ، وأُم محمد ابنة صالح ، وعبَّاسة ابنة سليمان ، والعثمانيَّة .

---

(١) اعتمدنا رواية الطبري : ٣٦٠/٨ ، وهناك اختلاف بين الرِّوايـات ، انظر : البدايـة والنِّهايـة : ٢٢٢/١٠ ، والعقد الفريد : ١١٧/٥

٢ ـ أولاد الرَّشيد :

أ ـ الذُّكور : محمد الأكبر وأُمُّه زبيدة ، وعبد الله المأمون وأُمُّه أم ولد يقال لها مراجل ، والقاسم المؤتمن وأُمُّه أُم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم وأُمُّه أم ولد يقال لها ماردة ، وعلي وأُمُّه أمة العزيز ، وصالح وأُمُّه أم ولد يقال لها رئم ، ومحمد أبو عيسى وأُمُّه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأُمُّه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأُمُّه أُم ولد يقال لها خُبْث ، ومحمد أبو سليمان وأُمُّه أُم ولد يقال لها رَواح ، ومحمد أبو علي وأُمُّه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأُمُّه أم ولد يقال لها كِتْمان .

ب ـ البنات : سكينة وأُمُّها قصف وهي أُخت القاسم ، وأُم حبيب وأُمها ماردة وهي أُخت أبي إسحاق المعتصم ، وأروى أُمُّها حَلوب ، وأُم الحسن وأُمُّها عِرَابة ، وأُم محمد وهي حَمْدونة ، وفاطمة وأُمُّها غُصَص واسمها مصفّى ، وأُم أبيها وأُمُّها سكَّر ، وأُم سلمة وأُمها رحيق ، وخديجة وأُمها شَجَر ، وهي أُخت كريب ، وأُم قاسم وأُمها خزق ، ورملة أم جعفر وأُمها حَلْى ، وأُم علي أُمها أنيق ، وأُم الغالية أُمُّها سَمَنْدَل ، وريطة أُمها زينة .

☆ ☆ ☆

وِلايَةُ العَهد

وقلـد الأرض هـارون لرأفتـه
بنـا أميناً ومأمـوناً ومؤتمنا

عقد الرَّشيد لابنه محمد الأمين ولاية العهد ، يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومئة ، وضمَّ إليه الشَّام والعراق في سنـة خمس وسبعين ومئة[1] ، ثمَّ بـايع لعبد الله المأمون بالرِّقَّة في سنة ثلاث وثمانين ومئة ، وولاه من حدِّ همـذان إلى آخر المشرق . فقال في ذلك سَلم بن عمرو الخاسر :

بـايَـع هـارونُ إمـامُ الْهُـدى ... لِـذي الحِجى والخُلُق الفـاضِـلِ
المخلِف الْمُتلفِ أمـوالَـــهُ ... والضـامِنِ الأثقـالَ للحـامِـلِ
والعـالِمِ النـافـذ في علمِـه ... والحـاكمِ الفـاضـلِ والعـادلِ
والرَّاتقِ الفـاتِـقِ حلفَ الهـوى ... القـائـلِ الصَّـادق والفـاعِـلِ
لِخَيرِ عبـــاس إذا حُصِّلـــوا ... والمفضـل المجـدي على العـائـل
أبَرِّهـــم بـــرّاً وأولاهُـــمُ ... بـالعرف عنـد الحـدث النـازلِ
لِمُشبِـهِ المنصـور في ملكـه ... إذا تَـدجَّت ظُلْمـةُ البـاطِـلِ
فتَمَّ بـالمـأمـونِ نـورُ الهـدى ... وانكشف الجهـل عن الجـاهـلِ[2]

---

(١) حين بايع الرَّشيد لمحمد بن زبيدة ، يعني ولده الأمين ، قال قصيدته الَّتي أولها :

قـل للمنـازل بـالكثيب الأعفر ... أسقيت غـاديـة السَّحـاب المطرِ
قـد بـايـع الثَّقـلان مهـديَّ الهـدى ... لمحمـد بن زبيـدة ابنـة جعفرِ

فحشت زبيدة فاه درّاً فباعه بعشرين ألف دينار .

(٢) تاريخ الطبري : ٢٧٥/٨ و ٢٧٦

وبعد مبايعة الرَّشيد لمحمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، كتب إليه عبد الملك بن صالح :

يا أيُّها المَلِكُ الَّذي … لو كان نجماً كان سعدا
اعقدْ لقاسِم بيعَة … واقدح له في الملك زندا
اللهُ فرد واحد … فاجعل ولاة العهد فردا[1]

فكان ذلك أول من حضَّ الرَّشيد على البيعة للقاسم ، ثم بايع للقاسم ابنه وسمّاه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثُّغور والعواصم ، فقيل :

حبُّ الخليفةِ حُب لا يدين بهِ … من كان لله عاص يعملُ الفِتنا
الله قلَّدَ هاروناً سياسَتنا … لَمَّا اصطفاهُ فأحيا الدِّينَ والسُّننا
وقلَّدَ الأرض هارون لرأفَتِه … بنا أميناً ومأموناً ومؤتمنا[2]

ولما قسّم الرَّشيد البلاد بين أولاده الثلاثة ، كان من الناس من قال : قد أحكم أمر الملك ، ومنهم من قال : بل ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ماصنع في ذلك مخوفة على الرعية .

البيعة بولاية العهد الثُّنائيَّة أو الثُّلاثيَّة سُنَّة أُمويَّة أتت ثمرها الخبيث ، وكان على الرَّشيد تجنبها ، ومع أنَّه احتاط فأخذ على أبنائه العهود والمواثيق ، أن يفي بعضهم لبعض ، ويبرّ بعضهم ببعضٍ ، ولكن ما قيمة هذا الاحتياط قبالة مطامع الإنسان ؟

وفي سنة ست وثمانين ومئة ، حجَّ الرَّشيد والأمين والمأمون معه وقواده ، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين ، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيها ، أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وَلِيَ عبد الله المأمون من الأعمال ، وصيَّر إليه من الضِّياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة الَّتي أخذها على الخاصَّة والعامَّة . والشُّروط للمأمون على الأمين وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة

(١ و٢) تاريخ الطبري : ٢٧٦/٨

على الأمين ، وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده ووزرائه وكتابه وغيرهم .

ولما رُفع الكتاب ليُعَلّق في الكعبة وقع ، فقيل إنّ هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه[1] .

قال إبراهيم الموصلي في بيعة هارون لابنيه في الكعبة :

خيرُ الأُمــورِ مَغبــة ... وأحــقُ أمرٍ بــالتَّمامِ
أمرٌ قضى إحكامــه الر ... حمــانُ في البيت الحرامِ

كان الرَّشيد يتوسم النَّجابة والرجاحة في عبد الله المأمون ، ويقول : والله إنّ فيه حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة نفس الهادي ، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت[2] ، وإني لأُقدم محمد بن زبيدة ، وإني لأعلم أنه متبع هواه ، ولكن لا أستطيع غير ذلك وقال :

لقد بان وجه الرَّأي لي غير أنّني ... غلبتُ على الأمرِ الّذي كانَ أحزما
وكيف يُرَدُّ الدَّرُّ في الضِّرع بعدما ... توزعَ حتّى صار نهباً مقسَّما
أخافُ التواءَ الأمرِ بعد استوائِه ... وأن ينقض الأمر الّذي كان أُبرما[3]

لقد دخل الرَّشيد مرّة على المأمون وهو ينظر في كتاب ، فقال : ما هذا ؟ فقال : كتاب يشحذ الفكرة ، ويُحسنُ العشرة ، فقال الرَّشيد : أحمد الله الّذي رزقني من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه[4] .

☆ ☆ ☆

(١) راجع الطبري : ٢٧٦/٨ ، وصبح الأعشى : ٩٢/١٤

(٢) مما في الرشيد من إيمان وأدب وعلم . (مروج الذهب) ٣٦٢/٣

(٣) البداية والنهاية : ١٦٥/١٠ ، ١٦٦

(٤) زهرة الأدب وثمرة الألباب : ١٤٢

وَفاة الرَّشيد

«اللَّهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة،
يا من لا يموت ، ارحم من يموت .. » .

الرَّشيد

رأى الرَّشيد وهو بالكوفة رؤيا أفزعته ، وغمَّه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع[1] فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفّاً فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري ، وقائلاً يقول : هذه تربة هارون .

فهوَّن عليه جبريل بن بختيشوع أمرها ، وقال : هذه من أضغاث الأحلام ، من حديث النَّفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين .

ولما سار الرَّشيد إلى خراسان عام ١٩٣ هـ ، مرَّ بِطُوس[2] واعتلته العلَّة بها .

---

(١) جبريل بن بختيشوع بن جرجس « توفي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م » ، طبيب الرشيد ، علت منزلته عنده ، وعندما توفي الرشيد خدم الأمين ، دفن في المدائن في دير مارجرجس ، وله تصانيف ألفها للمأمون . الأعلام : ١٠١/٢

(٢) طوس : مدينة بالقرب من مدينة نيسابور ، بها آثار إسلامية جليلة ، وكان بها دار حميد قحطبة ، وهي اليوم ضاحية من ضواحي مدينة مشهد ، حيث مقام الإمام الرضا رضي الله عنه ، زرتها يوم الأحد ١٩٨٩/٢/١٢ وحتَّى ١٩٨٩/٢/١٥ ، ولم يبقَ في طوس أثر من آثار الرشيد إلا بناء بجواره قبر الإمام الغزالي (حجة الإسلام) يقال إنه سجن كان يستخدم أيام الرشيد ، لقد دُرِس قبر الرشيد ، وكُتِبَ فوق مقام الإمام الرِّضا على جدار القبة التي تعلوه ، بيتان من الشِّعر لدعبل الخزاعي هما :

قبرانِ في طُوس، خيرُ النَّاسِ كلِّهم ... وقبر شرِّهم هـــذا من العِبَرِ
مـا ينفع الرجسَ من قربِ الزَّكي ولا ... على الزَّكي بقرب الرِّجس من ضَررِ!!!

وقيل لي في مشهد : إنَّ طوس القديمة هدمها المغول ، وطوس الجديدة اليوم والَّتي نراها الآن ، قريبة جداً من موقع طوس القديمة . كما ذكرنا في التصدير .

وذكر رؤياه ، فهاله ذلك ، وقال لجبريل : ويحك ! أما تذكر ماقصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتني بشيء من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حمراء في يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف الَّتي رأيت ، والتّربة الَّتي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ماأتت عليه ثلاث حتَّى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدَّار الَّتي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطَّائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هذا ، ثم أمر أن يقرؤوا القرآن في قبره ، فقرؤوه حتى ختموه ، وهو في محفة على شفير القبر ، ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة ، وجلس يقاسي سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال : أمَا سمعت قول الشاعر :

وإني من قَوْمٍ كرام يزيدهم ... شماساً وصبراً شدة الحدثان[(١)]

ومما قاله عندما حضره الموت : « اللَّهم انفعنا بالإحسان ، واغفر لنا الإساءة ، يا من لا يموت ، ارحم من يموت »[(٢)] ، وقال :

إنّ الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع محذور القضا
ما للطَّبيب يموت بالدَّاء الَّذي ... قد كان يشفي مثله فيما مضى[(٣)]

مات الرَّشيد بطوس ، ليلة السَّبت لأربع خلون من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وتسعين ومئة[(٤)] ، ودفن بقرية يقال لها (سناباذ) ، وصلَّى عليه ابنه صالح .

---

(١) البداية والنهاية : ٢١٣/١٠

(٢) تاريخ بغداد : ٢٢١/١٤

(٣) مروج الذهب : ٢٧٥/٣ ، وفي الأخبار الطوال : ٣٩٢ ، عجز البيت الأول : « لا يستطيع دفاع محذور جرى » .

(٤) الموافق ٢٧ مارس (آذار) ٨٠٨ م .

وكان عمره عندها خمساً وأربعين سنة ، وخلافته دامت ثلاثاً وعشرين سنة ، وشهرين ، وستة عشر يوماً [1] .

وقيل عن سبب وفاته : مرضه بالدم ، وقيل بالسُّل ، وجبريل الطَّبيب يكتم مابه من العلَّة ، فأمر الرَّشيد رجلاً أن يأخذ ماءه في قارورة ويذهب به إلى جبريل ، فيريه إياه ، ولا يذكر بول من هو ، فإن سأله قال : هو بول مريض عندنا ، فلما رآه جبريل ، قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به . فقال له : بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء ، فإنَّ لي عليه مالاً ، فإن كان به رجاء ، وإلاَّ أخذت مالي منه ، فقال : اذهب فتخلص منه ، فإنَّه لا يعيش إلاَّ أيَّاماً ، فلما جاء وأخبر الرَّشيد ، بعث إلى جبريل فتغيب ، حتى مات الرَّشيد ، وقد قال الرَّشيد وهو في هذه الحال [2] :

إني بطوس مقيم ... مالي بطوسٍ حميمُ
أرجو إلهي لما بي ... فإنَّه بي رحيمُ
لقد أتى بي طوساً ... قضاؤه المحتومُ
وليس إلاَّ رضائي ... والصَّبرُ والتَّسليمُ

ولأبي الشِّيص يرثي الرَّشيد :

غربت في الشَّرق شمسٌ ... فلها عينيَ تدمَعْ

(١) تاريخ بغداد : ١٣/١٤ ، والأخبار الطوال : ٣٩٢ ، والنجوم الزاهرة : ١٤٠/٢ ، وفي مروج الذهب للمسعودي ٣٤٧/٣ : « ومات بطوس بقرية يقال لها سناباذ ، يوم السبت لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وقيل : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين (وثمانية عشر يوماً) وولي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر » .

(٢) البداية والنهاية : ٢٢١/١٠ ، والنجوم الزاهرة : ١٢٢/٢

مـــا رأينـــا قـــطّ شمســـاً غربت من حيث تَطْلَـــعْ[1]

وقال أبو نُواس جامعاً بين العزاء والهناء :

جرت جَـوارٍ بـالسَّعـد والنَّحسِ فنحنُ في مــــأْتم وفي عرسِ
القلبُ يبكي والعينُ ضــاحكــة فنحن في وَحْشَـــــة وفي أُنسِ
يضحكنــا القــائم الأمين ويبـ ـكينـا وفـاة الإمـام بـالأمسِ
بَـدْرانِ بـدرٌ أضحى ببغـداد في الـ ـخلـد وبـدر بطوسَ في الرَّمسِ[2]

☆ ☆ ☆

وَفاةُ الرَّشِيد ..

ثأرٌ ، أمْ مُؤامَرَةٌ أمْ غَلْطَةٌ مِن ابنِ بَخْتيشُوع ؟!؟

خمسةُ نصوص ، أنقلهـا من مصـادرهـا دون تعليق ، ولكنّي أضع عـلامـات استفهام كبيرة تجاهها ، وأترك لمحاكمة القارئ القرار الّذي يراه مناسباً بعد إتمام دراستها :

النَّص الأوَّل : « ولَمَّا مضت ثلاثة أيَّام من قَتْل الرَّشيـد جعفراً [البرمكي] ، قـال الرَّشيـد لمسرور : مـا كان جعفر يصنع لَمَّـا أخـذتـه ؟ قـال : **كان يلعب بالشّطرنج ويشرب ، وعنده جبريل بن بختيشوع الطَّبيب** ، قال : فما قال حين مسَّه حدُّ السَّيف ؟ قال : سمعته يقول : أهونْ بها من قِتلة ، ولا سيا إذا كانت في طاعة الله .

(١و٢) تاريخ الخلفاء : ٢٩٦ و ٢٩٧

فقال الرَّشيد : ويلي على ابن الفاعلة ، أراد أن يوهم أنِّي قتلته في هوى نفسي ، لا بل في طاعة الله .. »[1] .

النَّص الثَّاني : « فلما صار في بعض الطَّريق ، ابتدأت به العلَّة ، فلم تزل تتزايد حتَّى دخلنا طُوس »[2] .

« ومرَّ بِطُوس ، واعتلته العلَّة بها »[3] .

وهناك رواية في (تاريخ الخلفاء) تقول :

« وفي سنة اثنتين وتسعين ومئة توجَّه الرَّشيد نحو خُراسان ، وذكر محمد بن الصباح الطَّبري أنَّ أباه شيَّع الرَّشيد إلى النَّهروان ، فجعل يحادثه في الطَّريق ، إلى أن قال : يا صباح ، لاأحسبك تراني بعدها ، فقلت : بل يردُّك الله سالماً ، ثمَّ قال : ولا أحسبك تدري ماأجِدُ ، فقلت : لا والله ، فقال : تعالَ حتَّى أُريك ، وانحرف عن الطَّريق ، وأومأ إلى الخواص فتنحَّوْا ، ثمَّ قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم عليَّ ، وكشف عن بطنه ، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه ، فقال : هذه علَّة أكتمها النَّاس كلَّهم ، ولكلِّ واحد من ولديَّ عليَّ رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين ، مامنهم أحد إلاَّ ويُحْصي أنفاسي ، ويَعُدُّ أيَّامي ، ويستطيل دهري ، فإن أردتَ أن تعرف ذلك فالسَّاعة أدعو ببرذون[4] ، فيجيئون به أعجف[5] ليزيد في عِلَّتي ، ثمَّ دعا ببرذون ، فجاؤوا به كما وصف ، فنظر إليَّ ثم ركبه ، وودَّعني وسار إلى جرجان ، ثمَّ رحل منها في صفر سنة

---

(١) وفيات الأعيان : ٤٧٤/١

(٢) الطَّبري : ٣٤٣/٨

(٣) البداية والنهاية : ٢١٣/١٠ ، وفي الأصل : « واعتقلته العلَّة بها » .

(٤) البِرْذَوْنُ : الدَّابة ، [اللِّسان : بردن] .

(٥) العَجَف : ذهاب السِّمَن ، والهزالُ ، [اللِّسان : عجف] .

ثلاث وتسعين ومئة ، وهو عليل إلى طُوس ، فلم يزل بها إلى أن مات »[1] .

وأنا إذ أرفض هذه الرِّواية ، وأثبِّت رواية : (الطَّبري) ، و (ابن كثير في البداية والنِّهاية) ، أُرجع الرَّفض للأسباب الثلاثة التَّالية[2] :

١ ـ لو كان الرشيد معتلاًّ إلى هذا الحد ، لما خرَج إلى قتال سيكون ميدانه فيما وراء النَّهر ، ولأناب عنه في قيادة الجيش ، ولأقام في بغداد ، وكثيراً ما فعل ذلك في خلافته .

٢ ـ ما وردت في كلِّ المصادر الموثوقة ، أخبارٌ تشير ولو إشارة لطيفة عابرة ، إلى تآمر الأمين أو المأمون على أبيهما ، أو أنَّهما كانا يحصيان عليه أنفاسه ، أو يَعُدَّان عليه أيامه الَّتي استطالت .

٣ ـ والرَّشيد أقوى وأحزم وأهيب ، من أن يعامل بمثل هذه المعاملة غير اللائقة ، وما الَّذي كان يقف في وجهه لو رفض البرذون الأعجف ، وأمر بإحضار فَرَسٍ قويَّةٍ سليمة ؟

وما أظن جيشاً يمثّل الخلافة العباسيَّة أيَّام الرَّشيد ، خرَج من بغداد في طريقه إلى سمرقند ، فيه برذون أعجف ، فمثل هذه الدَّابة من أبسط الأُمور الحربية أن تستبعد ، لأنَّها ستكون عبئاً على مسيرة جيش سيجتاز جبالاً وقفاراً وطريقاً طويلة جداً ، تصل مابين بغداد ـ حاضرة الخلافة آنذاك ـ وسمرقند حيث ثورة رافع بن اللَّيث بن نصر بن سيَّار ! ؟ !

فالنَّص الثَّاني يثبت أن الرَّشيد قد اعتل في طُوس ، ولم يخرج معتلاً من بغداد .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٠ ، وكأن السُّيوطي يشك بهذه الرواية ، فيورد صفحة ٢٩٦ النَّصَّ الثالث الآتي أعلاه .

(٢) لذلك الرِّواية أرفضها أينما وردت .

النَّص الثَّالث : « **غلط جبريل بن بختيشوع على الرَّشيد في عِلَّته في علاج عالجه به ، كان سبب منيَّته ، فهمَّ أن يفصل أعضاءه ، فقال [ابن بختيشوع] : أنْظِرْني إلى غدٍ ، فإنَّك تصبح في عافية ، فمات ذلك اليوم** »[1] .

النَّص الرَّابع : ولَمَّا أُخبر الرَّشيد بما قاله جبريل بن بختيشوع ، حين رأى الماء الَّذي في القارورة[2] ؛ « **بعث إلى جبريل فتغيَّب حتَّى مات الرَّشيد** »[3] ، و « **كان الرَّشيد قد همَّ ليلة مات بقتله** »[4] ، بقتل ابن بختيشوع .

النَّص الخامس : « **ثمَّ دعا [الرَّشيد] بقصَّابٍ فأمر به ففصل أعضاءه** »[5] .

« .. **ثمَّ أمر قصَّاباً ففصل أعضاءه** »[6] .

☆ ☆ ☆

هذه هي النُّصوص الخمسة موثَّقة كما جاءت في مصادرها .

ويتساءل المرءُ بعد دراستها ، وبكلِّ تجرُّد وموضوعيَّة وعلميَّة ، ودون كبير عناء : أكان موت الرَّشيد ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، حدثاً طبيعيّاً ، لا استفهام حوله ؟!؟ أمْ كان ثأراً من جبريل بن بختيشوع ، الَّذي كان من نخبة أصدقاء جعفر البرمكي وندمائه ، يلعب معه بالشِّطرنج ويشرب ؟ أم هو تآمر من ابن بختيشوع مع آل برمك ، فكانت (**الغلطة**) الَّتي أودت بحياة الرَّشيد ، من

---

(١) الطبري : ٣٤٤/٨ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٦

(٢) مرَّ ذكر الخبر مفصَّلاً قبل صفحات قليلة .

(٣) البداية والنِّهاية : ٢٢١/١٠ ، النُّجوم الزَّاهرة : ١٢٢/٢ ، الطَّبري : ٣٤٤/٨

(٤) الطَّبري : ٣٤٤/٨

(٥) الكامل في التَّاريخ : ١٣٠/٥

(٦) ابن خلدون : ٢٢٩/٣

الطبيب الخاص ، الَّذي كان يشرف حتَّى على طعام الخليفة ومأدبته ؟ ، ولقد ذكر المسعودي[1] : « أُهديتْ للرَّشيد سمكة [بالحِيرَة] فمنعها عنه ابن بختيشوع الطَّبيب » ، فأيُّ مرض مفاجئ في طُوس ، يسبب هذه النِّهاية المحتومة خلال أيّامٍ معدودات ، ولا يحرك ابن بختيشوع ساكناً ، بل لا يقدِّم ما يخفِّف آلامَ الخليفة ولحمُه يتفسَّخ ويتساقط ، ويكتفي بالقول : « أنظرني إلى غدٍ ، فإنَّك تصبح في عافية ، فمات ذلك اليوم » .

يقول ابن بختيشوع ، وهو يعلم ، ويعرف يقيناً مرض الرَّشيد : « أنظرني إلى غدٍ ، فإنَّك تصبح في عافية » ، أيُّ عافية هذه الَّتي يراها ابن بختيشوع في غدٍ ، والقصَّاب يفصل أعضاء الخليفة ؟

ولماذا تغيَّب حتَّى مات الرَّشيد ؟

ولماذا همَّ الرَّشيد بقتله ؟ وهو الَّذي لم يسفك دماً إلاَّ بحق ؟

وأيُّ مرض مفاجئ مميت يَحلُّ بالرَّشيد وهو في طريقه إلى قتال رافع بن اللَّيث بن نصر بن سيَّار ، الَّذي ثار فيما وراء النهر ، في سمرقند ، إذ كان في قمة الصِّحة والعافية والنَّشاط ، أمْ سُمٌّ دُسَّ في ليل ؟!؟!

نصوصٌ وأحداث ، وتساؤلات تضعنا قُبالة ثلاثة احتمالات :

ثأرٌ ، أو مؤامرةٌ ، أو (غلطةٌ) من جبريل بن بختيشوع !؟!

وفي حالة الغلط ، نحن أمام احتمالين أيضاً :

أوّلاً : احتمال الغلط عن سوء فهم أو تقدير أو تخمين .

ثانياً : احتمال (الغلط) عن قصد ، وسوء نيَّة ، وخبث طويَّة !!

---

(١) مروج الذَّهب : ٣/٣٥٥

ثقافة الرشيد

ناقد ذواقة ، وبحر واسع في علوم الدين واللغة والأدب .. لذلك قيل : « كان فهم الرَّشيد فهم العلماء » .

كان الرَّشيد مثقفاً ثقافة عربية واسعة ، فقد جمع إلى عقله الرَّاجح الكبير أدباً رفيعاً وتذوقاً ممتازاً رائعاً للشِّعر واللغة .. لذلك قيل : « كان فَهْمُ الرَّشيد فَهْمَ العلماء »[1] .

فقد علمه الأدب : المفَضَّل الضَّبِّي العلاَّمة بالشِّعر والأدب وأيام العرب ، وقرأ القرآن العظيم على حمزة الزَّيَّات أربع مرَّات ، واختار لنفسه قراءة هي إحدى القراءات السَّبع ، وعلمه الكسائي[2] النَّحو والعربيَّة وأيَّام النَّاس والفقه ، وخرج إلى مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي في البَصْرة ، وملأه الأصمعي طُرَفاً من طرائف العرب الأدبيَّة ، ومِلَحاً من ملحهم العربيَّة . لذلك .. تدل مناقشاته الكثيرة للعلماء والأُدباء على سعة علمه وأدبه ، ويدل نقده للشِّعر والشُّعراء على أنَّه بحر واسع في اللغة والعلم والأدب ، لقد كان يقول : « البلاغة التَّباعد عن الإطالة ، والتَّقرب من معنى البغية ، والدَّلالة بالقليل على المعنى »[3] .

جاء في تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٢ : « أوَّل شِعْر قاله الرَّشيد أنَّه حجَّ سنة ولي

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٢

(٢) الكسائي : علي بن حمزة ، وسمي بالكسائي لأنه أحزم في كساء ، « النجوم الزاهرة : ١٣٠/٢ ، الأعلام : ٩٣/٥ » .

(٣) وفيات الأعيان : ٤٧٨/٣ ، والعقد الفريد : ٢٧٢/٢ ، وأحضر الرَّشيد أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى البصري النَّحوي من البصرة إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ ، وقرأ عليه بها أشياء من كتبه .

الخلافة ، فدخل داراً ، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على حائط :

ألا يـا أمير المـؤمنين أمـا ترى ... فـديتُـكَ هجرانَ الحبيب كبيرا

فدعا بدواة ، وكتب تحته بخطِّه :

بلى والهدايـا الْمُشْعَراتِ ومـا مشى ... بمكَّـة مرفـوع الأظـل حسيرا»

وهذه نماذج من علمه وأدبه :

مرَّ الرَّشيد بالمفضَّل الضَّبّي والمأمون عن يمينه ، ومحمد الأمين عن يساره ، قال المفضَّل : فسلَّمت ، فأومأ إليَّ بالجلوس فجلست ، فقال لي : يا مفضل ، قلت : لبيك يا أميرَ المؤمنين ، قال : كم من الأسماء في « فسيكفيكهم » !

فقلت : ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين ، قال : وما هي ؟ قلت : (فسيكفي) الله عز وجل ، والكاف الثانية لرسول الله ﷺ ، والهاء والميم والواو للكفَّار ، قال : صدقت .. كذا أفادنا هذا الشَّيخ - يعني الكسائي - ثم التفت إلى الأمين فقال له : فهمت ؛ قال : نعم ، قال : أعدِ المسألة ، فأعادها كما قال المفضَّل .

قال الرَّشيد : يا مفضل هل عندك مسألة ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قول الفرزدق :

أخـذنـا بـأطراف السَّماء عليكمُ ... لنـا قمراهـا والنُّجومُ الطَّوالِـعُ

قال الرَّشيد : هيهات قد أخذنا هذا قبلك ، فقد أخبرنا الشَّيخ - يعني الكسائي - أن « لنا قمريها » ، يعني الشَّمس والقمر ، كما قالوا سُنَّة العُمَرَيْن ، يريدون أبا بكر وعمر ، وذلك أنَّه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلَّبوه ، فسمّوا الأخير باسمه ، فلما كانت أيَّام عمر أكثر من أيَّام أبي بكر وفتوحه أكثر ، غلَّبوه ، وسمَّوْا أبا بكر باسمه ، وقد قال الله عزَّ

وجـلَّ : ﴿ بُعْـدَ المشرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ ﴾ [الـزُّخرف : ٤٣/٣٨] ، وهـو المشرق والمغرب .

وقـال الأحمر النحوي : بعث إليَّ الرَّشيـد لتأديب ولـده محمـد الأمين ، فلما دخلت عليه قال : يا أحمر ، إنَّ أمير المؤمنين قـد دفع إليـك مهجـة نفسـه ، وثمرة قلبه ، فصيِّرْ يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئـه القرآن ، وعرفـه الآثـار ، وروِّه الأشعـار ، وعلِّمـه السُّنَن ، وبصِّره مواقع الكلام ، وابـدأه وامنعـه الضَّحـك ، إلاَّ في أوقـاتـه ، وخـذه بتعظيم مشـايـخ بني هـاشم إذا دخلـوا عليـه ، ورفـع مجـالس القـواد إذا حضروا مجلسـه ، ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلاَّ وأنت مغتنم منها فائـدة تفيـده إيـاهـا من غير أن تخرق بـه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوِّمـه مـا استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشِّدة والغلظة[1] .

وقـال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ماأعلم أن لملك رحلـة في طلب العلم إلا الرَّشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمـه الله ، وكانت أُصول الموطأ بسماع الرَّشيد في خزانة المصريين ، ثم رحل بسماعـه السُّلطـان صلاح الـدِّين بن أيوب إلى الإسكـندريـة ، فسمعـه على ابن طـاهر بن عـوف ، ولا أعلم لهما ثالثاً[2] .

صعد الرَّشيد المنبر ليخطب ، فسقطت ذبابة على وجهـه فطردهـا ، فعـادت فحصر وأُرتج عليه ، فقـال : أعوذ بـالله السَّميع العليم : ﴿ يـا أيُّهـا النَّـاسُ ضُربَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبـابـاً وَلَو اجْتَمَعُوا لَـهُ وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبـابُ شَيْئـاً لا يَسْتَنْقِـذُوهُ مِنْـهُ ضَعُفَ الطَّـالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣٦٢/٣

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

[الحج ٢٢/٧٣] ، ثم نزل ، فاستُحْسِنَ ذلك منه[١] .

قـال الأصمعي : سمعت الرَّشيـد يقول : قلب العـاشق عليـه مـع معشـوقـه ، فقلت لـه : هـذا والله يـا أمير المـؤمنين أحسن من قـول عروة بن حـزام العـذري لعفراء :

أراني تَعْرُوني لـــذكراكِ روعَـــةٌ لهـا بين جِلْـدي والعظـام دَبيبُ
وَمـا هُـوَ إلاَّ أن أراهـا فُجـاءَةً فَـــأُبْهَتُ حتَّى لا أكادُ أُجيبُ
وأُصْرَفُ عن داري الّذي كنت أرتئي ويَعْـزُبُ عنِّي علمُـــهُ ويَغيبُ
ويُضْمِرُ قلبي غَـدْرَهـا ويُعينُهـا عليَّ ، فمـا لي في الفُـؤادِ نَصيبُ

فقال الرَّشيد : من قال هذا وهماً فـإني أقولـه علمـاً ، ولله درك يـا أصمعي ! فإني أجد عندك ماتضل عنه العلماء[٢]

وقال إسحاق الموصلي : قال لي الرَّشيد : ماأحسن ماقيل في ريـاضـة النَّفس على الفراق ؟ قلت قول الأعرابي :

وإنِّي لأستحيي عيـونـــاً وأتَّقي كثيراً ، وأستبقي المـودَّة بـــالهجرِ
فـأنـذرُ بـالهجران نفسي أروضهـا لأعلم عنـد الهجر هـل لي من صبرِ

فقال الرَّشيد : هذا مليح ، ولكني أستملح قول أعرابي آخر :

ومـا كان هجراني لهـا عن مـلالـة ولكنني جربت نفسي بـــالصبر[٣]

وقال الأصمعي : دخل العباس بن الأحنف على هـارون الرَّشيـد ، فقـال لـه الرَّشيد : أنشدني أرقَّ بيت قالتـه العرب ، فقـال : قـد أكثر النّـاس في بيت جميل

(١) أمالي المرتضى : ١٠٥/٢
(٢) أمالي المرتضى : ٤٥٩/١
(٣) زهرة الآداب وثمرة الألباب : ١٠٥٢

حيث يقول :

ألا ليتني أعمى أصم تقـــــودني بثينـــة لا يخفى عليَّ كـــلامهـــا

قال هارون : أنت والله أرق منه حيث تقول :

طـافَ الهـوى في عبـاد الله كلِّهمُ حتّى إذا مرّ بي من بينهم وقفـــا

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قولاً مني ومنه حيث تقول :

أمـــا يكفيـــكِ أنَّـــك تملكيني وأن النَّـــاس كلهم عبيـــــدي
وإنك لـو قطعت يـدي ورجلي لقلت من الهـوى أحسنتِ زيـدي

فأعجب بقوله وضحك(١)

ومما روي في عيون الأخبار لابن قتيبة : حبس الرَّشيد أبا العتاهية ، فكتب إليه من الحبس أبياتاً منها :

تفديك نفسي من كلّ مـا كرهت نفسُكَ إن كنتُ مـذنبـاً فـاغفر
يـا ليت قلبي مصور لـك مـا فيـــه لتستيقن الَّـــذي أضمر

فوقع الرَّشيد في رقعته : « **لا بأس عليك** » ، فأعاد عليه رقعة أُخرى فيها :

كأنَّ الخلـــق رُكِّب فيـــه روح لـــه جســد وأنتَ عليـــه رأس
أمينَ الله إنَّ الحبس بـــــأس وقـد وقَّعتَ «**ليس عليـك بـأس**»

فأمر الرَّشيد بإطلاقه(٢) .

قـال الأصمعي : دخلت على الرَّشيـد في اللَّيـل ، فتـذاكرنـا أحـوال القمر ،

---

(١) تاريخ بغداد : ١٢/١٤

(٢) عيون الأخبار : ٧٢/١

فقلت : العرب تقول للقمر إذا كان ابن ليلة : ما أنت ابن ليلة[(١)] ؟ قال : رضاع سُخَيلة[(٢)] ، حلَّ أهلها برمَيلة[(٣)] ، قيل له : ماأنت ابن ليلتين ؟ قال : حديث أَمَتَين[(٤)] بكذب ومين . قيل له : ماأنت ابن ثلاث ؟ قال : قليل اللّبـاث ـ وقيل أيضاً : حديث فتيات ، غير جد مؤتلفات[(٥)] ـ قيل له : فما أنت ابن أربع ؟ قال : عتمة أم رُبَعٍ[(٦)] ـ وقيل : عتمة الرُّبَع ـ غير جائع ولا مرضع . قيل له : فما أنت ابن خمس ؟ قال : عشاءُ خَلِفات قُعس[(٧)] ، ويقال : حديث وأُنس ، ويقال : سِرٌ ومَسٌّ ، قيل له : ماأنت ابن ست ؟ قال : سر وبِت[(٨)] ـ وقيل : تحدث وبت ـ قيل له : ماأنت ابن سبع ؟ قال : دَلجة ضبع . وقيل : هدى لأنسٍ ذي الجمع ، وقيل : يُضفر فيَّ النِّسع[(٩)] ـ وقيل : يلتقط في الجزع ـ وقيل :

---

(١) أي أستفهمك عن نفسك ، في حال كونك ابن ليلة ؟!

(٢) سخيلة : تصغير سخلة ، والمعنى : أن القمر يبقى بقدر ما ينزل قوم ، فتضع شاتهم سخلة ثم ترضعها ويرتحلون ، فبقاؤه بالأفق بمقدار هذا الزمان .

(٣) المعنى : الإخبار عن قلة اللباث وسرعة الانتقال ، لأن الرَّمل ليس بمنزل مقام للقوم ، لأنهم كانوا يختارون في منازلهم جلد الأرض « الصلب المستوي » وهضبها والأماكن التي لاتستولي السيول عليها .

(٤) يريد أن بقاءه قليل بمقدار ماتلقى الأمَةُ الأمَةَ ، فتكذب لها حديثاً ثم تفترقان .

(٥) أراد أنه يبقى بقاء فتيات اجتمعن على غير ميعاد فتحادثن ساعة ثم انصرفن غير مؤتلفات .

(٦) يقال : عتَّمت إبلُهُ ، إذا تأخرت عن العشاء ، ومن هذا سميت صلاة العَتْمَة ، لأنها آخر الوقت في العشاء .
وقوله : « أم رُبَع » يعني الناقة ، وهو تأخير حلبها ، يريد أن بقاءه بمقدار ماتحلب ناقة لها ولد ولدته في أول الربيع ..

(٧) الخلفات اللواتي قد استبان حملهن ، واحدتها خلفة ، وهي المخاض ، ولا واحد للمخاض من لفظها ، وإنما قال : عشاء خلفات ، لأنها لاتعشى إلى أن يغيب القمر في هذه الليلة ، والقعساء : الداخلة الظهر الخارجة البطن .

(٨) يريد أنه لا يبقى إلا بقدر ما يبيت الإنسان ثم يسير ، ويريد أنه يبقى بقدر ما يسير الإنسان ثم يبيت ، فقلب المعنى لأنه يسير في الضوء .

(٩) سير مضفور مثل الأعنة .

ماأنت ابن ثمان ؟ قال : قمر أُضحيان[1] . قيل له : ماأنت ابن تسع ؟ قال : منقطع الشِّسع[2] ، وقيل : يلتقط في الجزع[3] - وقيل : الودع[4] - ، وقيل : عشية أهل جمع ؛ قيل له : ماأنت ابن عشر ؟ قال : ثلث الشهر ، وقيل : مخنق الفجر[5] ، وقيل : أؤديك إلى الفجر ، وقيل : أُبادر الفجر ، قيل له : ماأنت ابن إحدى عشرة ؟ قال : أطلع عشاء ، وأُرى بكرة ، وقيل : أغيب بسحرة ، قيل له : ماأنت ابن اثنتي عشرة ؟ قال : مؤنق للبشر[6] ، بالبدو والحضر ، قيل : ماأنت ابن ثلاث عشرة ؟ قال : قمر باهر يعشو[7] له النَّاظر ، قيل له : ماأنت ابن أربع عشرة ؟ قال : مقتبل الشَّباب ، أُضيء مدجنات[8] السَّحاب ، وقيل : مضيء للسَّحاب ، قيل له : ماأنت ابن خمس عشرة ؟ قال : تم الشَّباب وانتصف الحساب .

قيل له ماأنت ابن ست عشرة ؟ قال : نقص الْخَلق ، بالغرب والشرق ، قيل له : ماأنت ابن سبع عشرة ؟ قال : أمكَنَت الْمُقتفرِ القِفرَة ، قيل له : ماأنت ابن ثماني عشرة ؟ قال : قليل البقاء ، سريع الفناء ، قيل له : ماأنت ابن تسع عشرة ؟ قال : بطيء الطُّلوع ، بيِّن الخشوع ، قيل : ماأنت ابن عشرين ؟

---

(١) أي ضاح وبارز ، ومنه قيل : ليلة اضحيانة ، إذا كانت نقية البياض .

(٢) أراد أنه يبقى بقدر ماتبقى شِسْع من قدٍّ يُمشى به حتى ينقطع .

(٣) أي أنه مضيء أبلج ، لو انقطعت مخنقة فتاة فيها شذور مفصلة بجزع ماضاع منها شيء لضيائه ونقائه .

(٤) الوَدْعُ : خرز أبيض يخرج من البحر ، الواحدة : ودعة ، بسكون الدال وفتحها .

(٥) وفي رواية : « موفق البشر » . وشيء « أنيق » أي حسن معجب ، « مختار الصحاح : ٢٢ » .

(٦) أي حسن معجب .

(٧) عشا يعشو : إذا ضعف بصره .

(٨) التقدير : السحاب المدجنات ، وهذا من باب مايقال له إضافة الصفة إلى الموصوف في الظاهر - كقول : مررت بحسان النساء وجسام الرجال ، أي النساء الحسان ، والرجال الجسام .

قال : أطلع بسُحرة ، وأُضيء بالبُهرة [١] . وقيل : ثم أهجِّر بالبهرة [٢] . قيل : ماأنت ابن احدى وعشرين ؟ قال : كالقبس ، يُرى بالغلس [٣] . قيل : ماأنت ابن اثنتين وعشرين ؟ قال : لاأطلع إلاّ ريثما أُرى . قيل : ماأنت ابن ثلاث وعشرين ؟ قال : أطلع في قُتمه [٤] ، ولا أجلو الظُّلمة ، قيل له : ماأنت ابن أربع وعشرين ؟ قال : لاقمر ولا هلال ، قيل : ماأنت ابن خمس وعشرين ؟ قال : دنا الأجل ، وانقطع الأمل ، قيل : ماأنت ابن ست وعشرين ؟ قال : دنا مادنا ، فلا يُرى مني إلا شفا [٥] . قيل : ماأنت ابن سبع وعشرين ؟ قال : أطلع بَكِراً [٦] ، ولا أرى ظهراً ، قيل : ماأنت ابن ثمان وعشرين ؟ قال : أسبق شعاع الشمس ، قيل : ماأنت ابن تسع وعشرين ؟ قال : ضئيل صغير ، فلا يراني إلاّ البصير ، قيل : ماأنت ابن ثلاثين ؟ قال : هلالٌ مستنير .

قال الأصمعي : ثم قلت للرّشيد : يقال إنّه لا يحفظ هذا الحديث من الرّجال إلاّ عاقل ، فقال : خذه عليّ ، قلت هات . فأعاده حتى بلغ : قيل له : ماأنت ابن ثمان ؟ قال : قمر أضحيان [٧] ..

دعا الرّشيد بعبد الملك بن صالح ـ وكان معتقلاً في حبسه [٨] ـ فلما مَثَل بين يديه التفت إليه ، وكان يحدّث يحي بن خالد بن برمك وزيره ، فقال متمثّلاً :

---

(١) البهرة : نصف الليل ، وبهرة كل شيء وسطه .

(٢) أهجّر بالبهرة : أي أطلع نصف الليل .

(٣) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٤) القُتْمة : لون غبرة وحمرة « آخر الليل » .

(٥) شفا : حرف كل شيء ، أراد أن قوسه كأنها خط هلالي يوم المحق .

(٦) بكر : البُكرة : الغدوة ، والإبكار : اسم البكرة كالإصباح .

(٧) إلى آخر ما ورد .

(٨) سيمر سبب سجنه مفصلاً .

أُريـد حيـاتــه ويريـدُ قتلي عـذيرك[1] من خليلـك من مُرادِ

ثم قال الرَّشيد : يـاعبـد الملك ، كأنّي أنظر إلى شؤبوبها[2] قـد همع ، وإلى عـارضها قـد لمع ، وكأنّي بـالوعيد قـد أورى[3] ، بـل أدمى ، فـأبرز عن براجم بلا معـاصم[4] ، ورؤوس بلا غلاصم ، مهلاً مهلاً بني هـاشم ، فبي والله سهُل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزِمَّتها ، فنذار لكم نـذار قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل[5] .

فقال عبد الملك : أفذاً أتكلم أم توأماً ؟

قال الرَّشيد : توأما[6] .

قـال : اتّـقِ الله يـاأمير المـؤمنين فيما ولاك ، واحفظـه في رعـايـاك الَّـذي استرعـاك ، ولا تجعل الكفر بموضع الشُّكر ، والعقـاب بموضع الثَّواب ، فقـد والله تسهلت لك الوعور ، وجُمعت على خوفك ورجائـك الصُّدور ، وشـددت أواخي ملكـك بـأوثـق من ركني يَلَمْلم ، وكنت لـك كما قـال أخـو بني جعفر بن كـلاب - يعني لبيدا - :

ومقـــام ضَيِّـــق فرَّجتُــــه بلســـانٍ وبيـــانٍ وجَـــدَلْ

---

(١) عذيرك : أي أطلب من يعذرك .

(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٣) من قولهم : « أورى الزند » إذا قدحته فأخرج ناراً .

(٤) البراجم : الأصابع ، والمعصم : موضع السوار من الساعد .

(٥) وفي العقد الفريد : ١٥٢/٢ : « أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قـد همع ، وعـارضهـا قـد لمع ، وكأنّي بالوعيد قـد وقع ، فـأقلع عن براجم بلا معـاصم ، وجماجم بلا غلاصم ، فمهلاً مهلاً ، فبي والله يسهل لكم الوَعر ، ويصفو لكم الكَدر ، وألقت إليكم الأُمـورُ مقـاليدَ أزمتها ، فـالتـدارك التدارك قبل حلول داهية خَبُوط باليد لَبُوط بالرِّجل » .

(٦) مروج الذَّهب : ٣٥٤/٣

لـو يقـومُ الفيـلُ أو فيَّـالُـه   زلَّ عن مثـل مقـامي وزَحـلْ

وأراد يحي بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرَّشيد ، فقال له : ياعبد الملك ، بلغني أنَّك حَقُود ، فقال : أصلح الله الوزير !! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي ، إنَّهما لباقيان في قلبي . فالتفت الرَّشيد إلى الأصمعي ، فقال : ياأصمعي حررها فوالله مااحتج أحد للحقد بمثل مااحتج به عبد الملك .

فأعاد الرَّشيد عبد الملكَ بن صالح إلى محبسه ، ثم التفت إلى الأصمعي فقال : لقد نظرتُ إلى موضع السَّيف من عنقه مراراً ، يمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله[1] .

وبمناسبة محاكمة عبد الملك بن صالح .

كان الرَّشيد مضرب المثل في العدل ، وفي قلبه توازن عجيب بين العصف بالعدوِّ ، وبين العطف على الرَّعية ، وهذا التَّوازن يشبه توازنه بين سمره البريء الطَّاهر العفيف ، وبين إيمانه وورعه والتزامه بإسلامه .

والمتَّهم عنده يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوره دفاع عن متهم في حضرة خليفة يحسن الاستماع ، بوجود قاضٍ هو أعظم أهل الأرض علماً يومذاك ، أبو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن الشَّيباني .

فلم يرق الرَّشيد دماً إلاَّ إذا أدانت الأدلة صاحبه ، وكان دأبه أن يضرب بشدَّة ، لكن العدل كان شأنه في كل حكم . والمتصفِّح لتاريخ الرَّشيد ، يلمس بوضوح أنَّه ماأمر بقتل إنسان إلاَّ في حالات ثلاث :

---

(١) مروج الذَّهب : ٣٥٥/٣ ، وفيات الأعيان : ٥٥/٧

١ ـ زنديق[1] يعلن كفره ويجاهر بـه ، ويستخف بقيم الآخرين ويسخر منها ، وهذا ماراَه الرَّشيد أيام أبيه المهدي المشهور بعدله وتقواه ، لقد كان لوزير المهدي (معاوية بن يسار) ابن تزندق ، فدعا المهدي الوالد وولده ، وسأل الولد عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يتمكن من تلاوة بعض الآيات ، قال المهدي : ألم تخبرني أن ابنـك حفظ القرآن ؟ قـال الـوزير : بلى ، ولكن فـارقني منـذ مـدة فنسيه ، قال المهدي : قم فتقرّب إلى الله بـدمـه ، فقـام الأبُ فعثر ووقع وارتعـد ، فأمر المهدي بعض الحضور لقتل الزنديق . فضرب عنقه .

٢ ـ مسلمٌ تبيح الشَّريعة قتله في حالات ثلاث ، مصداقـاً لقول النَّبي ﷺ : « لا يحـلُّ دم امرئ مسلم إلا بـإحـدى ثـلاث : الثَّيِّب الـزَّاني ، والنَّفس بـالنَّفس ، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة » ، [رواه البخاري ومسلم] .

٣ ـ ثائرٌ يهدف قلب نظـام الحكم ، يشيع الفوضى والـذُّعر والقتل والفتـك ، بدل الأمن والطمأنينة .. وهذا تقرّه الدُّول قديمـاً وحـديثـاً ومستقبلاً ، إنَّـه قـانون السُّلطة في كلِّ زمن : الدِّفاع عن النَّفس والدَّولة . وهذا إمـا أن يقتل في مواجهة حربيَّة عسكريَّة ، وإما بإلقاء القبض عليه ومحاكمته علناً ، مع دفاع كامل بحضور قاضي القضاة .

وهكذا .. إن صفَّق الرَّشيد وقال : السَّيف والنَّطع ياغلام ، فهذا يعني بعد محاكمة بكلِّ مافي الكلمة من معنى ، وبعد إدانةٍ ضمن حدود الشَّريعة .

فالتَّاريخ يزدهي بورع الرَّشيد وعلمه وشجاعته وسياستـه ، مع الحزم والحسم دفـاعـاً عن الـدَّولـة ، وعن رفـاهيتهـا وأمنهـا ، كيف لا ... وهو الأب العطـوف

---

(١) الزَّندقة : إصطلاح عقيدي ظهر في أواخر الدَّولة الأُمويَّـة ، وأصبح متـداولاً منـذ قيـام الـدَّولـة العباسيَّة ، المقصود به بصفة عـامَّـة الإلحـاد ، أو إبطـان الكفر وإظهـار الإيمـان ، أصل الكلمـة فارسيَّة (زَندَكَر) ، وهو من يقول ببقاء الدَّهر (دهري) .. [القاموس الإسلامي : ٩٦/٣] .

الرَّحيم لرعيَّته كلِّها ؟!

سأل الرَّشيد إبراهيم بن سعد الزُّهري : من بالمدينة مَّن يُحرِّم الغِناء ؟ بلغني أن مالك بن أنس يُحرِّمه ، فأجاب : ياأمير المؤمنين ، أوَ لمالك أن يحرِّم ويُحَلِّل ؟ والله ماكان ذلك لابن عمِّك محمد ﷺ إلاَّ بوحي من ربِّه ، فمن جعل هذا لمالك ؟ فشهادتي على أبي أنه سمع مالكاً في عُرس ابن حنظلة الغسيل يتغنَّى :

سُلَيمى أزْمعت بَيْنَنا ... فأين تظنها أينا ؟

ولو سمعتُ مالكاً يحرِّمه ويدي تناله لأحسنت أدَبه ، قال : فتبسَّم الرَّشيد[1] .

وقال إسحاق الموصلي : حضرت مسامرةَ الرَّشيد ليلةَ عَبْثراً المغني[2] ، وكان فصيحاً متأدِّباً ، وكان مع ذلك يُغنِّي الشِّعر بصوت حسن ، فتذاكروا رقة شعر المدنيين ، فأنشد بعضُ جلسائه أبياتاً لابن الدُّمينة حيث يقول :

وأذكرُ أيَّام الْحِمى ثمَّ أنثني ... على كبدي مِن خَشيةٍ أن تَصدَّعا
وليست عشيَّات الْحِمَى برواجعٍ ... عليك ولكنْ خَلِّ عينيكَ تَدْمعا
بكتْ عَيْنيَ اليُمنى فلما زجرتُها ... عن الجهل بعد الْحِلْم أسبلتا معا

فأُعجب الرَّشيد برقَّة الأبيات ، فقال له عَبْثر : ياأمير المؤمنين ، إنَّ هذا الشِّعر مدني رقيق ، قد غُذي بماء العَقيق ؛ حتى رقَّ وصَفَا ، فصار أصفى من الهواء ، ولكن إن شاء أميرُ المؤمنين أنشدته ماهو أرق من هذا وأحلى ، وأصلب وأقوى ، لرجل من أهل البادية ، قال : فإني أشاء ، قال : وأترنَّم به ياأمير المؤمنين ؟ قال : وذلك لك ، فَغنَّى لجرير :

---

(١) العقد الفريد : ١١/٦

(٢) العبثر : نبات طيِّب الأكل ، له قضبان دقاق ، طيِّب الرِّيح . [اللِّسان : عبثر] .

إنَّ الَّذين غدَوْا بِلُبِّكَ غادرُوا وَشلاً بعَيْنك لا يزال مَعِينا

غَيَّضن من عبراتهنَّ وقُلن لي ماذا لقيتَ من الهوى ولَقِينا

رُوحُوا العشية روحةً مذكورة إن حِرْن حِرْنا أو هُدين هُدِينا

فرَمَوْا بهن سَواهماً عَرْضَ الفلا إن مِتن مِتنا أو حَيين حَيِينا

قال : صدقت ياعبثر ، وخلع عليه وأجازه (١) .

☆ ☆ ☆

قال الرَّشيد يوماً لبعض الشُّعراء : هل أحدثت فينا شيئاً ؟ فقال : ياأمير المؤمنين المديح فيكَ دون قدرك ، والشِّعرُ فيكَ فوق قدري ، ولكنِّي أستحسن قول العَتَّابي (٢) :

ماذا يرى قائلٌ يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير

فُتَّ المدائحَ إلاَّ أنَّ ألسُننا مُستَنطقات بما تُخفي الضَّمائر

في عترة لم تقم إلا بطاعتهم من الكتاب ولم تُقضَ الْمَشاعير

هذي يمينك في قُرْباك صائلة وصارمٌ من سيوف الهند مأثور (٣)

☆ ☆ ☆

دخل الفرَّاء ، أبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي على الرَّشيد فتكلَّم بكلام لحن فيه مرَّات ، فقال جعفر بن يحي البرمكي : إنَّه قد لحن

---

(١) العقد الفريد : ٣٣/٦

(٢) كلثوم بن عمرو بن أيوب التَّغلبي ، أبو عمرو ، من بني عتَّاب بن سعد ، (ت ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م) ، كاتب وشاعر مجيد ، رُمي بالزَّندقة ، فطلبه الرَّشيد ، فهرب إلى اليمن ، فسعى الفضل بن يحي البرمكي بأخذ الأمان له من الرَّشيد ، فأمَّنه ، وعاد فاختص بالبرامكة ، من كتبه : فنون الحكم ، الآداب ، الخيل ، الأجواد ، الألفاظ ، [الأعلام : ٢٣١/٥] .

(٣) عيون الأخبار : ٩٤/١ ، العقد الفريد : ١٣٦/٢

ياأمير المؤمنين ، فقال الرَّشيد للفرَّاء : أتلحن ؟ فقال الفرَّاء : ياأمير المؤمنين ، إنَّ طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللَّحن ، فإذا تحفَّظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطَّبع لحنت ، فاستحسن الرَّشيد قوله[1] .

☆ ☆ ☆

أنشد العباسُ بنُ الأحنف الرَّشيدَ يوماً قوله[2] :

طاف الهوى في عباد الله كلِّهمُ حتَّى إذا مرَّ بي من بينهم وقفا

قال له الرَّشيد : ماالَّذي رأى فيك حتَّى وقف عليك ؟

قال : سألني عن جود أمير المؤمنين فأخبرته ، فاستحسن الرَّشيد جوابه ووصله .

☆ ☆ ☆

وقيل : إنَّ الرَّشيد عمل في اللَّيل بيتاً ، ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه ، فقال : عليَّ بالعبَّاس ، فلما طرق عليه ذعر وفزع أهله ، فلما وقف بين يدي الرَّشيد قال له : وجَّهت إليك بسبب بيت قلته ، ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع القولُ عليَّ ، فقال : ياأمير المؤمنين ، دعني حتَّى ترجع إليَّ نفسي ، فإنِّي تركت عيالي على حال من القلق عظيمة ، ونالني من الخوف مايتجاوز الحدَّ والوصف ، فانتظر هنيهة ثمَّ أنشده :

جنانٌ قد رأيناها ولم نَرَ مثلها بشرا

فقال العباس بن الأحنف :

---

(١) وفيات الأعيان : ١٧٧/٦

(٢) وفيات الأعيان : ٢٢/٣ و ٢٣

يــزيــدكُ وجهها حسنــاً   إذا مـــازدتـــه نظرا

فقال : زدني ، فقال :

إذا مـــاالليـــل ســـال عليـــك بـــالإظـــلام واعتكرا
ودجَّ فلم ترَ قمراً فـــأبرزْهـــا ترَ قمرا

فقال له الرَّشيد : قد ذعرناك وأفزعنا عيالـك ، وأقلُّ الواجب أن نعطيـك ديّتك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وللرَّشيد :

إن تشقَ عيني بها فقد سعدت   عينــا رســولي وفــزت بــالخبرِ
وكلَّما جــاءني الرَّسـول لهـــا   ردَّدت عمـــداً في عينـــه نظري
خـذ مقلتي يــارسول عــاريـةً   فــانظر بهـا واحتكم على بصري

☆ ☆ ☆

ولما عزم جعفر البرمكي على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، وصفه يحي بحضرة الرَّشيد ، فقال له الرَّشيد : أوْصِله إليَّ ، فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرَّشيد إلى يحي نظر منكر لاختياره ، فقال ابن سهل : ياأمير المؤمنين ، إنَّ من أعدل الشَّواهد على فراهة المملوك أن يملك قلبه هيبة سيده ، فقال الرَّشيد : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام فلقد أحسنت ، وإن كان بديهة إنه لأحسن وأحسن ، ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلاَّ أجابه بما يصدِّقُ وصف يحي له[(١)] .

☆ ☆ ☆

---

(١) وفيات الأعيان : ٤١/٤

وقيل : حلف الرَّشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياماً ، وكان يحبُّها ، فمضت لأيام ولم تسترضه ، فقال[1] :

صَدَّ عَنِّي إذ رآني مفتتن | وأطال الصَّبر لما أن فَطَنْ
كان مملوكي فأضحى مالكي | إنَّ هذا من أعاجيب الزَّمنْ

ثمَّ أحضر أبا العتاهية ، فقال : أجزهما ، فقال :

عِزَّةُ الحبِّ أرَتْهُ ذِلَّتي | في هواه ، وله وجهٌ حَسَنْ
فلهذا صرت مملوكاً لَهُ | ولِهذا شاعَ ما بي وعَلَنْ

ومن شعر الرَّشيد يرثي جاريته هيلانة (أورده الصُّولي) :

قاسيت أوجاعاً وأحزانا | لما استخَصَّ الموتُ هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها | فما أُبالي كيف ما كانا
كانت هي الدُّنيا فلما ثَوَتْ | في قبرها فارقت دنيانا
قد كثر النَّاسُ ولكنَّني | لستُ أرى بعدكِ إنسانا
والله لا أنساكِ ما حرَّكت | ريحٌ بأعلى نجدٍ أغصانا

☆ ☆ ☆

قال الأصمعي : جمع الرَّشيد من الأطبَّاء أربعة : عراقيّاً ، وروميّاً ، وهنديّاً ، ويونانيّاً . فقال : ليصف لي كلُّ واحد منكم الدَّواءَ الَّذي لاداء معه ، فقال العراقي : الدَّواء الَّذي لاداء معه حَبُّ الرَّشاد الأبيض ، وقال الهندي : الإهليلج الأسود ، وقال الرُّوميُّ : الماء الحارُّ ، وقال اليوناني - وكان أطبَّهم - حبُّ الرَّشاد الأبيض يولِّد الرُّطوبة ، والماء الحارُّ يرخي المعدة ، والإهليلج

(١) تاريخ الخلفاء : ٣٩٢

الأسود يرق المعدة ، لكن الدّواء الّذي لا داء معه أن تقعد على الطّعام وأنت تشتهيه ، وتقوم عنه وأنت تشتهيه[1] .

☆ ☆ ☆

دخل سهلُ بن هارون على الرَّشيد وهو يضاحك ابنه المأمون ، فقال سهل - يدعو للمأمون - : اللّهم زِدْه من الخيرات ، وابسُط له من البركات ، حتّى يكون كل يوم من أيامه مُوفياً على أمسه ، مقصِّراً عن غده .

فقال له الرَّشيد : ياسهل ، من روى من الشِّعر أفصحه ، ومن الحديث أوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول ، قال : ياأمير المؤمنين ، ماأعلم أحداً سبقني إلى هذا المعنى ، قال : بلى ، سبقكَ أعشى همدان ، حيث يقول :

رايتك أمسِ خيرَ بني مَعدٍّ … وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضَّعفَ خيراً … كذاك تزيد سادةُ عبد شمسِ[2]

وقال الرَّشيد : لو قيل للدُّنيا صِفي لنا نفسك ، وكانت ممن ينطق ، ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفت … له عن عدوٍّ في ثياب صَديقِ
وما النَّاسُ إلاَّ هالكٌ وابنُ هالكٍ … وذو نسبٍ في الهالكين عَريقِ[3]

ومن توقيعات الرَّشيد : وقَّعَ :

إلى صاحب خُراسان : داوِ جُرْحَكَ لا يَتَّسِع .

(١) العقد الفريد : ٣٠٧/٦
(٢) العقد الفريد : ٣٣٩/٥
(٣) العقد الفريد : ١٧٥/٣

وإلى عامله على مصر : احذر أن تُخرِّب خزانتي وخزانة أخي يوسف ، فيأتيك منّي ما لا قبل لك به ، ومن الله أكثر منه .

ووقَّع في قصة رجل من البرامكة : أنبتته الطَّاعة ، وحصدته المعصية .

وإلى عامله في فارس : كُنْ منّي على مثل ليلة البَيات[(١)] .

وفي قصة محبوس : من لجأ إلى الله نجا .

وفي قصة متظلِّم : لا يُجاوز بك العدل ، ولا يُقصَّر بك دون الإنصاف .

وإلى صاحب السِّند ، إذ ظهرت العصبيَّة : كلُّ من دعا إلى الجاهليَّة ، تعجَّل إلى المنيَّة .

وفي رقعة متظلِّم من عامله على الأهواز ، وكان بالمتظلِّم عارفاً : قد ولَّيناك موضعه ، فتنكَّب سيرته[(٢)] .

☆ ☆ ☆

وهمَّ الرَّشيد بالإقامة بأنْطاكِيَة[(٣)] ، وكره أهلها ذلك ، فقال شيخٌ منهم ، وصَدَقَهُ : يا أمير المؤمنين ، ليست من بلادك ، ولا بلادِ مثلك ، لأنَّ الطِّيب الفاخرَ يتغيَّر فيها حتَّى لا يُنتفعَ منه بكثير شيء ، والسِّلاح يصدأ فيها[(٤)]

---

(١) أي منتبهاً يقظاً من غير نوم .

(٢) العقد الفريد : ٢١٣/٤

(٣) أنطاكية : قصبة العواصم من الثُّغور الشَّامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنَّزاهة والْحُسْنِ وطيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه ، وسعة الخير ، [معجم البلدان : ٢٦٦/١] ، وهي اليوم عاصمة لواء الاسكندرون .

(٤) لكثرة الرُّطوبة الجوِّيَّة .

ولو كان من قلعة الهند[1] ، ومن طبع اليمن ، ومطرها ربَّما أقام شهرين ، ليس فيه سكون ، فلم يُقِم بها[2]

☆ ☆ ☆

وقال الرَّشيد للعبَّاس بن الحسن : أراك تكثر من ذكر يَنْبُع[3] وصفتها ، فصِفْها لي وأوجز ، قال : بكلام أو شعر ؟ قال الرَّشيد : بكلام وشعر ، فقال العباس بن الحسن : جِدَتُها في أصل عِذقها ، وعِذْقها مسرَّح شأنها ، فتبسَّم الرَّشيد ، فقال العبَّاس :

يا وادِيَ القصرِ نِعم القصرُ والوادي ... مِن مَنزلٍ حاضِرٍ إن شئتَ أو بادِي

ترى قراقيره والعِيسَ وَاقفةً ... والضبَّ وَالنونَ والملاَّح والحادي[4]

☆ ☆ ☆

اجتاز هارون الرَّشيد ببلاد منبج ومعه عبد الملك بن صالح ، وكان أفصح ولد العبَّاس في عصره ، فنظر إلى قصرٍ مشيَّد ، وبستان معتمر بالأشجار كثير الثمار ، فقال : لمن هذا ؟ فقال : هو لك ولي بك ياأمير المؤمنين . قال : وكيف بناء هذا القصر ؟ قال : دون منازل أهلي ، وفوق منازل النَّاس ، قال : فكيف

---

(١) قلعة عظية ببلدة تُسمَّى (كَلَه) ، وهي أوَّل بلاد الهند من جهة الصِّين ، وفي هذه القلعة تُضْرَب السُّيوف القلعية ، [معجم البلدان : ٣٨٩/٤] .

(٢) كتاب الحيوان : ١٤٣/٣

(٣) ميناء المدينة المنوَّرة على ساحل البحر الأحمر ، « وفيها عيون عذاب غزيرة .. وهي قرية غنَّاء .. ينبع حصن به نخيل وماء وزرع .. » ، [معجم البلدان : ٤٤٩/٥] .

(٤) الطَّبري : ٣٥٦/٨

مدينتك ؟ قال : عذبة الماء باردة الهواء ، صلبة الموطأ ، قليلة الأدواء ، قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَر كله[1] .

☆ ☆ ☆

دخلت امرأة على الرّشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : ياأمير المؤمنين ! أقرّ الله عينك وفرحك بما آتاك ، وأتمّ سعدك ، لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيّتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالَهم ، فقال : أمّا الرِّجال فقد مضى أمر الله ، ونفذ فيهم قدرُه ، وأمّا المال فمردود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ماقالت المرأة ؟ قالوا : مانراها قالت إلا خيراً ، قال : ماأظنّكم فهمتم ذلك ، أمّا قولها أقرّ الله عينك ، فتعني أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأمّا قولها وفرّحَك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً** ﴾ [الأنعام : ٤٤/٦] ، وأمّا قولها وأتمّ الله سعدك ، فأخذته من قول الشّاعر :

إذا تَمَّ أمرٌ بدا نَقْصُهُ ... تَرَقَّب زوالاً إذا قِيلَ تَمْ

وأمّا قولها لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : ١٥/٧٢] . فتعجّبوا من ذلك[2]

☆ ☆ ☆

(١) العقد الفريد : ١٢٩/٢ ، وفيات الأعيان : ٣٠/٦

(٢) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف : ٢٠٣/٢ ، طبعة : مصطفى البابي الحلبي .

إيمان الرَّشيد

« مارأيت أغزر دمعاً عند الذّكر من ثلاثة : فضيل بن عياض ، وأبي عبد الرَّحمن الزَّاهد ، وهارون الرَّشيد »(١) .
حجّ الرَّشيد في سني حكمه في السَّنوات : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، بعد المئة للهجرة .

لما لقي هارون الرَّشيد فضيلَ بنَ عياض ، قال له الفضيل : ياحسن الوجه ، أنتَ المسؤول عن هذه الأُمّة ، حدّثنا ليث عن مجاهد : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾(٢) ، قال الوصل الَّتي كانت بينهم في الدُّنيا . قال : فجعل هارون يبكي ويشهق(٣) .

حدّث الأصمعي عن شَبيب بن شيبة قال : كنّا في طريق مكّة ، فجاء أعرابيٌّ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ، ومعه جاريةٌ سوداء وصحيفةٌ ، فقال : أفيكم كاتب ؟ قلنا : نعم ؛ وحضر غداؤنا فقلنا : لودخلتَ وأصبتَ من الطَّعام ! قال : إنِّي صائم ، قلنا : في الحرّ وشِدّته وجَفَاء البادية ! فقال : إنّ الدُّنيا كانت ولم أكن

---

(١) تاريخ بغداد : ٨/١٤ ، ص : ٨ ، والقول لمنصور بن عمار حدّث به يحي بن أيوب العابد . البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٥

(٢) ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦/٢] .

(٣) تاريخ بغداد : ٨/١٤

فيها ، وستكون ولا أكون فيها ، ولا أُحِبُّ أن أغبَنَ(١) أيّامي ، ثمّ نبذ إلينا الصَّحيفة ، وقال : اكتب ولا تزيدن على ماأقول حرفاً :

هذا ماأعتق عبدُ الله بن عقيل الكلابي ، أعتق جاريةً له سوداءَ يقال لها لؤلؤة ، ابتغاءَ وجه الله تعالى وجوازِ العَقَبة(٢) ، وإنه لا سبيلَ له عليها إلاّ سبيلَ الوَلاء ، الْمِنَّةُ لله عليها وعليه واحدة .

قال الأصمعي : فحدَّثت الرَّشيدَ ، فأمر أن يُعْتَقَ عنه ألفُ نَسَمةٍ أو مئةُ نسمة ، ويُكتَبَ لهم هذا الكتاب(٣) .

كان حجُّ الرَّشيد عام ١٨٨ هـ آخر حجّاته(٤) ، وفيه رأى الفضيل ، ومن قول الفضيل بعد لقائه مع الرَّشيد : لوأنَّ لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام ، لأن به صلاح الرَّعيّة ، فإذا صَلُحَ أمنت العباد والبلاد(٥) .

وفي طريق عودة الرَّشيد إلى بغداد ، رأى في الكوفة (بُهْلولاً) المجنون(٦) ، فنصح بهلولُ الرَّشيدَ وحاول الرَّبيع إسكاته ، فقال له الرَّشيد : قُل يا بهلول ، فقال :

---

(١) غَبِنَ رأيَه : غَبَناً وغَبَانة : ضعف ، [اللّسان : غبن] .

(٢) العَقَبة : واحدة عقَبات الجبال ، والعقبة : طريقٌ في الجبل وَعْر ، والعقبة : الجبل الطَّويل ، [اللّسان : عقب] ، وفي كتاب الله المجيد : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ☆ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ☆ فَكُّ رَقَبَةٍ .. ﴾ [البلد : ١١/٩٠ و ١٢ و ١٣] ، والمعنى : هَلاَّ جاهد نفسه في تخطِّي العقبة ، بالقيام بأعمال البرّ .

(٣) عيون الأخبار : ٣٦٧/٢

(٤) مروج الذَّهب : ٣٥٣/٣

(٥) تاريخ بغداد : ١٩٨/١٤

(٦) توفي البهلول المجنون سنة ١٨٣ هـ ، واسم أبيه عمرو وكنيته أبو وهيب الصيرفي الكوفي ، تشوش عقله وكان يصحو في وقت ويختلط في آخر ، وهو معدود من عقلاء المجانين . النجوم الزاهرة : ١١٠/٢ . ومن الملاحظ أنَّ الرَّشيد قابل بهلولاً هذا قبل ١٨٣ هـ ، وليس عند عودته من حج عام ١٨٨ هـ .

هب أنْ قــد ملكت الأرضَ طُرّاً ودانَ لــك العبــادُ فكان مــاذا !
أليس غـــداً مصيرك جــوفَ قبرٍ ويحثو عليكَ الترابَ هذا ثمّ هذا ؟

قال الرّشيد : أجدت يابهلول ، أفغيره ؟

قال : نعم يـاأمير المؤمنين ! من رزقـه الله مـالاً وجمـالاً ، فعفّ في جمـالـه ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار .

فظنّ الرّشيد أنّه يريد شيئاً ، فقال : إنّا أمرنا بقضاء دَيْنِك .

فقال : لاتفعل ياأمير المؤمنين ، لا يقضى دَيْن بِدَيْن ، اردد الحقّ إلى أهلـه ، واقضِ دين نفسك من نفسك .

قال الرّشيـد : إنّـا أمرنـا أن يجري عليـك رزقٌ تقتـات بـه ، قـال : لاتفعل ياأمير المؤمنين ، فإنّه سبحانه لا يعطيك وينساني ، وهـا أنـا قـد عشت عمراً لم تجرِ عليّ رزقاً ، انصرف لاحاجة لي في جرايتك .

قال الرّشيد : هذه ألف دينار خذها .

قال : ارددها على أصحابها فهو خير لـك ، ومـا أصنع أنـا بهـا ؟ انصرف عني فقد آذيتني .

فانصرف عنه الرّشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[(١)] .

قال الكسائي : صليت يوماً بـالرّشيـد ، فـأعجبتني قراءتي ، فغلطت غلطـة مــاغلطهــا صبي ، أردت أن أقــول ﴿ لعلهم يرجعــون ﴾ ، فقلت : ﴿ لعلهم ترجعين ﴾ ، فما تجـاسر الرّشيـد أن يردهـا ، فلمـا سلّمت قـال : أيُّ لغـةٍ هـذه ؟ فقلت : إنّ الجواد قد يعثر . فقال الرّشيد : أما هذا فنعم[(٢)] .

---

(١) البداية والنهاية : ٢٠٠/١٠

(٢) البداية والنهاية : ٢٠٢/١٠

كان الرَّشيد قد رتَّب لسفيان بن عيينة ألف درهم كلَّ شهر ، فكان سفيان يدعو للرَّشيد في سجوده ، ويقول : اللَّهم إنَّه كفاني المؤونة ، وفرَّغني للعبادة فاكفه أمر آخرته ، ولما مات سفيان وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : « قد تقدَّم الخصم والمدعى عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بيِّنة » فحملت إلى الرَّشيد ، فلما قرأها بكى يومه ذاك ، وبقي أيَّاماً يُتَبَيَّنُ الأسى في وجهه[1] .

قال بعض أهل العلم للرَّشيد : ياأمير المؤمنين ، انظر هؤلاء الَّذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونها فأكرمهم بعزّ سلطانك .

فقال الرَّشيد : أولست كذلك ، أنا والله كذلك أُحبهما ، وأُحب من يحبهما وأُعاقب من يبغضهما[2] .

قال ابن السَّمَّاك[3] : إنَّ الله لم يجعل أحداً فوقك ، فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك ، فقال الرَّشيد : لئن كنت أقصرت في الكلام ، لقد أبلغت الموعظة[4] .

وقال الفضيل بن عياض : إنَّ الله لم يجعل أحداً فوقك في الدُّنيا ، فاجهد نفسك ألا يكون أحدٌ منهم فوقك في الآخرة ، فاكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربِّك[5] .

---

(١) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

(٢) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

(٣) ابن السماك : هو محمد بن صبيح أبو العباس المذكر الواعظ . « النُّجوم الزَّاهرة : ١١١/٢ » .
من كلامه : « الدُّنيا كلُّها قليل ، والَّذي بقي منها في جنب الماضي قليل ، والَّذي لك مِن الباقي قليل ، ولم يبقَ من قليلك إلا القليل » النجوم الزاهرة : ١١٢/٢

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠

(٥) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠

قال ابن قتيبة : حدثنا الرِّياشي (العبّاس بن الفَرَج) : سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرَّشيد وهو يقلِّم أظفاره يوم الجمعة ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السُّنَّة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أَوَتخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي ، وهل أحد أخشى للفقر مني ؟![1] .

روى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال : كنت يوماً عند الرَّشيد ، فدعا طباخه فقال : أعندك في الطَّعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطَّعام .

فلما وضع بين يديه ، أخذ لقمة منه فوضعها في فيه ، فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرَّشيد مضغ اللُّقمة ، وأقبل عليه فقال : مِمَّ تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة . فقال له : بحقي عليك لما أخبرتني .

قال جعفر : بكم تقول إن هذا الطَّعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال الرَّشيد : بأربعة دراهم ، قال جعفر : لا والله يا أمير المؤمنين ، بل بأربع مئة ألف درهم ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنَّك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة ، فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم الجزور ، فنحن ننحر كلَّ يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأنَّا لا نشتري من السُّوق لحم جزور ، فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربع مئة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلاَّ هذا اليوم ، قال جعفر : فضحكت لأنَّ أمير المؤمنين إنَّما ناله من ذلك هذه اللُّقمة ، فهي على أمير المؤمنين بأربع مئة ألف .

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٢١٦

قال جعفر : فبكى الرَّشيد بكاء شديداً ، وأمر برفع السِّماط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون ، ولم يزل يبكي حتَّى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلَّى بالنَّاس ، ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين ، في كلِّ حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشَّرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة ، ثم خرج إلى صلاة العصر ، ثم رجع يبكي حتَّى صلَّى المغرب ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ماشأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمره ، وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنَّما ناله منها لقمة ، فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ماتذبحونه من الْجُزُر يفسد أو يأكله النَّاس ؟ قال : بل يأكله النَّاس ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الَّذي أكله المسلمون في الأيَّام الماضية ، وبما يسَّره الله عليك من الصَّدقة ، وبما رزقك من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن ٥٥/٤٦] ، فأمر له الرَّشيد بأربع مئة ألف ، ثم استدعى بطعام فأكل منه ، فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاء[(١)] .

حدث إبراهيم بن المهدي قال : استزرت الرَّشيد بالرقة ، فزارني ، وكان يأكل الطَّعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السَّمك[(٢)] ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صَغَّر طباخك تقطيع السَّمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السَّمك ، قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مئة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مئة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السَّمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٢١٦

(٢) المقرَّص : المقطَّع ، والقطعة الصَّغيرة جداً : قُرْصة ، [اللِّسان : قرص] .

درهم ، فرفع الرَّشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يُحضِره ألف درهمٍ ، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون كفارة تسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أوّل سائل تراه فادفعه إليه ، قال إبراهيم : وكان شراء الجام على الرَّشيد بمئتين وسبعين ديناراً ، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه ، وفطن الرشيد فقال له : يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مئتي دينار فإنَّه خير منها ، ففعل الخادم ذلك ، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السَّائل إلا بمئتي دينار[1] .

ويروي بعضهم هذه الحادثة من حياة الرَّشيد مبتورة ناقصة ، ليثبت ما في نفسه من حقد تجاه الرَّشيد ، يرويها كدليل على إسراف وترف الرَّشيد ، فيذكر أنه قُدّم للرَّشيد ـ بينما كان في الرَّقَّة ـ طبقٌ من ألسنة السَّمك كلَّف أكثر من ألف درهم ، ويكتفي بهذا . لأنَّ تمام الحادثة يفسد عليه ما في نفسه من حقد على هذا التَّاريخ الماجد ، فلا يذكر غضب الرَّشيد ممن أشرف على تحضير هذا الطَّبق ، وأنَّه نبَّههُ على إسرافه ، وأنَّه أحضر ألف درهم تصدق بها كفارة ذلك ، فاعتبر الرَّشيد أن تحضير الطَّبق كلَّه ذنب يحتاج إلى كفارة ، ثم تصدَّق بالطَّبق كلِّه !!

بينما كان الرَّشيد يطوف في البيت الحرام ، إذ عرض له رجل فقال : ياأمير المؤمنين ، إني أُريد أن أُكلمك بكلام فيه غلظة ، فقال الرَّشيد : لا ، ولا نعمت عين ، قد بعث الله من هو خير منك ، إلى من هو شرّ مني ، فأمره أن يقول له قولاً ليناً[2] .

---

(١) مروج الذهب : ٣٧٣/٣

(٢) البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، وهو يعني إرسال موسى عليه السلام بالقول اللين إلى فرعون .

وعن شعيب بن حرب المدائني قال : بينا أنا في طريق مكّة إذ رأيت هارون الرَّشيد ، فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر والنَّهي ، فقالت لي : لاتفعل فإنَّ هذا رجل جبَّار ، ومتى أمرته ضرب عنقك ، فقلت لنفسي : لابدَّ من ذلك ، فلما دنا مني صحت :

يا هارون ! قد أتْعبت الأُمَّة وأتعبت البهائم .. فأمر الرَّشيد به ، فقال : ممن الرَّجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين ، فقال : ثكلتك أُمك من أنت ؟ فقلت : من الأنبار[(١)] ، فقال : ماحملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال شعيب : فورد على قلبي كلمة ماخطرت لي قطّ على بال ، فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله يا رحمن ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وما ينكر من دعائي باسمك وقد رأيت الله تعالى سمّى في كتابه أحب الخلق إليه : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا محمد ، وكنى أبغض الخلق إليه فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، فقال الرَّشيد : أخرجوه أخرجوه ، فأُخرجت[(٢)] .

قال له ابن السَّماك يوماً : إنَّك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عزَّ وجلَّ والوقوف بين الجنَّة والنَّار ، حين يؤخذ بالكظم ، وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بمال ، فجعل الرَّشيد يبكي حتَّى علا صوته ، فقال يحي بن خالد له : يا ابن السَّماك ! لقد شققت على أمير المؤمنين اللَّيلة ، فقام فخرج من عنده وهو يبكي[(٣)] .

---

(١) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، يسميها الفرس « فيروز سابور » ، والأنبار أيضاً مدينة قرب مدينة بلخ . « معجم البلدان : ٢٥٧/١ » . وفي وفيات الأعيان ٤٧١/٢ : « من الأبناء » ، أي من أبناء خراسان ، وهو الأصح .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٧١/١ ، والبداية والنهاية : ٢١٧/١٠

(٣) البداية والنهاية : ٢١٧/١٠

قال الفضيل : استدعاني الرَّشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطَّعام والشَّراب واللَّذات فيها ، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال :

عِشْ مابدا لك سالماً ... في ظلِّ شاهقة القصورِ
تسعى عليكَ بما اشتهيـ ... ـت لدى الرَّواح إلى البكورِ
فإذا النُّفوسُ تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصُّدورِ
فهناكَ تعلمُ موقناً ... ماكنتَ إلاَّ في غرورِ

قال : فبكى الرَّشيد بكاء شديداً ، فقال له الفضل بن يحي : دعاك أمير المؤمنين تَسرّه فأحزنته ؟ فقال له الرَّشيد : دعه فإنَّه رآنا في عمى فَكَرِهَ أن يزيدنا عمى .

وقال الرَّشيد لأبي العتاهية : عظني بأبيات من الشِّعر وأوجز فقال :

لاتأمنِ الموتَ في طَرف ولا نفس ... ولو تمتَّعتَ بالحُجَّابِ والحرسِ
وَاْعلم بأَنَّ سهامَ الموتِ صائبةٌ ... لكلِّ مدَّرعٍ منها وَمترَّسِ
ترجو النَّجاةَ ولم تسلك مسالِكَها ... إنَّ السَّفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

فخرّ الرشيد مغشياً عليه[1] .

حجَّ الرَّشيد ماشياً ، كان يمشي على اللُّبود ، كانت تبسط له من منزلة إلى منزلة ، وسبب حجه ماشياً أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام ، فقال له : يا هارون ! إنَّ هذا الأمر صائر إليك ، فحج ماشياً واغزُ ، ووسع على أهلِ الحرمَيْن . فأنفق فيهم الرَّشيد أموالاً عظيمة ، ولم يحج خليفة قبله ولا بعده ، ماشياً رحمه الله[2] ..

---

(١) البداية والنهاية : ٢١٨/١٠

(٢) النجوم الزاهرة : ٦٠/٢

دخل إلى الرَّشيد ابن السماك الواعظ فذكَّره ثم وعظه حتَّى بكى بكاء شديداً ، فقال ابن السَّماك : لتواضعُك في شرفك ، أحبُّ إلينا من شرفك[1] .

ووعظه أيضاً فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ لك بين يدي الله تعالى مُقاماً ، وإن لك من مُقامك مُنصَرفاً ، فانظر إلى أين منصرفك ؟ إلى الجنَّة أو إلى النَّار ، فبكى الرَّشيد حتَّى قال بعض خواصِّه : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : دعه فليمت حتَّى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى[2] .

قال الفضيل بن عياض للرَّشيد : حساب الخلق كلهم عليك ، فبكى الرَّشيد وشهق ، ثم بكى الفضيل حتَّى جاء الخدم فحملوهما[3] .

وفي أول لقاء بين الفضيل والرَّشيد ، دخل الفضيل في مكة على الرَّشيد ، فسأل الفضيلُ سفيانَ بن عُيَينة : يا سفيان أيهم أمير المؤمنين ؟ قلت : هذا ، قال : أنت هو يا حسن الوجه الَّذي تقلدت أمر هذه الأُمَّة في عنقك ؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً ، قال : فبكى هارون ، وبكى الفضيل ، ثم أُتِيَ لكل واحد من علماء مكة ببدرة ، فوضعت بين أيديهم ، فحمل كلٌّ منهم بدرته ، إلاَّ الفضيل . فقال له هارون : يا أبا علي لاتستح أن تأخذ منا ، خذها فأعطها مديوناً ، وأشبع بها جائعاً ، واكس بها عرياناً ، أو فرِّج بها عن مكروب ، قال : ولا هذا ، أعفني منه يا أمير المؤمنين ، قال سفيان : فلما خرجنا قلت : يا أبا علي أخطأت اليوم ، قال : وكيف ؟ قلت : هذا خطأ إذ لم تقبلها ، أفلا أخذتها فقضيت عن مديون ، وأشبعت جائعاً ، قال سفيان : فأخذ أطراف لحيتي فقال : يا أبا محمد أنت فقيه البلد ، والمنظور إليه تغلط هذا الغلط ، لو طابت لأُولئك طابت لي ، قال سفيان : فصغرت عند ذلك نفسي[4] .

---

(١) النجوم الزاهرة : ٦٧/٢

(٢) النجوم الزاهرة : ١١١/٢

(٣) النجوم الزاهرة : ١٢١/٢

(٤) تاريخ الموصل : ٢٩٢

قال الإمام مالك بن أنس : شاورني هارون الرَّشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ، ويحمل النَّاس على مافيه ، فقلت : لاتفعل ، فإنَّ أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكل مصيب .

ووعظ أبو العتاهية الرَّشيد بهذه الأبيات :

خانكَ الطَّرفُ الطموحُ	أيُّها القلبُ الْجَمُوحُ
لدواعي الخيرِ والشـ	ـرِّ دُنُوٌّ وَنُزوحُ
هل لمطلوبٍ بذنبٍ	توبَةٌ منهُ نَصوحُ
كيفَ إصلاحُ قلوبٍ	إنَّما هُنَّ قُروحُ !
أحسنَ اللهُ بنا أنَّ	الخطايا لاتفوحُ
سيصيرُ المرءُ يوماً	جَسَداً مافيه روحُ
بين عَيني كُلِّ حَيٍّ	عَلَمُ الموتِ يَلُوحُ
كلُّنا في غفلةٍ والـ	ـموتُ يغدو وَيَرُوحُ
لِبني الدُّنيا من الدُّنـ	ـيا غَبُوقٌ[1] وَصَبوحُ
رُحنَ في الوَشي وأصـ	ـبَحنَ عليهنَّ المُسُوحُ
كلُّ نطَّاح - من الدَّهـ	ـرِ - له يومٌ نَطُوحُ
نُحْ على نَفْسِكَ يا مِسـ	ـكينُ إنْ كنتَ تَنوحُ
لَتَمُوتَنَّ وإن عُمِّـ	ـرتَ ماعُمِّرَ نُوحُ !

فبكى الرشيد وانتحب .

قال ابن الجوزي : قال الرَّشيد لشيبان : عظني ، فقال : لأن تصحب من يخوفك حتَّى يدركك الأمن ، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتَّى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لي هذا ، قال : من يقول لك : أنت

(١) الغَبُوق : الشُّرب بالعشي .

مسؤول عن الرَّعيَّة فاتق الله أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم عليه الصَّلاة والسَّلام ، فبكى الرَّشيد حتَّى رحمه من حوله[1] .

كتب ابن السَّماك إلى الرَّشيد يعزيه بابن له : أمَّا بعد ، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه ، فإنَّه حين قبضه أحرز لك هبته ، ولو سلم لم تسلم من فتنته ، أرأيت حزنك على ذهابه وتلهفك لغرامه ! أرضيت الدَّار لنفسك فترضاها لابنك ! أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقيت أنت معلقاً بالخطر ، واعلم أنَّ المصيبة مصيبتان إن جزعت ، وإنما هي واحدة إن صبرت ، فلا تجمع الأمرين على نفسك[2] .

وقدم على الرَّشيد رجلٌ من الأنصار ، يقال له نُفَيع[3] - وكان عِرِّيضاً[4] - قال : فحضر باب الرَّشيد ومعه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وحضر موسى بن جعفر على حمار له ، فتلقاه الحاجب بالبرّ والإكرام ، فأعظمه من كان هناك ، وعَجَّل له الإذن ، فقال نفيع لعبد العزيز : من هذا الشَّيخ ؟ قال : أوما تعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا شيخ آل أبي طالب ، هذا موسى بن جعفر ، قال : ما رأيت أعجز من هؤلاء القوم ! يفعلون هذا برجل يَقدِرُ أن يزيلهم عن السَّرير ! أما لئن خرج لأسوءَنَّه ، فقال له عبد العزيز : لا تفعل ، فإنَّ هؤلاء أهل بيت قلَّما تعرض لهم أحد في خطاب إلاَّ وَسَمُوهُ بالجواب سِمَة يبقى عارها عليه

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

(٢) عيون الأخبار : ٣/٥٤

(٣) نفيع هذا أنصاريٌّ وليس صحابياً ، نفيع الصحابي اسمه : (أبو بكرة) نفيع بن الحارث بن كلدة ، وكان هذا يقول : أنا من إخوانكم في الدّين وأنا مولى رسول الله ﷺ ، وإن أبى النَّاس إلاَّ أن ينسبوني ، فأنا نفيع بن مسروح ، وكان من فضلاء الصحابة وصالحيهم ، [أسد الغابة : ٦/٣٨] .

(٤) تعرض لفلان : تصدى له ، يقال : تعرضت أسألهم . وفلان « عُرْضَة » للنَّاس : أي لا يزالون يقعون فيه .

مدى الدهر[1] . والحادثة دليل على إكرام الرَّشيد لآل البيت بشخص موسى بن جعفر .

☆ ☆ ☆

كان ابن أبي مريم هو الَّذي يضحك الرَّشيد ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرَّشيد قد أنزله في قصره .. نبهه الرَّشيد يوماً إلى صلاة الصُّبح ، فقام فتوضَّأ ، ثم أدرك الرَّشيد وهو يقرأ : ﴿ وَمَا لِيَ لاأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس : ٢٢/٣٦] ، فقال ابن أبي مريم : لاأدري والله ، فضحك الرَّشيد وقطع الصَّلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصَّلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك[2] .

قال أبو معاوية الضَّرير محمد بن حازم : ماذكرت عند الرَّشيد حديثاً إلا قال صلَّى الله وسلم على سيدي[3] ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتَّى يبل الثَّرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصبَّ الماء عليَّ وأنا لاأراه ، ثم قال : يا أبا معاوية أتدري من يصبُّ عليك الماء ؟ قلت : لا ، قال : يصبُّ عليك أمير المؤمنين ، قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنَّما أردت تعظيم العلم[4] .

دخل على الرَّشيد ابن السَّماك يوماً فاستسقى الرَّشيد ، فأُتي بقلَّة فيها ماء مبرد ، فقال لابن السَّماك : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشترياً هذه الشُّربة لو مُنِعتها ؟ قال : بنصف ملكي ، فقال : اشرب هنيئاً ، فلما شرب

---

(١) أمالي المرتضى : ٢٧٥/١

(٢) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

(٣) أمر الرَّشيد أن يكتب في صدر الرسائل : الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عزّ وجلّ . [البداية والنهاية : ١٧٧/١٠] .

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠ ، وتاريخ بغداد : ٢٩٣/١٤ ، سير أعلام النُّبلاء : ٢٨٧/٩

قال : أرأيت لو مُنِعت خروجها من بدنك ، بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال : بنصف ملكي الآخر ، فقال : إن مُلكاً قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، لخليق أن لا يتنافس فيه ، فبكى الرَّشيد[1] . قال : يا بن السماك ، ماأحسن مابلغني عنك ! قال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ لي عيوباً لو اطَّلع الناس منها على عيبٍ واحد ماثبتت لي في قلب أحد مودّة ، وإني لخائف في الكلام الفتنة ، وفي السِّرِّ الغِرَّة ، وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها[2] .

وأخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال : كنا عند الرَّشيد ، فقال : بلغني أنَّ العامة يظنون فيَّ بُغضَ علي بن أبي طالب ، ووالله ماأُحب أحداً حبِّي له ، ولكن هؤلاء أشد النَّاس بغضاً لنا ، وطَعْناً علينا ، وسعياً في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم وما حويناه ، حتَّى إنَّهم لأَميل إلى بني أُميَّة منهم إلينا ، فأمَّا ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسَّابقون إلى الفضل ، ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن ابن عباس أنَّه سمع النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول في الحسن والحسين : « من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني » ، وسمعه يقول : « فاطمة سيدة نساء العالمين ، غير مريم بنت عمران وآسية ابنة مزاحم »[3] .

قال الرياشي : قال الأصمعي : دخلت على الرَّشيد وهو ينظر في كتاب ودموعهُ تنحدر على خدَّيه ، فظللت قائماً حتَّى سكن ، وكان منه التفاتة فقال : اجلس يا أصمعي ، أرأيت ماكان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدُّنيا مارأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل ، وهو :

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٢١٥ ، تاريخ بغداد : ١٤/٨ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

(٢) العقد الفريد : ٣/١٦٤

(٣) تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

هـــل أنتَ مُعتبرٌ بمن خَلِيَتْ ... منـــه غَـــداةَ مضى دســـاكره
وبمن أذلَّ المـــوتُ مصرعَـــه ... فتبرأت منـــه عشـــائره
وبمن خَلَتْ منـــه أسِرَّتُـــهُ ... وبمن خلتْ منـــه منـــابره
أين الملـــوكُ وأين غيرهُمُ ؟ ... صـــاروا مصيراً أنت صـــائره
يـا مُـؤثر الـدُّنيـا بلـذتـه ... والمستعـــد لمن يفـــاخره
نَـلْ مـا بـدا لـك أن تنـال من الـ ... ـــدُّنيـــا فـــإنَّ المـــوتَ آخره

ثم قال الرَّشيد : كأنّي والله أُخاطب بذلك دون النَّاس ، فلم يلبث بعد إلا يسيراً حتى مات .

ومما رواه الرشيد من الحديث : قال الصولي : حدثنا عبد الرحمن بن خلف ، حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي ، سمعت الرَّشيد يخطب فقال في خطبته : حدثني مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال : قال النَّبيُّ ﷺ : « اتقوا النار ولو بِشِقّ تمرة » ، وحدثني محمد بن علي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب قال : قال النَّبيُّ ﷺ : « نظفوا أفواهكم فإنَّها طريق القرآن »[(١)] .

☆ ☆ ☆

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٧

مَجالِسُ الرّشِيد

« ويحك اجتنب الصلاة والقرآن
وقل فيما عدا ذلك »[١] .

كان قصر الرَّشيد : « مرتع الحكماء والعلماء ، وسوق البلاغة والشِّعر والتَّاريخ والفقه والطِّب والموسيقا والفنون النَّافعة ، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيَّته النُّبل والكرم ، فأجاز العلماء في كل فن جائزات سخيَّة نبيلة » ، لقد كان عصره : « عصر ازدهار الحضارة الإسلاميَّة أي ازدهار » .

حدث محمد بن عيسى بن يزيد الطُّرسوسي ، قال : سمعت خرزاد القائد يقول : كنت عند الرَّشيد ، فدخل أبو معاوية الضَّرير وعنده رجل من وجوه قريش ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة : « أن موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الَّذي أخرجتنا من الجنَّة ! » وذكر الحديث ، فقال القُرشي : أين لقي آدمُ موسى ؟ .. قال : فغضب الرَّشيد ، وقال : النِّطع والسَّيف ، زنديق والله يطعن في حديث رسول الله ﷺ ، قال : فما زال أبو معاوية يسَكِّنُهُ ويقول : كانت منه بادرة ، ولم يفهم يا أمير المؤمنين ، حتَّى أسكنه[٢] .

قال الأصمعي : دخلت على هارون الرَّشيد ومجلسه حافل ، فقال : يا أصمعي ماأغفلك عنا ، وأجفاك لحضرتنا ؟! قلت : والله يا أمير المؤمنين ما ألاقتني بلادٌ

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٢١٤

(٢) تاريخ بغداد : ١٤/٥ ، والبداية والنهاية : ١٠/٢١٤ ، وتاريخ الموصل : ٢٩٤ ، وسير أعلام النبلاء : ٩/٢٨٨ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٥ ، والرواية لتاريخ بغداد .

بعدك حتّى أتيتك ، قال : فأمرني بالجلوس ، فجلست وسكت عني ، فلما تفرّق النّاس - إلا أقلهم - نهضت للقيام ، فأشار إليّ أن أجلس ، فجلست حتّى خلا المجلس ، فلم يبق غيري وغيره ومَن بين يديه من الغلمان ، فقال لي : يا أبا سعيد : ما ألاقتني ؟ قلت : أمسكتني يا أمير المؤمنين ، وأنشدت :

كفاك كف ماتُليق درهما ... جوداً وأخرى تعط بالسيّف الدّما

فقال : أحسنت ، وهكذا فكن ، وقّرنا في الملا ، وعلمنا في الخلا ، وأمر لي بخمسة آلاف دينار(١) .

قال الأصمعي : كنا عند الرّشيد ، فَقُدّمت إليه فالوذجَةٌ ، فقال : يا أصمعيُّ ، حدثنا بحديث مُزَرِّدٍ ، فقلت : إن مُزَرِّداً أخا الشمّاخ كان غلاماً جَشِعاً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعام عليه ، وكان ذلك يُحفِظُه (يغضبه) فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها ، فدخل مزرد الخيمة وعمد إلى صاعَي دقيقٍ ، وصاعٍ من تمر ، وصاعٍ من سمن ، فجمعه ثم جعل يأكله وهو يقول :

ولمّا غدتْ أمّي تَميرُ بناتِها ... أغرْتُ على العِكمِ(٢) الّذي كان يُمنَعُ
لَبكتُ(٣) بصاعَيْ حِنْطةٍ صاعَ عَجوةٍ ... إلى صاعِ سَمنٍ فوقَهُ يَتَريَّعُ(٤)
ودَبّلتُ(٥) أمثالَ الأثافي كأنّها ... رُؤوسُ نِقادٍ(٦) قُطّعَتْ يومَ تُجمَعُ
وقلتُ لبطني أبشرِ اليومَ إنّه ... حِمَى أُمّنا مما تَحُوزُ وتَرفَعُ

---

(١) تاريخ بغداد : ٩/١٤

(٢) العِكْم : النمط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه متاعها .

(٣) لبكت : خلطت ، واللبيكة : تمر ودقيق يخلط ويصب عليه السمن .

(٤) يتريع : يتميع هاهنا ، وها هنا لا يستقر له وجه لكثرته ، وفي الأصل « يتربع » بالباء الموحدة .

(٥) دبّلت الشيء : جمعت بعضه على بعضه ، جعلته كتلة .

(٦) نقاد : جمع نقدة ، وهي الصغيرة من الغنم ، الذكر والأنثى في ذلك سواء .

فإن كنتَ مَصْفوراً[1] فهذا دواؤه   وإن كنتَ غَرْثاناً[2] فذا يومُ تَشْبَعُ

فضحك الرَّشيد حتَّى استلقى على ظهره ، ثم قال : كلوا باسم الله ، هذا يوم تشبع يا أصمعي[3] .

وقال الأصمعي : دخلت على هارون الرَّشيد وبين يديه بدرة ـ ١٠ آلاف درهم ـ فقال : يا أصمعي ، إن حدثتني بحديث في العجز فأضحكتني ، وهبتك هذه البدرة .

فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا في صحارى الأعراب في يوم شديد البرد والرِّيح ، وإذا بأعرابي قاعد على أجمة وهو عُريان ، قد احتملت الرِّيح كساءه ، فألقته على الأجمة ، فقلت له : يا أعرابي ماأجلسك هاهنا على هذه الحالة ؟ فقال : جارية وعدتها يقال لها سلمى أنا منتظر لها . فقلت : وما يمنعك من أخذ كسائك ؟ فقال : العَجزُ يوقفني عن أخذه ، فقلت له : فهل قلت في سلمى شيئاً ؟ فقال : نعم ، فقلت : أسمعني لله أبوك ! فقال : لاأسمعك حتى تأخذ كسائي وتلقيه عليَّ ، قال : فأخذته فألقيته عليه ، فأنشأ يقول :

لعلَّ الله أن يَأْتي بسلمى   فيبطَحُها ويلقيني عَلَيْها
ويَأتي بعد ذاكَ سحابُ مُزْنٍ   تطهِّرنا ولا نَسْعى إليها

فضحك الرَّشيد حتَّى استلقى على ظهره ، وقال : أعطوه البدرة ، فأخذها الأصمعي وانصرف[4] .

---

(١) المصفور : من به الصفر ، وهو داء في البطن يصفر منه الوجه .

(٢) غرثان : جائع .

(٣) عيون الأخبار : ٢٠٤/٣ ، والعقد الفريد : ٣٨٥/٣

(٤) عيون الأخبار : ٣٠٠/٣

أنشد العُماني الرَّشيدَ يصف فرساً :

كأنَّ أُذنيـــه إذا تَشـوّفـــا قــادِمـــة أو قَلَماً مُحرّفـــا

ولحن ، ففهم ذلـك أكثر من حضر ، فقـال الرَّشيـد : دع كأن وقـل : تخـال « تخال أذنيه » حتَّى يستوي الشِّعر ، فعجبوا لسرعة تَهَدّيه ، لقد كان فهم الرَّشيد فهم العلماء[1] .

قال الرَّشيد للأصمعي يومـاً : يـا أصمعي ، أتعرف للعرب اعتـذاراً ونـدمـاً ؟ ودع النابغة ، فإنَّه يحتج ويعتذر ، فقلت : ماأعرف ذلك إلاَّ لبشر بن أبي حـازم الأسدي ، فإنَّه هجا أوس بن حارثة بن لأم ، فأسره بعد ذلك وأراد قتله ، فقالت له أمه - وكانت ذات رأي - والله لا محا هجاءه لك إلاَّ مدحه إياك ، فعفـا عنـه . فقال بشر[2] :

إنّي على مـــا كان منّي لنــــادم وإنّي إلى أوس بن لأم لتــــائِب
وإني إلى أوس ليقبَـــلَ تــــوبتي ويعرفَ وُدّي مـــاحييت لراغب
سأمحو بمدحي فيك إذ أنـا صادق كتـابَ هجـاء سـار إذ أنـا كاذب

فقال الرَّشيد للأصمعي : إن دولتي لَتَحسُنُ ببقائك فيها[3] .

وروى الأصمعي : « لما خرجنـا مع الرشيـد إلى الرقـة قـال لي : هـل حملت معك شيئاً من كتبـك ؟ قلت : نعم حملت منهـا مـاخف حملـه .. ثمـانيـة عشر صندوقاً . فقال : هذا لما خففت ، فلو ثقلت كم كنت حملت ؟ » .

دخـل العُماني الرَّاجـز على الرَّشيـد لينشده وعليـه قلنسوة طـويلـة ، وخُفّ

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٢ ، والرواية فيه لسعيد بن مسلم .
(٢) تنسب إلى الأعشى ، وهي في ملحقات ديوانه : ٢٣٦
(٣) أمالي المرتضى : ٤٦٣/١

ساذج ، فقال له الرَّشيد : يا عُماني ، إيّاك أن تنشدني إلاّ وعليك عِمامة عظيمة الكَور ، وخفَّان دلقمان[١] ، فبكَّر إليه من الغد وقد تزيَّا بزيِّ الأعراب ، ثمَّ أنشده وقبَّل يده وقال : يا أمير المؤمنين ، قد والله أنشدتُ مروان ورأيتُ وجهه وقبّلت يده ، وأخذت جائزته ، ثمَّ يزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ثمَّ السَّفاح ، ثمَّ المنصور ، ثمَّ المهدي ، كل هؤلاء رأيت وجوههم ، وقبَّلت أيديهم ، وأخذت جوائزهم إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأُمراء والسَّادة والرُّؤساء ، والله ما رأيت فيهم أبهى منظراً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أنعم كفاً ، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين ، فأعظم له الجائزة على شعره ، وأضعف له على كلامه ، وأقبل عليه فبسطه حتَّى تمنى جميع من حضر ، أنَّه قام ذلك المقام[٢] .

ولكلثوم العتابي في الرَّشيد أبيات منها :

إمامٌ لَهُ كَفٌّ يَضُمُّ بَنانُها ... عَصا الدِّينِ ممنوع من البر عودها
وَعَينٌ مُحيطٌ بالبريَّة طَرْفُها ... سَواءٌ عليها قُرْبُها وبعيدها
وأسمعَ يَقظاناً يبيت مُناجياً ... له في الحشا مُسْتودعاتٍ يكيدها
سَميعٌ إذا ناداه من قعْرِ كُرْبَةٍ ... مُنادٍ كَفَتْهُ دعوة لا يعيدها[٣]

وكان الرَّشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي وعبد الوهاب الكوفي في مجلسه ، فتذاكروا الرُّطَبَ ، فقال أبو يوسف : السَّكَر أطيب من المُشَان[٤] ، وقال عبد الوهاب : المشان أطيب ، فقال الرَّشيد : ليحضر الطعام ، ودعا بعدة من بني هاشم كانوا هناك ، فأقبلوا جميعاً على السَّكَر ، وتركوا المشان ، فقال الرَّشيد :

---

(١) الدلقم : دويبة كالسَّمُّور ، وفي العقد الفريد « دلقان » ، وفي البيان والتبيين « دُمالِقان » والدمالق : الحجر الأملس .
(٢) عيون الأخبار : ٦٣/١ و ٦٤
(٣) مروج الذهب : ٣٦٥/٣
(٤) السَّكَر والمُشان « بضم الميم أو كسرها حسب مختار الصحاح » وهما نوعان من التَّمر .

قضوا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون ، فقال أبو عبد الرحمن - عبد الوهاب الكوفي - : إنّي لم أر « مشان » قط أردأ من هذا ، فقال أبو يوسف : هكذا هما إذا اجتمعا[1] .

قال إبراهيم بن المهدي : كنت أنا والرَّشيد على ظهر حرَّاقة - ضرب من السُّفن فيها مرامي نيران - وهو يريد نحو الموصل ، والشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال لي الرَّشيد : يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك ؟ قلت : اسم رسول الله ﷺ ، قال : فما الثَّاني بعده ؟ قلت : اسم هارون اسم أمير المؤمنين ، قال : فما أسمجها ؟ قلت : إبراهيم ، فزأرني وقال : ويلك !! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرَّحمن جلَّ وعزَّ ، قلت : بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من غرور . قال : وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، قلت : لا جَرَم لما سمي بهذا الاسم لم يعش ، قال : فإبراهيم الإمام ، قلت : بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة ، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع ، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ، ولم أجد أحداً سمي بهذا الاسم إلا رأيته مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً . فما انقضى كلامي حتَّى سمعت ملأَّحاً على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته شاتماً رجلاً اسمه إبراهيم ، فالتفت إليَّ الرَّشيد ، فقلت : يا أمير المؤمنين أصدَّقْتَ قولي إنَّ أشأم الأسماء إبراهيم ؟! فضحك الرَّشيد كثيراً .

ودخل ابن السَّماك على الرَّشيد يوماً وبين يديه حمامة تلتقط حباً ، فقال له : صفها وأوجز ، فقال : كأنَّما المنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفتْ هاتفةٌ ... آذنَها إلْفٌ ببين
ذاتُ طوْقٍ مثل عَطْـ ... ـف النون أقنى الطَّرفَيْن

---

(1) مروج الذهب : ٣٧٥/٣

وتراهـــا نـــاظرة نحـوك من يـــاقـــوتتين
ترجـــع الأنفـــاس من ثقبين كاللـــؤلـــؤتين
وترى مثـــل البســـا تين لهـــا قـــادمتين
ولهـــا لحيـــانِ كالصَّـــد غـــين مـــن عرعرتـــين
ولهـــا ســـاقـــان حمـ ـراوان مثـــل الـــوردتين
نسجت فـــوقَ جنـــا حيهـــا لهـــا برنـــوستين
وهي طـــاووسيَّـــة اللَّـ ـــون بنـــان المنكبين
تحت ظـــل من ظـــلال ا لأيْـــكِ صـــافي الكتفين
فَقَـــدَتْ إلفـــاً فنـــاحت من تبـــاريـــح وبين
فهي تبكيـــه بـــلا دمـــعٍ جمـــود المقلتين
وهي لاتصبـــغ عينـــا هـــا كما تصبـــغ عيني[1]

ودخل مَعْنُ بن زائدة على الرّشيد .. فمشى فقارب الخطو ، فقال له : كبرت والله يا معن ؟ فقال معن : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال الرّشيد : وإن فيك على ذلك لبقية ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لَجَلْدٌ ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فرضي عنه وولاه .

وقال الرّشيد لمعن بن زائدة يوماً : إنّي قد أعددتك لأمر كبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله قد أعدَّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة بطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً على عدوك ، فإن شئت فقل ـ أي قل الأمر الّذي أعددتني إليه ـ .

وقال الكسائي : دخلت على الرّشيد ، فلما قضيت حقّ التّسليم والدُّعاء ، وثَبْتُ للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتّى خَفَّ عامّة من كان في مجلسه ،

---

(١) مروج الذهب : ٣٥٩/٣

ولم يبق إلاّ خاصّته ، فقال لي : يا عليُّ ، ألا تُحب أن ترى محمّداً وعبد الله[1] ؟ قلت : ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرّني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما ، فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أُفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضّا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتّى وقفا على باب المجلس ، فسلّما على أبيهما بالخلافة ، ودَعَوا له بأحسن الدُّعاء ، فأمرهما بالدُّنوّ منه فدنوا فصيَّرَ محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرني أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شيءٍ إلاَّ أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسرّ بذلك الرّشيد حتّى تبيَّنته فيه ، ثمَّ قال لي : يا عليُّ ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين هما كما قال الشّاعر :

أرى قَمَرَي مَجْدٍ وفرعيْ خلافة ... يزيِّنهما عِرْقٌ كريمٌ ومحتد[2]

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكّنت في الثّرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما . وآنس جميع الأمّة ببقائه وبقائهما . ثم قلت لهما : هل ترويان من الشّعر شيئاً ؟ فقالا : نَعَم ، ثم أنشدني محمد :

وإنّي لَعَفٌّ الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وأجعل مالي دون عِرْضيَ جُنَّة ... لِنفسي ، ومفضال بما كان من فضلِ

ثم أنشد عبد الله :

بكرت تلومُكَ مَطْلَعَ الفجر ... ولقد تلوم بغير ما تدري
مَلَكٌ الأمورِ عليٌّ مقتدر ... يُعْطي إذا ما شاء من يُسْرِ

---

(١) محمد « الأمين » ، وعبد الله « المأمون » .
(٢) المحتد : الأصل ، [اللّسان : حتد] .

ولرُبَّ مغتبطٍ بمرزئـه   ومفجع بنوائب الدهرِ
وترى قناتي حين يغمدها   عَضّ الثِّقاف بطيئَةَ الكسرِ

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشَّجرة المباركة أذْرَبَ[1] ألسناً ولا أحسن ألفاظاً ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منهما ، ودعوت لهما دعاء كثيراً ، وأمَّن الرَّشيد على دعائي ، ثم ضمّهما إليه ، وجمع يده عليهما ، فلم يبسطها حتَّى رأيت الدموع تنحدر على صدره .

وذكر الفضل بن الرَّبيع قال : صار إليَّ عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزّبير فقال : إنَّ موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي قد أرادني على البيعة له ، فجمع الرَّشيد بينهما ، فقال الزُّبيري لموسى : سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا ، فالتفت إليه موسى فقال : ومن أنتم ؟ فغلب على الرَّشيد الضَّحك حتَّى رفع رأسه إلى السَّقف حتَّى لا يظهر منه ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا الَّذي ترى الْمُشنع عليَّ خرج والله مع أخي محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي على جدك المنصور ، وهو القائل من أبيات :

قوموا ببيعتكم نَنْهَضْ بطاعتنا   إنَّ الخلافة فيكم يا بني حسن

وليس سعايته يا أمير المؤمنين حبّاً لك ، ولا مراعاة لدولتك ، ولكن بُغضاً لنا جميعاً أهل البيت ، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لكان منه ، وقد قال باطلاً ، وأنا مستحلفه ، فإن حلف أنّي قلت ذلك فدمي لأمير المؤمنين حلالٌ . فقال الرَّشيد : احلف له يا عبد الله ، فلما أراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع ، فقال له الفضل : لم تمتنع وقد زعمت آنفاً أنَّه قال لك ماذكرته ؟ قال عبد الله : فأنا أحلف له ، قال موسى : قل تَقَلَّدتُ الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى

(١) ذَرِبَ الرَّجلُ إذا فَصُحَ لسانُه بعد حَصرِه ، والذَّرِبُ : الحادُّ من كلِّ شيءٍ ، [اللِّسان : ذرب] .

حولي وقوتي إن لم يكن ما حكيته عنّي حقاً ، فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده عليٌّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاثة » والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قبضتك ، فتقدم بالتّوكيل عليّ ، فإن مضت ثلاثة أيّام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال ، فقال الرّشيد للفضل : خذ بيد موسى فليكن عندك حتّى أنظر في أمره .

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعتُ الصُّراخَ من دار عبد الله بن مصعب ، فأمرت من يتعرف خبره ، فعرفت أنّه قد أصابه الْجُذام ، وأنه قد تورّم واسْوَدّ ، فصرت إليه ، فوالله ما كدت أعرفه ... فصرت إلى الرّشيد فعرفته خبره ، فما انقضى كلامي حتّى أتى خبر وفاته ...

فأحضر الرّشيد موسى بن عبد الله ، وقال له :

لم عَدَلْت عن اليمين المتعارفة بين النّاس ؟ قال : لأنّا رَوَيْنا عن جدّنا رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ : « مَنْ حلف بيمين مَجّدَ الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته ، وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع فيها حَوْله وقوته إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث »[1] .

فأمر الرّشيد بتخليته وأن يعطى ألف دينار .

وكان جعفرُ بنُ سليمانَ أحضَرَ على مائدتِه بالبَصرة يوم زارَهُ الرّشيدُ ألبانَ الظِّباء وزُبْدَها وسِلاها[2] ولبَأها ، فاستطاب الرّشيدُ جميعَ طُعومِها ، فسأل عن

---

(١) مروج الذهب : ٣/٣٥٣

(٢) أراد السّلاء : السّمن ، والجمع أسلئة .

ذلك ، وغمزَ جعفرٌ بعضَ الغلمان ، فأطلقَ عن الظِّباء ومَعَها خشْفانُها[1] ، وعليها شُمُلها[2] ، حتَّى مرَّت في عَرْصة[3] تُجاه عينِ الرَّشيد ، فلَمَّا رآها على تلك الحال وهي مقرَّطة[4] مخضَّبة ، استخفَّه الفرح والتَّعجُّب ، حتَّى قال : ماهذه الألبان ؟ وما هذه السُّمْنان واللِّبأ والرَّائب والزُّبد الَّذي بينَ أيدينا ؟! قال : مِنْ حَلبِ هذه الظِّباء ، أُلِّفَتْ وهي خشْفانٌ فتلاقحتْ وتلاحقت[5] .

كان الرَّشيد يقول : مِنْ أحبِّ مامُدِحْتُ به إليَّ :

أبو أمين ، ومأمون ، ومؤتمن أكرم به والداً براً وما ولدا

وقال الأصمعي : حضرت أنا وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى عند الفضل بن الرَّبيع - وقد روي من طريق أخرى أنَّ ذلك كان عند الرَّشيد - فقال لي : كم كتابك في الخيل ؟ فقلت : جلد واحد ، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال : خمسون جلدة .

فأمر بإحضار الكتابين وأحضر فرساً ، وقال لأبي عبيدة اقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك في موضع موضع من الفرس ، فقال : لست بيطاراً ، وإنَّما هذا شيء أخذته عن العرب ، فقال لي : قم يا أصمعي وافعل ذلك ، فقمت وأمسكت ناصيته ، وشرعت أذكر عضواً عضواً ، وأضع يدي عليه وأُنْشِدُ ماقالت العرب فيه ، إلى أن فرغت منه ، فقال : خذه ، فأخذته ، وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه .

(١) الخشفان : أراد به جمع خشف ، وهو ولد الظَّبية ، والمعروف في هذا الجمع (خِشَفَة) كقِرَدة . ولقد استعمل الجاحظ للخشفان أكثر من مرَّة في كتاب الحيوان .

(٢) الشُّمَل : جمع شِمال ، ككتاب ، وهو شيء كمخلاة يغطى به ضرع الشَّاة إذا ثقلت .

(٣) العَرْصة : كل بقعة بين الدُّور واسعةٍ ليس فيها بناء ، [اللِّسان : عرص] . فهي السَّاحة الواسعة إذن .

(٤) مقرَّطة : ذات قرط .

(٥) كتاب الحيوان : ١٨٧/٧

وجـاء في الرّوايـة الّتي قـالت إن ذلـك كان عنـد الرّشيـد ، قـال الرّشيـد لأبي عبيـدة : مـاتقـول فيما قـال ؟ قـال : أصـاب في بعض ، وأخطـأ في بعض ، فالّذي أصاب فيه منّي تعلّمه ، والّذي أخطأ فيه ماأدري من أين أتى به[1] .

وقال الأصمعي أيضاً :

ذكرت يوماً للرّشيد نَهَمَ سليمان بن عبـد الملـك[2] ، وقلت : إنّـه كان يجلس ويُحضر بين يديه الخِراف المشويّة ، وهي كما أُخرجت من تنانيرها ، فيريـد أخـذ كُلاها فتمنعه الحرارة ، فيجعل يده على طرف جبّته ويـدخلهـا في جوف الخروف فيأخذ كُلاه ، فقال لي : قاتلك الله ، ماأعلمك بأخبـارهم ! اعلم أنّه عُرِضت عليّ ذخائر بني أُميّة ، فنظرت إلى ثياب مذهّبة ثمينة ، وأكمامها وَدِكة بـالـدُّهن[3] ، فلم أدرِ ماذلك حتّى حدثتني الحـديث ، ثمّ قـال : عليّ بثيـاب سليمـان ، فـأُتِيَ بهـا ، فنظر إلى تلك الآثار فيها ظاهرة فكسـاني منهـا حلةً . وكان الأصمعي ربّما خرج فيها أحياناً فيقول : هذه جُبّة سليمان الّتي كسانيها الرّشيد[4] .

☆ ☆ ☆

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبـد الله بن بهمن بن فيروز ، الأسـدي بـالولاء ، الكوفي المعروف بـالكسـائي ، أحـد القرّاء السّبعـة ، كان إمـامـاً في النّحو واللّغـة والقراءات ، وكان يؤدّب الأمين بن الرّشيد ، ويعلّمه الأدب ، ولم يكن له زوجـة ولا جارية ، فكتب إلى الرشيد يشكو العزبة في هذه الأبيات :

قـل للخليفـــة مـــاتقـــول لمن   أمسى إليـــك بحرمـــة يُـــدْلي

(١) وفيات الأعيان ١٧٢/٣

(٢) سليمـان بن عبـد الملـك : [٥٤ ـ ٩٩ هـ = ٦٧٤ ـ ٧١٧ م] ، الخليفـة الأمـوي ، « كان طـويـلاً جميلاً ، أبيض ، كبير الوجـه مقرون الحـاجبين ، فصيحـاً بليغـاً ، متوقّفـاً عن الـدّمـاء ، معجبـاً بنفسه ، أكولاً جداً » ، الأعلام ١٣٠/٣ ، عن الخميس ٣١٤/٢ و ٣١٥

(٣) الوَدَك : الدسم ، وقيل : دَسَم اللّحم ، [اللّسان : ودك] .

(٤) وفيات الأعيان : ١٧٤/٣

مـــازلت مـــذ صـــار الأمين معي عَبْـــدي يَـــدي ومطيتي رجلي
وعلى فراشـــــي مَنْ ينبهـــني من نـــومتي وقيـــامُـــهُ قبلي
أسعى برجـــل منـــه ثـــالثـــة مـــوفـــورة مني بـــلا رجـــلِ
وإذا ركبت أكـــون مرتـــدفـــاً قـــــدام سرجي راكب مثلي
فـــامنن عليَّ بمـــا يسكنـــه عنِّي وأهْـــدِ الغمـــد للنَّصـــلِ

فأمر له الرَّشيد بعشرة آلاف درهم ، وجارية حسناء بجميع آلاتها ، وخـادم وبرذون بجميع آلته .

واجتمع يـومـاً بمحمـد بن الحسن الفقيـه الحنفي في مجلس الرَّشيـد ، فقـال الكسائي : من تبحَّر في علم تهدَّى إلى جميع العلوم ، فقال لـه محمد : مـاتقول فيمن سَهـا في سجود السَّهـو ، هـل يسجـد مرَّة أخرى ؟ فقـال الكسـائي : لا ، قـال : لماذا ؟ قال : لأنَّ النُّحاة تقول : التَّصغير لا يصغَّر .

فقال محمد : فمـا تقول في تعليق الطَّلاق بـالْمِلْك ؟ قـال : لا يصح ، قـال : لِمَ ؟ قال : لأنَّ السَّيل لا يسبق المطر[1] .

وقال الأصمعي للكسائي وهما عند الرَّشيد : مامعنى قول الرَّاعي[2] :

قتلوا ابن عفَّـان الخليفـة محرمـاً ودعـــا فلم أرَ مثلـــه مخـــذولا

قال الكسائي : كان محرماً بـالحج ، قـال الأصمعي : مـاأراد عـدي بن زيـد بقوله[3] :

قتلـوا كسرى بليـلٍ محرمـــاً فتـــولَّى لم يُمَتَّـــعْ بِكَفَنْ

(١) وفيات الأعيان : ٢٩٥/٣
(٢) جمهرة أشعار العرب : ٣٣٧ ، طبع صادر .
(٣) ديوانه : ١٧٨

هل كان محرماً بالحجِّ ؟ وأي إحرام لكسرى ؟

فقال الرَّشيد للكسائي : إذا جاء الشِّعر فإيَّاك والأصمعي .

قال الأصمعي : قوله « محرماً » في حرمة الإسلام ، ومن ثم قتل مسلماً محرماً ، أي لم يحل في نفسه شيئاً يوجب القتل ، وقوله « محرماً » في كسرى ، يعني حرمة العهد ، الَّذي كان في عنق أصحابه[1] .

☆ ☆ ☆

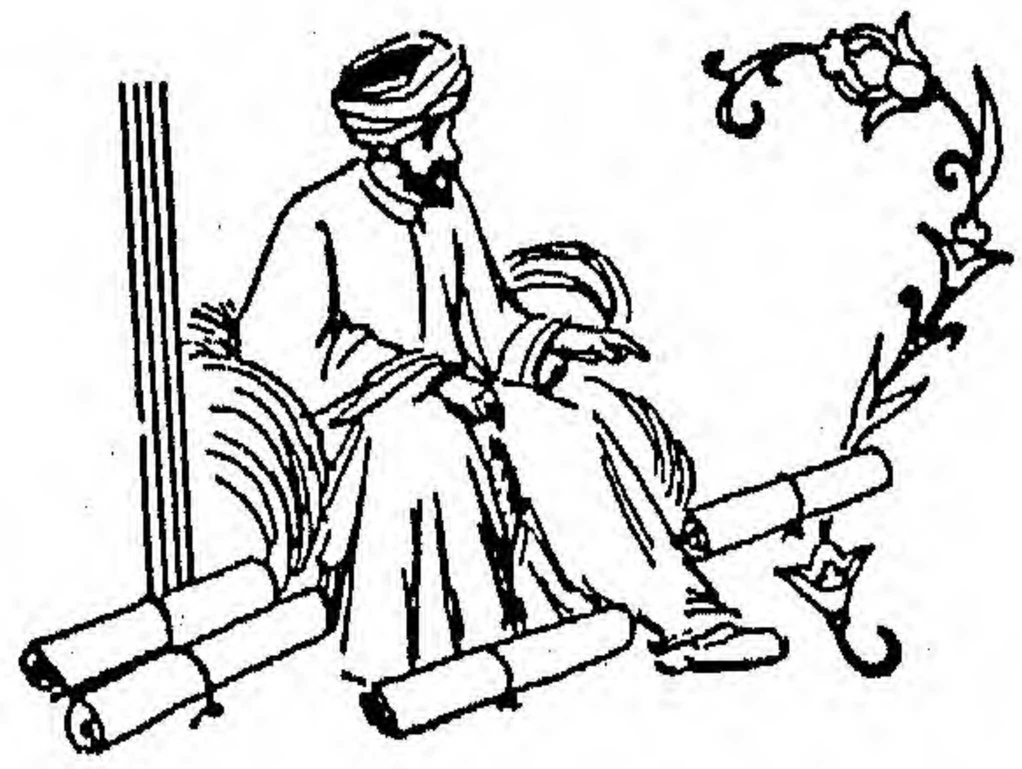

(١) وفيات الأعيان : ٣/١٧١

عَطاء الرَّشيد

كان الرَّشيد يقتفي أخلاق المنصور ويعمل بها ، إلاّ في العطايا والجوائز ، فإنه كان أسنى النَّاس عطية ابتداء وسؤالاً[1] .

قيل لشبيب بن شيبة عند باب الرَّشيد : كيف رأيتَ النَّاس ؟ قال : رأيتُ الدَّاخل راجياً ، والخارج راضياً[2] .

كان يحيى يساير الرَّشيد يوماً ، فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتي ، فقال الرَّشيد : يعطى خمس مئة درهم ، فغمزه يحيى ، فلما نزلوا قال له الرَّشيد : يا أبتِ أومأت إليَّ بشيءٍ ولم أعرفه ؟ فقال : مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه ، إنَّما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، عشرة آلاف ألف ، فقال : إذا سئِلت مثل هذا فكيف أقول ؟ فقال : تقول : يشترى له دابة[3] .

دخل الأصمعي وابن أبي حفص الشطرنجي على هارون الرَّشيد ، فخرج علينا وهو كالمتغيِّر النَّفس ، فقال : يا أصمعي ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : فأيُّكما قال بيتاً وأصاب به المعنى الَّذي في نفسي فله عشرة آلاف درهم ، قال ابن أبي حفص : قد حضرني بيت يا أمير المؤمنين ، قال : هاته ، فأنشأ يقول :

مجلس يألف السُّرور إليه ... لمحب ريحانه ذكراك

فقال : أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم ، ثم قال ابن أبي حفص : قد حضرني بيت ثان يا أمير المؤمنين ، قال : هاته ، فأنشأ يقول :

---

(١) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠ ، تاريخ الخلفاء : ٢١٥

(٢) العقد الفريد : ٢٦٧/٢

(٣) وفيات الأعيان : ٢٢٧/٦

كلّما دارت الـزُّجـاجـة زادتـ ـه حنينـاً ولـوعـة فبكاك

قـال : أحسنت والله ، يـا فضـل أعطـه عشرة آلاف درهم ، قـال الأصمعي : فنزل بي في ذلـك اليوم مـالم ينزل قـط مثلـه ، أن ابن أبي حفص يرجع بعشرين ألف درهم ، وبفخر ذلـك المجلس ، وأرجع صفراً منهما جميعـاً !! ثم حضرني بيت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين قد حضرني ثالث ، فقال : هاتِه ، فأنشأت أقول :

لم ينلـك المنى بـأن تحضريني وتجـافت أُمنيتي عن سـواك

فقال : أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرين ألف درهم ، ثم قال هـارون : قد حضرني الرَّابع ، فقلنا : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنا فعل ، فأنشأ يقول :

فتمنيـت أن يغشّـيني اللـ ـه نعـاسـاً لعـلَّ عيني تراك

قال : فقلنا يا أمير المؤمنين أنت والله أشعر منـا ، فجوائزنـا لأمير المؤمنين ، فقال : جوائزكما لكما ، وانصرفا[1] .

دخل إسحـاق بن إبراهيم الموصلي على أمير المؤمنين الرّشيـد يـومـاً ، فقـال : أنشدني من شعرك ، فأنشد :

وَآمرةٍ بـالبخـل قلت لهـا اقصري فـذلـكَ شيءٌ مـا إليـه سبيـلُ
أرى النَّـاسَ خلانَ الجوادِ ولا أرى بخيـلاً لـه في العـالمينَ خليـلُ
ومن خير حالات الفتى ـ لو علمتِـه ـ إذا نـال خيراً أن يكـون يُنيـلُ
عطـائي عطاء المكثرين تكرُّمـاً ومـالي ـ كما قـد تعلمين ـ قَليـلُ
وإني رأيت البخلَ يـزري بـأهلِـهِ ويحقر يـومـاً أن يُقـال بَخيـلُ
وكيف أخاف الفقرَ أو أُحرمَ الغنى ورأيُ أمير المـؤمنين جميـلُ ؟

(١) تاريخ بغداد : ١٠/١٤

قال : لا ، كيف إن شاء الله ، يا فضل أعطه مئة ألف درهم ، لله در أبيات تأتينا بها ، ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها .

فقال إسحاق الموصلي : يا أمير المؤمنين : كلامك أجود من شعري ، قال : أحسنت ، يا فضل أعطه مئة ألف أخرى[١] .

وقف رجل من بني أُميّة للرّشيد على الطّريق وبيده كتاب كالقصة ، فإذا فيه أربعة أبيات ، وهي :

يا أمينَ الله ، إنّي قائلٌ قَوْلَ ذي لبّ وصدق وحسبْ
لكُمُ الفضل علينا ، ولنا بكُمُ الفضل على كلِّ العربْ
عبد شمس كان يتلو هاشماً وهما بعدُ لأمٍّ ولأبْ
فَصِلِ الأرحامَ منا ، إنّما عبدُ شمسٍ عمُّ عبدِ المطلبْ

فاستحسن ذلك الرّشيد ، فأمر له لكل بيت بألف دينار ، وقال : لو زدتنا لزدناك .

وقدم هارون الرّشيد الكوفة ، فكتب قوماً من القُرّاء ، فأمر لكلِّ واحدٍ منهم بألْفَي درهم ، فكان داود الطّائي ممّن كُتب فيهم ودعي باسمه أين داود الطّائي ؟ فقالوا : داود يجيبكم ؟ أرسلوا إليه ، قال ابن السّمّاك وحمّاد بن أبي حنيفة : نحن نذهب إليه ، قال ابن السّمّاك لحماد في الطّريق : إذا نحن دخلنا عليه فانثرها بين يديه ، فإنّ للعين حظها ، فقال حماد : رجل ليس عنده شيء يُؤْمَر له بألفَيْ درهم يردُّها !! فلمّا دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال : سوءة ، إنّما يُفعل هذا بالصِّبيان ، وأبى أن يقبلها[٢]

---

(١) تاريخ بغداد ١١/١٤

(٢) وفيات الأعيان : ٢٦١/٢

قال الأصمعي : فإني عند الرشيد يوماً وعنده عيسى بن جعفر ، فأقبل على مسرور الكبير ، فقال له : يا مسرور كم في بيت مال السُّرور ؟ قال : ليس فيه شيء ، فقال عيسى : هذا بيت الحزن . قال : فاغتمَّ لذلك الرَّشيد ، وأقبل على عيسى فقال : والله لتعطين الأصمعي سلفاً على بيت مال السُّرور ألف دينار ، فاغتم عيسى وانكسر ، قال : فقلت في نفسي جاء موضع البيتَيْن ، فأنشدت الرَّشيد :

إذا شئتَ أن تلقى أخاك معبساً   وجدَّاه في الماضين، كعب، وحاتمُ
فكشِّفه عمَّا في يديه فإنَّما   تكشف أخبارَ الرِّجالِ الدَّراهمُ

قال : فتجلَّى عن الرَّشيد ، وقال لمسرور : أعطه على بيت مال السُّرور ألفَيْ دينار ، وما كان البيتان يساويان عندي درهمَيْن[1] .

قدم الرَّشيد الرَّقَّة في شهر رمضان سنة ١٩٠ هـ ، بعد أن فتح هِرقلَة[2] ، فلما عيَّد جلس ، فدخل عليه المهنِّئون ، وكان من بينهم شعراء كثر ، وفيهم أشجع السُّلمي ، فبدر فأنشد :

لا زلت تنشرُ أعياداً وتطويها   تمضي لها بك أيَّام وتُمضيها
ولا تقضَّت بك الدُّنيا ولا برحت   يطوي بك الدَّهرُ أياماً وتطويها
ليهنِكَ الفتحُ والأيَّامُ مقبلة   إليكَ بالنَّصرِ معقوداً نواصيها
أمسَت هِرقلةُ تهوي من جوانبها   وناصرُ اللهِ والإسلامِ يرميها
ملكتَها وقتلتَ الناكثين بها   بنصر من يملك الدُّنيا وما فيها
ما روعيَ الدينُ والدُّنيا على قدم   بمثل هارون راعيه وراعيها

(١) تاريخ بغداد : ٩/١٤

(٢) سير الشرح وافياً في نهاية بحث « جهاد الرشيد » .

فأمر له بعشرة آلاف دينار وقال : لا ينشد فيَّ أحد بعده بشيء ، فقال أشجع : والله لأَمرُه ألاَّ ينشده أحد من بعدي أحب إليَّ من صِلَتِهِ(١) .

ومع هذا العطاء السَّخي .. فلقد ترك الرَّشيد في بيت المال ميزانية ضخمة كبيرة غنية ؛ لقد ترك الرَّشيد بعد وفاته في بيت المال ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار(٢) !! « على الرَّغم من أُبهة الملك ، والهبات الَّتي لم يسبق لها مثيل »(٣) .

☆ ☆ ☆

---

(١) معجم البلدان : ٣٩٨/٥

(٢) الكامل في التاريخ : ١٣٠/٥

(٣) قصة الحضارة : ٩٢/١٣

المجتمع في عَصْرِ الرشيد

كانت الرّفاهية تعمّ الدّولة كلّها ، وكذلك الطمأنينة ، لأنه تتبع أمور الرّعيّة ، وما تعجل بإراقة دم مطلقاً .

قال الفضل بن الرّبيع : جلس الرّشيد يوماً للمظالم ، فجعلت أتصفّح النّاس ، وأسمع كلامهم ، فرميت بطرفي ، فرأيت في آخرهم شيخاً حسن الهيئة والوجه ، مارأيت أحسن منه ، فوقف حتّى تقوّض المجلس[1] ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، رقعتي ! فأمر بأخذها ، فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بقراءتها ، فأنا أَحْسَنُ تعبيراً لخطي من غيري ، فقال الرّشيد له : أقرأ ، فقال : شيخ ضعيف ، ومقام صعب ، ولا آمنُ الاضطراب ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل عنايته بأمري في الإذن بالجلوس فعل ، فقال : اجلس . فجلس وأنشأ يقول :

يا خيرَ من وخدت بأرحُلِهِ ... نُجبُ الرّكاب بَمَهْمَهٍ جلس[2]
تطوي السباسبَ في أزمتها ... طيَّ التِّجار عمائم البِرس[3]
لما رأتك الشّمسُ طالعة ... سجدت لوجهك طلعةُ الشمس
خيرُ البريّة أنت كلهم ... في يومك الغادي وفي الأمس

(١) « قوّض » البناء تقويضاً ، نقضه من غير هدم ، و « تقوّضت » الحِلَق والصفوف انتفضت وتفرقت ، مختار الصحاح : ٤٧٨

(٢) وخدت : ضرب من السّير السّريع ، والمهمه : الصّحراء ، وجلْس : غليظ ، يريد أنّ السّير فيه يشق على سالكيه .

(٣) تطوى : تقطع ، والسباسب : جمع سبسب ، وهي الأرض المستوية البعيدة ، والبرس (بالكسر) القطن .

لله مــــاهـــارون من ملـــك عفّ السريرة طـــــاهر النَّفس

وكـــذاكَ لن تنفـــكَّ خيرَهُمُ تمسي وتصبـح فـوق مـــا تُمسي

تَّمت عليـــه لربِّـــه نِعمٌ تـزداد جـدتهـا مـع اللبس

من عترة طـــابت أرومتهـــا أهـل العفـاف ومنتهى القُـدس

متهـــللين على أسِـــرَّتهم ولـدى الهياج مصاعب شُمس (١)

إني لجـأت إليـــك من فَـزَع قـــد كان شرَّدني ومن لَبس

لمـــا استخرتُ الله مجتهـــداً يَّممتُ نحـوك رحلـة العَنْس (٢)

واخترتُ حِلمـك لاأجـاوزه حتى أُغيَّب في ثرى رمسي

كم قـد سريت إليـك مُـدَّرعـاً ليـلاً يمـوج كحـالـك النِّقس (٣)

إن راعني من هــاجس فـزَع كان التَّـوكل عنـــده تُرسي

مـــاذاك إلاَّ أنَّني رجـل أصبـــو إلى نفرٍ من الإنس

بيض أوانس لا قرون لهـــا يقتلن بـالتَّطـويـل والحبس

وأجـاذب الفتيـــان بينهم صفراء مثـل مُجاجـة الـورس (٤)

للمـاء في حـافـاتهـا حبب (٥) نظم كرقم صحـــائف الفُرس (٦)

والله يعلم في بنيتــــــه مـا أن أضعت إقامـة الْخَمْسِ (٧)

---

(١) مصاعب : جمع مصعب ، وهو من الإبل الذي تصعب مقاومته ، وشُمس : جمع أشمس ، وهو الآبي النافر الممتنع .

(٢) العنس : الناقة الصلبة .

(٣) النقس « بالكسر » : الحبر .

(٤) الورس : نبت أصفر .

(٥) الحبب : بالفتح ، تنضُّد الأسنان .

(٦) الرقم : الكتابة ، قال تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ، وقولهم : هو يرقم الماء أي بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم . [مختار الصحاح : ٢١٥] .

(٧) الخمس : أراد الصلوات الخمس المفروضة .

قال الرَّشيد : ومن تكون ؟

قال : علي بن الخليل ، الَّذي يقال إنَّه زنديق .

فقال الرَّشيد : أنت آمن ، وأمر له بخمسة آلاف درهم[1] . لأنَّه نفى عن نفسه الزَّندقة وأقرَّ بصلاته المكتوبة .

ومما يذكر أنَّ الرَّشيد لما ولي عام ١٧٠ هـ ، آمن مَن كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزَّنادقة منهم : يونس بن فروة ، ويزيد بن الفيض .

☆ ☆ ☆

وفي زمن الرشيد استقل إدريس بن عبد الله بإمارة بلاد تلمسان ، تحت راية الخلافة العبَّاسيَّة .

كما قامت فتنة بين النزارية واليمنية في الشَّام ، أطفأها جعفر البرمكي سنة ١٧٩ هـ[2] .

وخرج الْخَزَر في ثلمة أرمينية ، فقضى على تمردهم واعتداءاتهم على حدود المسلمين حازم بن خزيمة ، ويزيد بن مزيد ، عام ١٨٦ هـ[3] .

وفي سواد العراق قام ثروان بن يوسف ، وهزمه طوق بن مالك سنة ١٩١ هـ[4] .

وفي الشَّام قام أبو النداء ، فاستتابه يحيى بن معاذ سنة ١٩١ هـ[5] .

وخرجت الْخُرَّمِيَّة ببلاد أذربيجان ، فوجَّه إليهم الرَّشيد عبد الله بن

---

(١) زهرة الآداب : ٩١٠

(٢) البداية والنهاية : ١٠/١٧٣ ، والنجوم الزاهرة : ٢/٦٧

(٣) البداية والنهاية : ١٠/١٨٣ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٨ ، وتاريخ ابن الوردي : ١٠/٤٢٨

(٤) البداية والنهاية : ١٠/٢٠٦

(٥) المرجع السابق .

مالك بن الهيثم الخزامي سنة ١٩٢ هـ ، وكان قد غزاهم من قبل خزيمة بن حازم ، فأسر منهم الكثير[١] ، وفي السَّنة نفسها تحرك ثروان الحروري أيضاً .

وفي الشَّرق ، ولي علي بن عيسى بن ماهان في خراسان ، ولما ظهرت خيانته ، وسوء سياسته لأهل ولايته ، خلفه هرثمة بن أعين ، وهو قائد شجاع ، محنك حكيم ، ولما عزل الرشيد علي بن عيسى ، أرسل له كتاباً مع هرثمة فيه توبيخ وتقريع لظلمه الرعية ، ولمخالفته أمره في حسن السيرة[١] ، لأنَّه استصفى لنفسه أموالاً كبيرة ، وكتب إليه بخطِّ يده :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يا بن الزَّانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوَّهت باسمك ، وأوطأت سادةَ العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خولَكَ وأتباعك ؛ فكان جزائي أن خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتَّى عِثت في الأرض ، وظلمت الرَّعيَّة ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد ولَّيتُ هرثمة بن أعين مولايَ ثغر خُراسان ، وأمرته أن يشدَّ وطأته عليكَ وعلى ولدك وكُتَّابك وعمَّالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ، ولا حقّاً لمسلم ولا مُعاهد إلا أخذكم به ، حتَّى تردَّه إلى أهله ، فإن أبيتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمَّالك فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصبَّ عليكم السِّياط ، ويُحلَّ بكم ما يحل بمن نكثَ وغيَّر ، وبدَّل وخالف ، وظلم وتعدَّى وغشم ، انتقاماً لله عزَّ وجلَّ بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للَّتي لا شَوَى لها[٢] ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً[٣] .

---

(١) النجوم الزاهرة : ١٣٩/٢ ، والأخبار الطوال : ٣٩١ . والخُرَّمية : طائفة تنسب إلى بابَك الخُرَّمي وتدين بما تدين الباطنية أولاد المجوس الذين أولوا آيات القرآن ، وسنن النبي الكريم ، على موافقة أهوائهم .

(٢) لا بقاء لها ، [اللسان : شوا] .

(٣) الطَّبري : ٣٢٦/٨

وكتب الرشيد إلى هرثمة عهداً بخطِّه هذا نَصُّه :

« هذا ماعهد هارون الرَّشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاَّه ثَغْر خُراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ماهو بسبيله ، فيحل حلالَهُ ، ويحرّم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أُولي الفقه في دين الله وأُولي العلم بكتاب الله . أو يرده إلى إمامه ليريَه الله عزّ وجلّ فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعمَّاله وكُتَّابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويُحلَّ بهم سطوته ويستخرج منهم كلَّ مال يصح عليهم من خَراج أمير المؤمنين ، وفَيء المسلمين ، فإذا استنظف ماعندهم وقِبَلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحقّ كلّ ذي حقٍّ حتّى يردُّوه إليهم ، فإن ثبت قبَلهم حقوق لأمير المؤمنين ، وحقوق المسلمين ، فدافَعوا بها وجحدوها أن يصبَّ عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتّى يبلغ بهم الحال الّتي إن تخطَّاها بأدنى أدب ، تلفتْ أنفسهم ، وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حقّ كل ذي حق ، أشخِصْهم كما تشخص العصاة من خُشونة الوطاء ، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس ، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله ، فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك ، فإنِّي آثرتُ الله وديني على هوايَ وإرادتي ، فكذلك فليكن عملُك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبّر في عمال الكُوَر الَّذين تمرُّ بهم في صعودك مالا يستوحشون معه إلى أمْر يريبهم ، وظنٍّ يرعبُهم ، وابسُط من آمال أهل ذلك الثّغر ، ومن أمانهم وعذرهم ، ثمَّ اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ، ومَنْ ولاَّك الله أمره إن شاء الله ، هذا عهدي وكتابي بخطِّي ، وأنا أُشهد الله وملائكته وحملةَ عرشه ، وسكان سمواته ، وكفى بالله شهيداً .

وكتب إليه أمير المؤمنين بخط يده ، ولم يحضره إلاَّ الله وملائكته »[(١)] .

(١) كتاب الرَّشيد إلى هرثمة في الطبري : ٣٣٢/٨ ، ونرى فيه : إنصاف العامة والخاصة ، والأخذ لهم بحقوقهم ، وتحري أقصى مواضع الحق للمسلم وغير المسلم .

ولما حمل هرثمة علياً إلى الرَّشيد ، كتب إليه كتاباً يخبره ما صنع ، ونسخته : « بسم الله الرّحمن الرّحيم ، أمّا بعد ، فإن الله عزَّ وجلَّ لم يزل يبلي أمير المؤمنين في كلِّ ماقلّده من خلافته ، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجمل البلاء وأكمله ، ويعرِّفه في كلِّ ما حضره ونأى عنه من خاصِّ أُموره وعامّها ، ولطيفها وجليلها أتمّ الكفاية وأحسن الولاية ، ويعطيه في ذلك كلِّه أفضل الأُمنيَّة ، ويبلغه فيه أقصى غاية الهمّة ، امتناناً منه عليه ، وحفظاً لما جعل إليه ، مما تكفَّل بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته ، فيستتمّ[1] الله أحسن ما عوّده وعوّدنا من الكفاية في كل ما يؤدينا إليه ، ونسأله توفيقنا لما نقضي به المفتَرَض من حقِّه في الوقوف عند أمره ، والاقتصار على رأيه .

ولم أزل ـ أعزَّ الله أمير المؤمنين ـ مذ فصلت عن معسكر أمير المؤمنين ممتثلاً ماأمرني به فيما أنهضني له ، لاأُجاوز ذلك ولا أتعدّاه إلى غيره ، ولا أتعرَّف اليُمْن والبركة إلا في امتثاله ، إلى أن حللتُ أوائل خُراسان ، صائناً للأمر الَّذي أمرني أمير المؤمنين بصيانته وستره ، لاأُفضي ذلك إلى خاصِّي ولا إلى عامّيٍّ ، ودبَّرتُ في مكاتبة أهل الشاش وفَرْغانة وخزلها[2] عن الخائن ، وقطع طمعه وطمع مَن قِبَله عنها ، ومكاتبة مَنْ ببَلْخ بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين وفسّرت له ، فلما نزلت نيسابور عملتُ في أمر الكُور التي اجتزت عليها بتولية مَن وليت عليها ، قبل مجاوزتي إياها ، كجرجان ونيسابور ونَسَا وسَرَخْس ، ولم آلُ الاحتياط في ذلك ، واختيار الكفاة وأهل الأمانة والصحة من ثقات أصحابي ، وتقدّمت إليهم في ستر الأمر وكتمانه ، وأخذت عليهم بذلك أيمان البَيْعة ، ودفعت إلى كلِّ رجل منهم عهدَه بولايته ، وأمرتهم بالمسير إلى كور أعمالهم على أخفى الحالات وأسترها ، والتَّشبُّه بالمجتازين في وُرودهم الكُور ومقامهم بها إلى الوقت الَّذي

---

(١) استتمّ النعمة : سأل إتمامها ، والمستتم الّذي يطلب التّمة [اللّسان : تمم] .

(٢) خزلها عن الخائن : أي إبعادها عنه .

سَمَّيتُ لهم ، وهو اليوم الَّذي قدّرتُ فيه دخولي إلى مَرو ، والتقائي وعلي بن عيسى ، وعملت في استكفائي إسماعيل بن حفص بن مصعب أمرَ جُرجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفذ أولئك العمال لأمري ، وقام كلٌّ رجل منهم في الوقت الَّذي وُقِّتَ له بضبط عمله وإحكام ناحيته ، وكفى الله أمير المؤمنين المؤنة في ذلك بلطيف صنعه .

ولما صرتُ من مدينة مرو على منزل ، اخترت عِدّةً من ثقات أصحابي وكتبت بتسمية ولد علي بن عيسى وكتَّابه وأهل بيته وغيرهم رقاعاً ، ودفعت إلى كلِّ رجل منهم رُقعة باسم مَنْ وكَّلته بحفظه في دخولي ، ولم آمن لو قصَّرت في ذلك وأخَّرته أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره إلى التغيب والانتشار ، فعملوا بذلك ، ورحلتُ عن موضعي إلى مدينة مرو ، فلما صرت منها على ميلين تلقَّاني علي بن عيسى في وَلَدِه وأهل بيته وقوّاده ، فلقيته بأحسن لقاء ، وآنسته ، وبلغتُ من توقيره وتعظيمه والتماس النُّزول إليه أوّل ما بصرت به ما ازداد به أُنساً وثقة ، إلى ما كان رَكن إليه قبل ذلك ، مما كان يأتيه من كتبي ، فإنَّها لم تنقطع عنه بالتَّعظيم والإجلال منِّي له والالتماس ، لإلقاء سوء الظن عنه ، لئلا يسبق إلى قلبه أمر ينقض به ما دبَّر أمير المؤمنين في أمره ، وأمرني به في ذلك ، وكان الله تبارك وتعالى هو المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمر فيه إلى أن ضمَّني وإياه مجلسه ، وصرت إلى الأكل معه ، فلمَّا فرغنا من ذلك بدأني يسألني المصيرَ إلى منزل كان ارتاده لي ، فأعلمته ما معي من الأُمور الَّتي لا تحتمل تأخير المناظرة فيها ، ثم دفع إليه رجاء الخادم كتاب أمير المؤمنين وأبلغه رسالَته ، فعلم عند ذلك أن قد حلَّ به الأمر الَّذي جناه على نفسه ، وكسبته يداه ، من سخط أمير المؤمنين ، وتغير رأيه بخلافه أمره وتعدّيه سيرته .

ثم صرت إلى التوكيل به ، ومضيت إلى المسجد الجامع ، فبسطت آمال الناس ممن حضر ، وافتتحت القول بما حمَّلني أمير المؤمنين إليهم وأعلمتهم إعظامَ

أمير المؤمنين ما أتاه ، ووضح عنده من سوء سيرة علي ، وما أمرني به فيه وفي عمّاله وأعوانه ، وإني بالغٌ من ذلك ومن إنصاف العامّة والخاصّة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم ، وأمرت بقراءة عهدي عليهم ، وأعلمتهم أنَّ ذلك مثالي وإمامي ، وأنّي به أقتدي ، وعليه أحتذي ، فمتى زلتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسي ، وأحللت بها ما يحلّ بمن خالف رأي أمير المؤمنين وأمرَه ، فأظهروا السُّرور بذلك والاستبشار ، وعلتْ بالتَّكبير والتَّهليل أصواتُهم ، وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء .

ثم انكفأت إلى المجلس الَّذي كان علي بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتّابه وعمّاله ، والاستيثاق منهم جميعاً ، وأمرتهم بالخروج إلي من الأموال الَّتي احتجنوها من أموال أمير المؤمنين وفيء المسلمين ، وإعفائي بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، وناديت في أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم ، فحملوا إليَّ إلى أن كتبت إلى أمير المؤمنين صدراً صالحاً من الوَرِق والعيْن[1] ، وأرجو أن يعين الله على استيفاء ما قبلهم ، واستنظاف ما وراء ظهورهم ، ويسهّل الله من ذلك أفضلَ ما لم يزل يعوّده أمير المؤمنين من الصُّنع في مثله من الأُمور الَّتي يعنى بها إن شاء الله تعالى .

ولم أدعْ عند قدومي مَرْو التقدُّم في توجيه الرُّسل وإنفاذ الكتب البالغة في الإعذار والإنذار ، والتَّبصير والإرشاد ، إلى رافع[2] ومَن قِبَله من أهل سمرقند ، وإلى مَن ببلْخ ، على حسن ظنّي بهم في الإجابة ، ولزوم الطَّاعة والاستقامة ، ومهما تنصرف به رسلي إلي ياأمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم ، أعمل على حسبه من أمرهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حقّه وصدقه ،

---

(١) الورق : الدراهم المضروبة ، والعين الدينار .

(٢) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار .

وأرجو أن يعرّف الله أميرَ المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفايته ، ما لم تزل عادته جاريةً به عنده ، بمنّه وطوله وقوّته والسّلام[1] .

فأجابه الرّشيد :

« بسم الله الرّحمن الرّحيم ، أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنينَ كتابُك بقدومك مَرْو في اليوم الّذي سمّيت ، وعلى الحال الّتي وصفت وما فسّرت ، وما كنت قدّمت من الحيل قبل ورودك إياها ، وعملت به في أمر الكُوَر الّتي سمّيت ، وتولية مَنْ ولّيت قبل نفوذك عنها ، ولطّفت له من الأمر الّذي استجمع لك به ماأردت من أمر الخائن علي بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار في يدك من عمّاله وأصحاب أعماله واحتذائك في ذلك كلّه ما كان أمير المؤمنين مثّل لك ووقفَك عليه ، وفهم أمير المؤمنين كلّ ماكتبتَ به ، وحمد الله على ذلك كثيراً ، وعلى تسديده إياك وما أعانك به من توفيقه ، حتّى بلغتَ إرادة أمير المؤمنين وأدركت طلبتَه ، وأحسنت ماكان يُحب بك وعلى يديك إحكامَه ، مما كان اشتدّ به اعتناؤه ، ولجّ به اهتمامه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك ، فلا أعدم الله أمير المؤمنين أحسنَ ماعرّفه منك في كلّ ماأهاب بك إليه ، واعتمد بك عليه .

وأمير المؤمنين يأمُرك أن تزداد جدّاً واجتهاداً فيما أمرك به من تتبّع أموال الخائن علي بن عيسى وولده وكتّابه وعمّاله ووكلائه وجهابذته ، والنّظر فيما اختانوا به أميرَ المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرّعية في أموالهم ، وتتبّع ذلك واستخراجه من مظانّه ومواضعه ، الّتي صارت إليه ، ومن أيدي أصحاب الودائع الّتي استودعها إياهم ، واستعمال اللّين والشّدّة في ذلك كلّه ، حتّى تصير إلى استنظاف ماوراء ظهورهم ، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقية ، وفي إنصاف النّاس منهم في حقوقهم ومظالمهم ، حتّى لاتبقي لمتظلم منهم قِبَلهم ظلامة إلاّ

---

(١) الطّبري : ٣٣٥/٨

استقضيت ذلك له ، وحملته وإياهم على الحقّ والعدل فيها ، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك ، فأشخِص الخائن وولدَه وأهلَ بيته وكتّابَه وعمّاله إلى أمير المؤمنين في وثاق ، وعلى الحال الّتي استحقّوها من التّغيير والتّنكيل بما كسبت أيديهم ، وما الله بظلامٍ للعبيد .

ثم اعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى سمرقند ، ومحاولة ماقِبل خامل ، ومَن كان على رأْيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كُور ماوراء النهر وطُخارستان بالدُّعاء إلى الفيئة والمراجعة ، وبسط أمانات أمير المؤمنين الّتي حمّلكها إليهم ، فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ماهو أمْلَكَ بهم ، وفرّقوا جموعَهم ، فهو مايحبُّ أمير المؤمنين أن يعاملَهم به من العفو عنهم والإقامة لهم ؛ إذ كانوا رعيَّته ، وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى طَلبتهم ، وآمن رَوْعهم ، وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته ، وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم ، وإن خالفوا ماظنَّ أمير المؤمنين ، فحاكمهم إلى الله إذ طَغَوْا وبَغَوْا ، وكرهوا العافية وردُّوها ، فإنّ أمير المؤمنين قد قضى ماعليه ، فغيَّر ونكَّل ، وعزل واستبدلَ ، وعفا عمّن أحدث ، وصفح عمن اجترم ، وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن آثروه ، وعنود[1] إن أظهروه ، وكفى بالله شهيداً ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم ، عليه يتوكل وإليه ينيب والسلام »[2] .

إنها كتب تنطق بالإيمان ، والالتزام الكامل بالإسلام ، مع تطبيق عملي لشرع الله عزّ وجلّ في كل الأعمال في دولة الرّشيد .

وظهر من الخوارج أيام الرّشيد ، الوليد بن طريف الشّاري الشَّيباني في نواحي نُصيبين[3] ، سنة /١٧٨ هـ/ ، قضى عليه يزيد بن مزيد الشَّيباني ، وهو

(١) عند عن الطريق عنودا ، أي مال .
(٢) الطبري : ٣٣٦/٨ و ٣٣٧
(٣) نُصَيبين : مدينة عامرة شمال الجزيرة ، بينها وبين القامشلي حالياً مئات الأمتار فقط .

ابن أخي معن بن زائدة ، فقضى عليه سنة /١٧٩ هـ/ ، وقد رثته أُختـه الفـارعـة الشَّيبانيّة بأبيات منها :

فيـا شجرَ الخـابُورِ مـالـك مورقـاً ... كأنّـك لم تجـزعْ على ابنِ طريفِ
فتىً لا يحب الـــزّادَ إلاّ من تقى ... ولا المـالَ إلاّ من قنــا وسيــوفِ
فـإن يـك أوداه يزيـد بن مزْيَـد ... فرُبَّ زحـوف لفهـا بـزحـوفِ
عليـه سـلامُ الله وقْفـاً فـإنّني ... أرى الموتَ وقّـاعاً بكل شريفِ(١)

☆ ☆ ☆

وظهر في الموصل عـام /١٨٠ هـ/ العطّـاف بن سفيـان الأزدي ، فخرج إليـه الرَّشيد ، فانسحب العطّاف بأربعة آلاف إلى أرمينية .

ولما وصل الرَّشيـد الموصل ، همَّ أن يبطش بـأهلهـا الموالين للعطّـاف ، ولكن العبّاس بن الفضل ، وكان فقيهاً محدِّثـاً خرج إلى الرَّشيـد مع موسى بن المهـاجر ، وكان من أصحاب الثَّوري ومحدثاً فقيهاً أيضاً ، وخرج أيضاً سعد الفقيـه ، وعتيق الفقيه وغيرهم .. فتوسطوا في الأمر مع أبي يوسف القاضي ، فـأشـار عليهم إذا جنَّ اللَّيل أن يصعد النَّاس على سطوحهم ، ويجهروا بـالأذان لعشـاء الآخرة ، ففعلوا ذلك ، وسمع هارون الرَّشيد كثرة الأذان والضَّجة ، فقال لأبي يوسـف : مـاهـذا ؟ قـال : أذان يـاأمير المؤمنين ، قـال : ويحـك ، هؤلاء مـؤذّنـون ؟ قـال : نعم يـاأمير المؤمنين ، القوم مسلمون ، وفيهم أهل الصَّلاح وقُرَّاء القرآن(٢) ، وأهـل علم وفقه .

---

(١) راجع الأبيات كاملة في « تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة » .

(٢) لاحظ أنَّ الرَّشيد أقسم على البطش بهم عندما علم أنّهم مارقون ، ولما تـأكَّـد من صلاحهم وعلمهم وفقههم تركهم وشأنهم ، فلم يهدر دم مسلم أو غير مسلم إلاَّ بحق وتحقيق وإدانة .

فاكتفى الرَّشيد بهدم سور المدينة ، ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السُّور فهو آمن ، فهدم النَّاس سورهم بأيديهم .

ونادى المنادي : أمِنَ الأسود والأبيض إلاّ العطَّاف بن سفيان ، وعبد العزيز بن معاوية ، والمعافى بن شريح ، وبيرويه الرَّحبي ، ويعلى الثَّقفي .

ولما أُلقي القبض على « المعافى » ، قال له الرَّشيد : أنت المعافى ؟ قال : إنك المعافى ياأمير المؤمنين ، وأنا المبتلى بذنوبي ، قال : هاتِ بيرويه ومنتصر ، قال : ماأقدر عليهما ، قال الرَّشيد : برئت من المهدي ومن قرابتي لرسول الله ﷺ إن لم أقتلك . قال : ياأمير المؤمنين ، أنا شيخ وفي رقبتي وصايا وأطفال ، فتمهلني حتَّى أخرج الوصايا الَّتي في عنقي وأوصي ، قال الرَّشيد : أمهلتك إلى اللَّيل .

قال المعافى : فوجّهت إلى اليمانية - وسطاء وشفعاء لدى الخليفة - الَّذين معه ، الحسن بن قحطبة ، وعبد الله بن مالك الخزاعي ، وحمزة بن مالك الخزاعي وغيرهم .. فركبوا إليه فاستوهبوني منه ، قال : فلا بد من حبسه سنة ، فخيّروني أين أُحبس ، فاخترت الحبس بالموصل وأن أُطلق بعد سنة بغير استئمار ، فأمر بذلك .

وحدّث عبد الله بن كردويه عن محمد بن يزيد بن عُلبك قال : « إنَّا كنّا مع المِعافى وهو يخاطب الرَّشيد ونحن نرعد من كلامه »[1] .

☆ ☆ ☆

(١) تاريخ الموصل : ٢٨٠ ، الأخبار الطوال : ٣٩٠ ، تاريخ ابن الوردي : ٢٨٠/١

ولاة الرَّشيد وقُضَاتُه

تخيَّر الرَّشيد ولاته وقضاته ،
وتتبَّع أخبارهم !

إنّ ولع الرَّشيد بالعلم لم يلهه عن مهام الملك ، فقد كان يشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف شؤون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه[(١)] .

ولى هارون الرَّشيد موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، « الأمير أبا عيسى العبَّاس الهاشمي » إمرة مصر على الصلاة ، بعد عزل علي بن سليمان عنها ، ومن صفات هذا الأمير : كان عاقلاً جواداً مُمدحاً ، ولي الحرمين لأبي جعفر المنصور والمهدي مدة طويلة ، ثم ولي اليمن للمهدي أيضاً ، ثم ولي مصر لهارون الرَّشيد[(٢)] ، وكان فيه رفق بالرَّعية وتواضع .

جلس يوماً بميدان مصر ، فأطال النَّظر في النِّيل ونواحيه ، فقيل له : ما يرى الأمير ؟ فقال : أرى ميدان رهان وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، ودور خيل ، وجبَّان أموات ، ونهراً عجاجاً ، وأرض زرع ، ومرعى ماشية ، ومرتع خيل ، ومصايد بحر ، وقانص وحش ، وملاَّح سفينة ، وحادي إبل ، ومفازة رمل ، وسهلاً وجبلاً في أقل من ميلٍ في ميلٍ .

---

(١) قصة الحضارة : ٩٢/١٣

(٢) ولقد همَّ الرَّشيد بوصل البحرين الأحمر (القُلْزُم) بالمتوسط - عن طريق النيل - ولكن لم يجد تشجيعاً من وزيره الذي قال : عندها تهدد سفن الرُّوم مكة والمدينة ، [سير أعلام النبلاء : ٢٨٩/٩] .

قيل له : « لله درّه فيما وصف من كلام كثرت معانيه ، وقلّ لفظه »[1] .

ولما ولي مسلمة بن يحيي على مصر ، لم تطل مدته ، لما حدث في ولايته من أمور وفتن ، فعزله الرَّشيد[2] . وولى محمد بن زهير ، ثم عزله بعد خمسة أشهر تنقص أيَّاماً ، وأحضره إليه ، فزجره وأنَّبه وعيّن من بعده داود بن يزيد[3] للصَّلاة ، وقدم معه إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي على الخراج ، فأمن النَّاس ، وسكن الحال .

وإبراهيم بن صالح هذا وُصِفَ في كتب التَّاريخ بما يلي : « وكان خيّراً ديِّناً ممدَّحاً »[4] .

وفد عليه عبّاد بن عبّاد الخوّاص مرة ، فقال له إبراهيم : عظني ، فقال عبّاد : إنّ أعمال الأحياء تُعرَض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ماذا يعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتَّى سالت دموعه على لحيته ، رحمه الله تعالى[5] .

وموسى بن عيسى ، عاد إلى ولاية مصر بعد إبراهيم بن صالح أيضاً ، وكما يروي التَّاريخ : « أخذ في إصلاح أمور مصر ، وأصلح بين قيس ويمن » سنة ١٧٩ هـ[6] .

لما كان الفضل بن يحيي والياً على خراسان ، كتب صاحبُ البريد[7] إلى

---

(١) النجوم الزاهرة : ٦٧/٢

(٢) قدم مصر في رمضان ١٧٢ هـ ، وعزل في شعبان ١٧٣ هـ .

(٣) في ١٤ المحرم ١٧٤ هـ .

(٤) النجوم الزاهرة : ٨٣/٢ و ٨٤

(٥) النجوم الزاهرة : ٨٤/٢

(٦) النجوم الزاهرة : ٩٨/٢

(٧) صاحب الخَبَر ، أو صاحب البريد : قلم الاستخبارات ، عين الخليفة .

الرَّشيد كتاباً يذكر فيه : أنَّ الفضل تشاغل بالصَّيد واللَّذات عن النَّظر في أُمور الرَّعيَّة ، فلما قرأه الرَّشيد رمى به ليحي ، وقال له : ياأبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إلى الفضل كتاباً يردعه عن مثل هذا ، فمدَّ يحي يده إلى دواة الرَّشيد ، وكتب إلى ابنه على ظهر الكتاب الَّذي ورد من صاحب البريد :

« حفظكَ اللهُ يابني وأمتعَ بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ماأنتَ عليه من التَّشاغل بالصَّيد ومداومةِ اللَّذات ، عن النَّظر في أُمور الرَّعيَّة ماأنكره ، فعاوِدْ ماهو أزينُ بك ، فإنَّه من عاد إلى ما يَزِينُه أو يَشِينه لم يعرفه أهل دهره إلا به ، والسَّلام » ، وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصَبْ نهاراً في طِلابِ العُلا — واْصبِرْ على فَقْدِ لقاء الحبيبْ
حتَّى إذا اللَّيلُ بدا مُقْبِلاً — وغابَ فيه عنك وجهُ الرَّقيب[1]
فبادرِ الليلَ[2] بما تشتهي — فإنَّما الليلُ نهارُ الأريب
كم من فتىً تحسبُه ناسِكاً — يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليه الليلُ أستارَه — فباتَ في لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذةُ الأحْمَقِ مكشوفَةٌ — يَسعى بها كلُّ عدوٍّ مريب[3]

ومن ولاة الرَّشيد :

على السِّند ، سالم اليونسي ، وذكر اليعقوبي : « فأحسن السِّيرة »[4] ، ثم إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي « وكان عفيفاً »[5] ، وفي وفيات الأعيان : ٣٠٥/٢ : وولي السِّند أيضاً أبو حاتم روح بن حاتم الأزدي ، من الكرماء الأجواد ، وأخوه يزيد والياً على إفريقية ـ أي تونس حالياً ـ ولما توفي يزيد يوم

(١) في وفيات الأعيان ٢٨/٤ : « واستَتَرتْ فيه وجوهُ العيوب » .

(٢) في وفيات الأعيان ٢٨/٤ : فكابد اللَّيلَ .

(٣) في وفيات الأعيان ٢٨/٤ : ... عدو رقيب .

(٤ و٥) تاريخ اليعقوبي : ٤٠٩/٢

الثلاثاء ١٨ رمضان سنة ١٧٠ هـ بمدينة القيروان ، قال أهل إفريقية : ما أبعد ما يكون بين قَبْرَيْ هذين الأخوين ، فإنّ أخاه بالسّند وهذا هاهنا ، فاتّفق أن الرّشيد عزل روحاً عن السّند وسيّره إلى موضع أخيه يزيد ، فدخل إلى إفريقية أوّل رجب سنة ١٧١ هـ ، ولم يزل والياً عليها إلى أن توفي بها سنة ١٧٤ هـ ، ودفن في قبر أخيه يزيد ، فعجب النّاس من هذا الاتّفاق بعد ذلك التّباعد .

وعلى اليمن : العباس بن سعيد ، فضج منه النّاس ، فصرفه الرّشيد ، وعيّن بدلاً منه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإمام ، ثم صرفه ، وعيّن عبد الله بن مصعب ، ثم صرفه وعيّن أحمد بن إسماعيل بن علي ، ثم صرفه وولى حماداً البربري ، ثم عبد الله بن مالك « فلم يزل في البلد محمود السّيرة ، جميل المذهب حتّى توفي هارون »[1] .

لقد بدّل الرّشيد والياً بآخر مرات ومرات ، حتّى أوصل إلى اليمن من هو محمود السّيرة ، جميل المعشر .. وهذه من سُنّة الرّشيد في كلّ الأمصار . لقد تخيّر ولاته ، وجباته ، وقضاته .. ليأمن النّاس ، وليعيشوا في عدل ورخاء . ولم يكن منقطعاً عن أخبارهم ، لقد كان يحاسبهم ، والشّكوى الصّحيحة من أي فرد من أفراد الأُمّة ، على والي البلد ، تقتضي العزل .

وعلى أرمينية : كان والي الرّشيد خزيمة بن حازم التّميمي فضبطها وصلحت البلاد ، وأعطى أهلها الطّاعة ، ثم ولي يزيد بن مزيد بن زائدة الشّيباني « فضبط البلد أشد ضبط »[2] .

ولما انتفضت أرمينية ، قال الرّشيد « ماأرى لها إلاّ الحرشي »[3] ، فاستقامت له لحزمه ، وجمع الرّشيد ليزيد بن مزيد في فترة أرمينية وأذربيجان ، « فلما قدم تلاءمت النّاس وأصلح البلد »[4] .

(١ و ٢)تاريخ اليعقوبي : ٤٢٦/٢

(٣ و ٤)تاريخ اليعقوبي : ٤٢٨/٢

ولما حجَّ الرَّشيد سنة ست وثمانين ومئة ، دخل مكَّة وعديله يحي بن خالد ، فانبرى إليه العُمري فقال : يـاأمير المؤمنين ! قف حتَّى أُكلمك ! فقـال : أرسلوا زمام النَّاقة ، فـأرسلوه فوقفت فكأنَّما أُوتـدت [١] ، فقـال : أقول ؟ قـال الرَّشيـد : قُلْ ، فقال : اعزل عنّـا إسماعيل بن القـاسم ، قـال الرَّشيـد : ولِمَ ؟ قـال : لأنَّـه يقبل الرَّشوة ، ويُطيل النَّشوة ، ويضرب بـالقسوة ، قـال الرَّشيـد : قـد عـزلنـاه عنك . ثم التفت إلى يحي فقال : أعنـدك مثل هـذه البـديهـة ؟ فقـال يحي : إنَّـه ليجب أن يُحْسَنَ إليـه ، فقـال الرَّشيـد : إذا عـزلنـا عنـه من يريـد عـزلـه فقـد كافأناه [٢] .

وكان على دمشق الحسن بن عمران ، قال له الرَّشيد بعد أن أحضره يرسف في قيوده : وليتك دمشق وهي جنة مونقة ، تحيط بها غُـدُر كاللجين [٣] ، فتكِف على رياض كالزَّرابي ، وكانت بيوت أموال فما برح التعـدي ، حتَّى تركتهـا أجردَ من الصَّخر ، وأوحش من القفر !

فقال : ياأمير المؤمنين ، مـاقصـدت لغير التَّوفيق من جهتـه ، ولكنِّي وليت أقواماً ثقُل على أعناقهم الحق ، فتفرغوا في ميدان التعدي ، ورأوا أن المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار السُّلطان ، وأنوه بالشنعة فلا جَرَم أن موجِدَةَ أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من مساءتي [٤] !

وهذا مثال أيضاً لمحاسبة الرَّشيد لولاته ، ومعاقبة المسيء منهم . وهـذا مثـال آخر :

---

(١) أوتد الوتد : ثبته .

(٢) زهرة الآداب وثمرة الألباب : ٩٩٠

(٣) زهرة الآداب وثمرة الألباب : ٧١٩ ، والغُدُر : جمع غدير ، واللجين : الفضة .

(٤) قالوا : وهذا أجزلُ كلام سُمع لخائف ، وهذا ماكنا نسمعه عن الحكماء : « أفضل الأشياء بديهة أمْنٍ وردت في مقام خوف » .

سخط الرّشيد على عبد الملك بن صالح ـ وكان والياً على الموصل ـ فدخل عليه فقال : أكفر بالنِّعمة ، وجحود الحرِّيد الْمِنَّة ؟ قال : ياأمير المؤمنين لقد بؤت إذاً بالنَّدم ، وتعرَّضت لاستجلاب النقم ، وما ذاك إلاَّ بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة ، وتقدم الولاية ، إنَّك ياأمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أُمَّته ، وأمينه على عترته ، لك عليها فرض الطاعة ، وأداء النَّصيحة ، ولها عليك العدل في حكمها ، والغفراء لذنوبها ، فقال له الرَّشيد : أتضع لي من لسانك ، وترفع لي من جناحك ؟ هذا كتاب « أُمامَة » بخبر فعلك ، وفساد نيّتك فاسمع كلامه ، فقال عبد الملك : أعطاك مما ليس عنده ، ولعله لا يقدر أن يعضهني[1] ، ولا يبهتني[2] بما لم يعرفه مني ، فأحضر أُمامة ، فقال له الرَّشيد : تكلم غير هائب ولا خائف . فقال : أقول إنَّه قد عزم على الغدر بك والخلاف عليك .

قال عبد الملك : كيف لاتكذب عليَّ من خلفي وأنت تبهتني في وجهي .

قال الرَّشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن أخبرني بغدرك وفساد نيَّتك ، ولو أردت أن أحتجَّ عليك بحجّة لم أجد أعدل عليك من هذين ، فبم تدفعهما عنك ؟ فأجاب عبد الملك : فإنَّ عبد الرَّحمن هو بين مأمور أو عاق مجنون ، فإن كان مأموراً فمعذرة ، وإن كان عاقّاً ففاجر كفور ، أخبر الله بعداوته ، وحذّر منها ، حيث يقول تبارك اسمه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ، [التَّغابن : ١٤/٦٤] ، فنهض الرَّشيد وهو يقول : أما أمرك فقد وضح ولكني لاأعجل عليك حتّى أعلم الَّذي يرضي الله فيك ، فإنّه الحكم بيني وبينك .

---

(١) عضه عضها ، بفتح العين وسكون الضاد أو فتحها : كذّب ونمّ .

(٢) بهته بهتا ، بفتح الباء وسكون الهاء أو فتحها ، وبهتاناً : قال عليه مالم يفعل .

قال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وأمير المؤمنين حاكماً ، فإنّي أعلم أنّه يؤثر كتاب الله على هواه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فدخل عبد الملك ، فسلم ، فلم يرد عليه الرّشيد ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوم أحتج فيه ولا أُجاذب منازعاً .

قال الرّشيد : لِمَ ؟ قال : لأنّ أوّله جرى على غير السُّنّة ، فإنّي أخاف آخره . قال الرّشيد : وما ذلك ؟ قال : لم ترد عليّ السّلام ، انصف نصفة العوام . قال الرّشيد : السّلام عليك اقتداء بالسُّنّة ، وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتّحيّة ، ثمّ التفت إلى سليمان بن أبي جعفر فقال : أُريد حياته ويريد قتلي ، ثم قال : والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع[١] .

من قُضاة الرّشيد[٢] :

كان على المدينة المنوّرة ثمّ مكّة المكرّمة : عبد الله بن محمّد بن عمران ، ثمّ جاء سعيد بن سليمان بن نوفل على المدينة المنوّرة ، ثمّ خلفه أبو البَختري وَهب بن وهب ، الّذي أراد الدُّخول على الرّشيد ؛ فخرج خادم الرّشيد وقال له : يقول لك أمير المؤمنين هاتِ طويلتك[٣] ، فأخذها فأدخلها ثم أخرجها وقد قطع منها أربعة أصابع ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين لا تَعْتَد في زِيّك .

وتَعاوَر القضاء في البَصْرة ، كلٌّ من : عمر بن عثمان[٤] ، ومعاذ بن معاذ ،

---

(١) ورد النّصّ كاملاً في بحث ثقافة الرّشيد .

(٢) انظر : أخبار القضاة ، لمحمّد بن خلف بن حيّان المعروف بوكيع .

(٣) الطّويلة : قلنسوة طويلة عالية ، وكان هذا النوع خاصّاً بالأمراء والقضاة كما تدلّ على ذلك عبارة للبيهقي في كتاب : المحاسن والمساوئ ، وفي كتاب (التّاج) للجاحظ : « كان الحجّاج بن يوسف إذا وضع على رأسه طويلة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثله » .

(٤) وعندما حجّ استخلف على البَصْرة معاوية بن عبد الكريم الضّال ، (ضلّ وهو صبي فسُمّي الضّال) .

وعمر بن حبيب العدوي ، « لم يكن قاضٍ أهيب منه » ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ، وعبد الله بن سوار بن عبد الله بن قدامة ، « ذوعقل وفَهْم ، كان يشاور ، فلم يُرَ من القضاة أحد هو أصح سجلات منه ، فلم يكن ينفِّذ شيئاً إلاَّ بمشورة » .

وكان على الكوفة : إسماعيل بن حماد .

وعلى الحيرة : القاسم بن معن ، « لما قدم الرَّشيد الحيرة ، أقام أربعين يوماً ، فلم يأته القاسم بن معن ، فقال له الفضل : ياأمير المؤمنين ، قدمت منذ أربعين يوماً ، ولم يبقَ أحد من أشرافها وقضاتها إلاَّ وقف عند بابك ، إلاَّ هذا القاضي ، قال : ماأعرفتني أي شيء تريد ؟! تريد أن أعزله ، لا والله لاأعزله » .

وعلى بغداد : سعيد بن عبد الرحمن الجمحى ، والحسين بن الحسن بن عطيَّة العوفي ، « وعندما هرم تقدَّمت منه امرأة فجعلت تدَّعي على خصمها ويستفهمها ، فلما أكثر قالت له : ياشيخ ، طالت لحيتك ، وعظُمت غفلتك ، والله ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك ، فكتب بها صاحب الخبر ، إلى الرَّشيد ، فصرفه .

وكانت السُّلطة التَّنفيذيَّة ملزمة بتنفيذ أحكام السُّلطة القضائيَّة :

قال الرَّشيد لإبراهيم بن عثمان : صر إلى باب عيسى بن جعفر ، فاختم أبوابه كلَّها ، ولا تخرجن أحداً منها ، ولا يدخل حتَّى يخرج إلى الرجل من حقِّه أو يصير إلى الحاكم ، فأحاط إبراهيم بداره خمسين فارساً ، وغلقت أبوابه ، فظن عيسى أنَّ الرَّشيد يريد به سوءاً ، فأخبره بخبر القاضي (علي بن ظبيان العبسي) ، فأحضر خمس مئة ألف من ساعته ، وأمر أن تدفع إلى الرَّجل ، فجاء إبراهيم فأخبر الرَّشيد ، فقال : إذا قبض الرَّجل ماله ، فَتَحْتَ أبوابَهُ .

☆ ☆ ☆

وجيء بعبد الله بن إدريس ، وحفص بن غياث ، ووكيع بن الجرَّاح إلى هارون الرَّشيد يولِّيهم القضاء ، فأمَّا ابن إدريس ، فدخل يمشي مشية المفلوج ، ثمَّ قال : السَّلام عليكم ، وطرح نفسه ، فقال هارون : ليس في هذا فضل ، وأخرَجَه .

وأمَّا وكيع ، فإنَّه قال له : تلي لي القضاء ، قال : ياأمير المؤمنين ، وأشار بسبَّابته إلى عينه : ماأبصرت بها منذ سنة ، فظنّ الرَّشيد أنَّه يعني عينه ، وإنَّما عنى وكيع سبَّابته . فقال هذا عذر[1] .

وأمَّا حفص بن غياث فإنَّه قال له : عليَّ دين ، ولي عيال ، فإنْ كفيتني وأعفيتني وإلاَّ ولِّيت .

قال الرَّشيد : بلى ، فولاه القضاء .

ولذلك قيل : أهل الكوفة اليوم بخير : أميرهم داود بن عيسى وقاضيهم حفص بن غياث ، ومُحْتَسِبُهم[2] حفص الدَّورقي .

حفص بن غياث القاضي[3] :

باع رجل من أهل خُراسان جِمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي ، وكيل أُم جعفر ، فمطله ثمنها وحبسه عن سفره ، وطال ذلك على الرَّجل ، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره ، فقال له : اذهب إليه فقل له : أعطني

(١) من شُرُوط القُضاة : سلامة السَّمع والبصر والنُّطق ، ليسأل الخصوم ، ويستمع إلى أقوالهم ، ويرى ما يصنعون بحضرته .

(٢) الْحِسْبَةُ : أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله . وهي تتعلّق بالنِّظام العام والآداب ، ومراقبة الأسواق والتُّجار وأرباب الْحِرَف ، يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومصنوعاتهم ، ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصَّحيحة ، وربَّما سعَّر عليهم بضائعهم .

(٣) وفيات الأعيان : ١٩٩/٢

ألف درهم وأحيل عليك ببقيّة المال ، وأخرج إلى خراسان ، فإذا فعلت هذا فأخبرني حتّى أُشير عليك ، ففعل الرّجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرّجل فأخبره فقال : عُدْ إليه فقل له : إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي تحضر ، وأوكل رجلاً بالقبض على المال وأخرج ، فإذا جلس إلى القاضي فادّعِ عليه بما بقي لك من المال ، فإذا أقرّ حبسه القاضي وأخذت مالك . فرجع إلى مرزبان فسأله فقال : انتظرني بباب القاضي ، فلما ركب من الغد وثب إليه الرّجل وقال : إن رأيت أن تترك إلي القاضي حتّى أُوكل بقبض المال وأخرج ، فنزل مرزبان إلى حفص المذكور فقال الرّجل : أصلح الله القاضي ، لي على هذا الرّجل تسعة وعشرون ألف درهم ، فقال حفص : ماتقول يامجوسي ؟ قال : صدق ، أصلح الله القاضي ، فقال القاضي : ماتقول يارجل فقد أقرّ لك ، فقال : يعطيني مالي ، فأقبل حفص على المجوسي فقال : ماتقول ؟ فقال : هذا المال على السّيِّدة ، فقال : أنت أحمق تقرّ ثمّ تقول على السّيِّدة ؟ ماتقول يارجل ؟ قال : أصلح الله القاضي ، إن أعطاني مالي وإلاّ حبسته ، قال حفص : ماتقول يامجوسي ؟ قال : المال على السّيِّدة ، فقال حفص : خذوا بيده إلى الحبس ، فلما حُبِسَ بلغ الخبر أُم جعفر ، فغضبت وبعثت إلى السّندي : وجّه إلى المرزبان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشُّرَط ، فأخرجه ، وبلغ الخبر حفصاً فقال : أحبس أنا ويُخرجُ السّندي ؟ لاجلستُ مجلسي هذا أو يُردُّ مرزبان إلى الحبس ، فجاء السّندي إلى أُمّ جعفر فقال : الله الله فيَّ ، إنّه حفص بن غياث ، وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لي : بأمر مَنْ أخرجته ؟ ردّيه إلى الحبس ، وأنا أُكلّم حفصاً في أمره ، فرجع مرزبان إلى الحبس فقالت أُمّ جعفر لهارون : قاضيك هذا أحمق ، حبس وكيلي واستخفّ به ، فمره لا ينظر في الحكم ، وتولّي أمره أبا يوسف ، فأمر لها بالكتاب ، وبلغ حفصاً الخبر ، فقال : أحضري شهوداً حتّى أسجّل لكِ على المجوسي ؛ وجلس حفص وسجّل على المجوسي بالمال ، وورد

كتاب هارون مع خادم فقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال : مكانك ؛ نحن في شيء حتّى نفرغ منه ، فقال : كتاب أمير المؤمنين ، فقال : انظر ما يقال لك ، فلما فرغ حفص من السِّجل أخذ الكتاب من الخادم فقرأه فقال : اقرأ على أمير المؤمنين السّلام ، وقل له إنّ كتابه ورد وقد أنفذت الحكم ، فقال الخادم : قد عرفت ماصنعت ، أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتّى تفرغ مما تريد ؛ والله لأُخبرنّ أمير المؤمنين بما فعلت ! فقال حفص : قل له ما أحببت ، فجاء الخادم فأخبر هارون فضحك وقال للحاجب : مُرْ لحفصٍ بثلاثين ألف درهم ، فركب يحي بن خالد ، فاستقبل حفصاً منصرفاً من مجلس القضاء ، فقال : أيُّها القاضي قد سَرَرْتَ أمير المؤمنين ، وأمر لك بثلاثين ألف درهم فما السَّبب ؟ فقال : تمّم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته ، ما زدت على ما أفعل كلّ يوم ، سجلت على مرزبان المجوسي بما وجب عليه ، قال يحي بن خالد : فمن هذا سُرَّ أمير المؤمنين ، فقال حفص : الحمد لله كثيراً ، فقالت أُم جعفر لهارون : لا أنا ولا أنت إلاّ أن تعزل حفصاً ، فأبى عليها ، ثمّ ألَحَّت عليه فعزله عن الشَّرقية ، وولاه قضاء الكوفة ، فمكث عليها ثلاث عشرة سنة .

وكان أبو يوسف لما ولي حفص القضاء قال لأصحابه : تعالوا نكتب نوادر حفص ، فلما وردت أحكامه وقضاياه على أبي يوسف قال له أصحابه : أين النّوادر الّتي زعمت بكتبها ؟ قال : ويحكم إنّ حفصاً أراد الله فوفّقه .

وقال حفص : والله ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة ؛ (من الفقر) .

ومات رحمه الله ولم يخلّف درهماً ، وخلّف عليه تسع مئة درهم ديناً .

وكان يُقال : خُتم القضاء بحفص بن غياث .

☆ ☆ ☆

وكان على قضاء الموصل سنة ١٧٠ هـ ، علي بن مُسهر ، قال علي هذا : لما ولاّني هارون الرَّشيد قضاء الموصل ، دخلت عليه فقال لي : ياعلي ! إذا أتاك شاهد الزُّور ماتعمل به ؟ قال : قلت : فيه اختلاف ياأمير المؤمنين ، في قول يقال لأهل الحيِّ هذا شاهد زور فاعرفوه . وفي قول عمر بن الخطاب أن يضرب ويُسخَّم[١] ويُطاف به . فقال الرَّشيد : ياعلي خذ بقول عمر بن الخطَّاب لقول رسول الله ﷺ : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ ضرب الحقَّ على لسان عمر »[٢] .

أحضر الرَّشيد رجلاً ليولِّيَه القضاء ، فقال له : إنِّي لاأُحسن القضاء ، ولا أنا فقيه ، قال الرَّشيد : فيك ثلاث خلال : لك شرف ، والشَّرف يمنع صاحبه من الدَّناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قلّ خطؤه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كثر صوابه ، وأمَّا الفقه فسينضم إليك من تتفقَّه به ، فولِيَ فما وجدوا فيه مطعناً[٣]

☆ ☆ ☆

(١) السُّخْمَة : السواد ، وسُخِّم وجه فلان ، أي سُوِّد .

(٢) تاريخ الموصل : ٢٦٦

(٣) عيون الأخبار : ١٧/١ و ١٨

جهاد الرَّشيد

قال أبو معاوية الضَّرير : حدثت هارون الرَّشيد بهذا الحديث ، يعني قول النبي ﷺ : « وددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل » ، فبكى الرَّشيد حتَّى انتحب ثم قال : يا أبا معاوية ، ترى لي أن أغزو ؟ قلت : يا أمير المؤمنين مكانك في الإسلام أكبر ، ومقامك أعظم ، ولكن تُرْسِل الجيوش(١) ..

« ولم يظهر خليفةٌ ـ من قبل أو بعد ـ ماأظهره الرَّشيد من الهمة والنَّشاط في مختلف حركاته ، سواء أكانت في سبيل الحج ، أو الإدارة ، أو الحرب » .

لقد كان يقود جيوشه بنفسه في ميادين القتال ، واحتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة .

جهاد الرَّشيد ، جهاد دائم ، إن لم يكن في حج فهو في غزو ، فقد غزا الصَّائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والرُّوم ، بعد محاصرته القسطنطينية ، وكان الصُّلح مع امرأة « ليون » وهي الملقبة بأُغسطة ، على حمل كثير تبذله للمسلمين في كلِّ عام(٢) .

إنَّه جبار بني العباس ، لأنَّه أغزى ابنه القاسم الرُّوم ، فقتل منهم خمسين ألفاً ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسُّروج واللُّجم الفضة ، وأغزى علي بن

---

(١) تاريخ بغداد : ١٤/١٤

(٢) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

عيسى بن ماهان بلاد التُّرك ، فقتل منهم أربعين ألفاً ، وغزا هو بنفسه بلاد الرُّوم ففتح هرقلة ، وأخذ الجزية من ملك الروم (١) .

ومِمَّا عمله الرَّشيد إقامته « ديوان العَرْض » ملحقاً بديوان الحرب ، ومن وظائفه استعراض الجند ، ومعرفة كفاءاتهم ، من قبل مشرفين متخصِّصين . وألَّف بعضهم كرَّاسات في الهندسة الحربيَّة ، كالتَّعبئة ، وطرق الاستيلاء على الحصون ، وتشييد القلاع ، وفي الفروسيَّة ، وفي الحصار ..

لقد كانت حياة الرَّشيد جهاداً مستمراً حافلاً :

فَمَنْ يَطْلُب لِقاءَكَ أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثُّغورِ
ففي أرضِ العدوِّ على طِمِرٍّ (٢) ... وفي أرض التَّرفُّه فوقَ كُورِ
وما حازَ الثُّغورَ سواك خلقٌ ... من المتخلِّفين على الأُمورِ (٣)

هذا الجهاد الطويل المستمر ، نقتطف منه ما يلي :

في سنة إحدى وثمانين ومئة ، غزا أرض الرُّوم ، فافتتح بها عنوة حصن الصَّفصاف ، فقال مروان بن أبي حفصة :

إنَّ أمير المؤمنين المصطفى (٤) ... قد ترك الصَّفصافَ قاعاً صفصفا (٥)

---

(١) صبح الأعشى : ٤٥٢/١ ، هذا .. ولقد عاصر الرَّشيد في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل : (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ) ، ثم هشام بن عبد الرحمن : (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ) ، ثم الحكم بن هشام : (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) .

(٢) الأتان الطمرة : الشديدة العدو ، قال السيرافي : الطِّمرُّ مشتق من الطُّمور ، وهو الوثب ، وإنما يعني بذلك سرعته [اللِّسان : طمر] ، والكور ـ في عجز البيت ـ : الرحل .

(٣) تاريخ بغداد : ١٤/١٠ ، والأبيات فيه لأبي الشغلي ، وفي الطبري لأبي المعالي الكلابي ، والرواية هنا للطبري : ٣٢١/٨

(٤) وفي البداية والنهاية : ١٧٧/١٠ « المُنْصِفا » ، وتاريخ ابن الوردي : ٢٨٠/١ ، وتاريخ الموصل : ٢٨٠ ، وفي الأخبار الطوال : ٣٩٠ اسم المدينة « مَعْصوف » .

(٥) تاريخ الموصل : ٢٩٠

وفي سنة ١٨٧ هـ نقض صاحب الرُّوم نقفور الصُّلح الَّذي كان بين المسلمين وبين الإمبراطورة ايريني ، بعد أن خلعها الروم وملكوه ، والرُّوم تذكر أنَّ نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان ، وأنَّه قَبْل الملك كان يلي ديوان الخراج ، ثم ماتت ايريني بعد خمسة أشهر من خلع الروم إيَّاها ، فتأكد نقفور أنَّ الرُّوم قد استوسقت[1] له بالطَّاعة ، فكتب إلى الرَّشيد :

من نقفور ملك الرُّوم ، إلى هارون ملك العرب ، أمَّا بعد ، فإنَّ الملكة الَّتي كانت قبلي ، أقامتك مقام الرُّخ[2] وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك ضعف النِّساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلاَّ فالسَّيف بيننا وبينك .

فلما قرأ الرَّشيد الكتاب ، استفزَّه الغضب حتَّى لم يمكن لأحدٍ أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وتفرَّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ، واستعجم الرَّأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبدّ برأيه دونه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرُّوم ، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة ، والجواب ماتراه لا ماتسمعه ، والسَّلام[3] .

ثم شخص من يومه ، وسار حتَّى أناخ بباب هِرقلة ، ففتح وغنم ، وخرَّب

---

(١) استوسق لك الأمر إذا أمكنك ، والاتساق : الانتظام ، [اللّسان : وسق] .

(٢) الرُّخ : من أداة الشطرنج ، والجمع رخاخ ، قال الليث : الرُّخ معرّب من كلام العجم ، [اللّسان : رخ] . والبيدق من أداة الشطرنج أيضاً ، ويمثّل جندياً ، ومعروف أن الرُّخ أقوى حركة وقيمة من البيدق على رقعة الشطرنج .

(٣) الكامل في التاريخ : ١١٨/٥ ، البداية والنهاية : ١٩٣/١٠ ، تاريخ ابن الوردي : ٢٨٣/١ ، تاريخ الموصل : ٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء : ٢٨٨

وحرّق ، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كلّ سنة ، فأجابه الرّشيد إلى ذلك ، فلما رجع من غزوته ، وصار بالرقة نقض نقفور العهد ، وخان الميثاق ، وكان البرد شديداً ، فيئس نقفور من رجعة الرّشيد إليه ، وجاء الخبر بارتداده عما أُخذ عليه ، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرّة في مثل تلك الأيام ، فاحتيل له بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال :

نَقَضَ الَّذي أعطيتَهُ نِقْفُورُ ... وعليْهِ دائرةُ البَوارِ تَدورُ
فَتْحٌ يزيد على الفتوح يؤمُّنا ... بالنَّصر فيه لواؤك المنصور(١)
أبشِر أميرَ المؤمنين فإنَّه ... غُنْمٌ أتاكَ به الإلهُ كبيرُ
فلقد تباشَرَتِ الرَّعيَّة أن أتى ... بالنَّقْضِ عنه وافِدٌ وبشيرُ
ورَجَت يمينكَ أن تعجِّلَ غزوةً ... تشفي النُّفوسَ مكانُها مَذْكورُ
أعطاكَ جزيتَهُ وطأْطأَ خَدَّهُ ... حَذَرَ الصَّوارم والرَّدى مَحْذورُ
فأجرتَه من وقعِها وكأنَّها ... بأكفِّنا شُعَلُ الضِّرامِ تطيرُ
وصرَفْتَ بالطَّولِ العساكر قافلاً ... عنْهُ وجارُكَ آمِنٌ مَسْرورُ
نِقفورُ إنَّك حين تَغْدِرُ إن نأى ... عنكَ الإمام لجاهلٌ مغرورُ
أظننتَ حين غدرت أنَّكَ مُفلتٌ ... هَبِلَتْكَ أمُّكَ ما ظننتَ غرورُ
ألقاكَ حَيْنُكَ في زواجرِ بَحْرِهِ ... فطَمَتْ عليكَ من الإمامِ بُحورُ
إن الإمامَ على اقتساركَ قادِرٌ ... قَرُبت ديارُكَ أمْ نأتْ بكَ دُورُ
ليس الإمام وإنْ غَفَلنا غافِلاً ... عمَّا يَسوس بحَزْمِهِ ويُديرُ
مَلِكٌ تجرَّد للجهادِ بنفسِهِ ... فعدوُّهُ أبداً بهِ مَقْهورُ
يا من يُريدُ رضا الإله بسعيهِ ... واللّهُ لا يخفى عليهِ ضَميرُ
لا نُصحَ ينفعُ مَن يغُشُّ إمامَهُ ... والنُّصحُ مِنْ نُصحائِهِ مشكورُ
نُصْحُ الإمامِ على الأنامِ فريضَةٌ ... ولأهلها كفَّارةٌ وَطَهورُ(٢)

---

(١) البيت في « الكامل في التاريخ » .

(٢) الطبري : ٣٠٨/٨ و ٣٠٩

وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم « أبو العتاهية » :

إمامَ الْهدى أصبحتَ بالدِّين معنيًّا … وأصبحتَ تُسْقي كلَّ مستمطِرٍ رِيًّا
لكَ اسمان شُقَّا من رَشادٍ ومنْ هُدىً … فأنتَ الَّذي تُدعى رشيداً ومَهْدِيًّا
إذا ماسَخِطْتَ الشَّيءَ كان مُسَخَّطاً … وإن ترضَ شيئاً كان في النَّاس مَرْضيا
بسطْتَ لنا شَرْقاً وغرباً يَدَ العُلا … فَأوسعْتَ شرقيّاً وأوسعتَ غَرْبيًّا
ووشَّيتَ وجه الأرضِ بالجودِ والنَّدى … فأصبح وَجْهُ الأرضِ بالجودِ مَوْشِيًّا
قَضَى اللّهُ أن يَصْفُو لهارونَ مُلكُهُ … وكانَ قضاءُ الله في الْخَلْقِ مقضِيًّا
تَحلَّبَتِ الدُّنيا لهارونَ بالرِّضا … فأصبَحَ نِقْفُورُ لهارونَ ذِمِّيًّا(١)

وقال الحجّاج بن يوسف التَّيمي :

لَجَّتْ بنقفورَ أسبابُ الرَّدى عَبَثاً … لما رأتْهُ بغيلِ اللَّيثِ قَدْ عَبثا
ومن يَزُرْ غيلَةَ لا يَخْلُ من فَزَعٍ … إن فاتَ أنيابَهُ والمِخْلَبَ الشَّبِثا
خانَ العُهودَ ومن ينكُثْ بها فعلَى … حَوْبائِهِ، لا على أعدائِهِ نكثا
كانَ الإمامُ الَّذي تُرْجَى فواضِلهُ … أذاقَهُ ثمرَ الحِلمِ الَّذي وَرِثا
فرَدَّ أُلفتَهُ من بعدِ أنْ عطفتْ … أزواجَهُ مَرِهاً يَبْكينَهُ شعِثا(٢)

فلما فرغ من إنشاده ، قال الرَّشيد : أوَ قد فعل نقفور ذلك ؟! وعلم أنَّ الوزراء قد احتالوا له في ذلك ، فكَرَّ راجعاً في أشدِّ محنة وأغلظ كلفة حتَّى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتَّى رضي وبلغ ما أراد ، وأذل نقفور وجنده ، فقال أبو العتاهية :

ألا نادَت هِرَقْلَةُ بالْخَرابِ … مِنَ الْمَلكِ الْمُوفَّقِ بالصَّوابِ
غدا هارونُ يَرْعُدُ بالمنايا … ويَبْرُقُ بالْمُذكَّرةِ القِضابِ

(١) المرجع السابق : ٣٠٩

(٢) المرجع السابق : ٣١٠ . والْمَرَهُ : ضدُّ الكَحَل ، والْمُرْهَةُ : البياض الذي لا يخالطه غيره ، وامرأة مَرْهاء : لا تتعهَّد عينيها بالكُحْل ، [اللِّسان : مره] .

وَرايــــاتٍ يَحِـلُّ النَّصْرُ فيهــا تَمُرُّ كأنّهــا قِطَـعُ السَّحــاب
أميرَ المـؤمنينَ ظَفِرتَ فـاسْلَمْ وأبشِرْ بـالغنيمـةِ والإيــابِ (١)

ومما يظهر حب الرَّشيد للمجاهدين والجهاد ، أو حب الرَّعية كلهم بشكل عام ، أنَّه في سنة ١٨٩ هـ فادى الأسارى المسلمين الَّذين كانوا ببلاد الرُّوم ، حتَّى إنَّه لم يترك بها أسيراً واحداً من المسلمين ، قال الشاعر :

وَفُكَّت بك الأسرى الَّتي شيِّدت لها مجالسُ ما فيها حَميمٌ يزورُها
على حين أعيا المسلمين فكاكُها وقالوا سجونُ المشركينَ قبورُها (٢)

وفي عام ١٩٠ هـ ، غزا الرَّشيد الصَّائفة ، وفيها فتح هِرقلةَ ، وبثَّ الجيوش والسَّرايا بأرض الرُّوم ؛ لقد سيَّر عبد الله بن مالك إلى ذي الكلاع ، ووجَّه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً ، وجعل لشراحيل بن معن بن زائدة حصن الصَّقالبة ودبَسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصَّفصاف وملقوبية ودخل الرَّشيد نفسه إلى هرقلة .

وبعد هذا الفتح الكبير ولى الرَّشيد حُميد بن معيوف سواحل بحر الشَّام إلى مصر ، فنزل قبرص وغزا فيها ، لما نقض أهلها العهد (٣) . ثم نزل الرَّشيد الطُّوانة ، فعسكر بها ، ثم رحل عنها ، وخلَّف عليها عقبة بن جعفر .

وبعد فتح هرقلة ، كتب نقفور مع بطريقَيْن من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته : « لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم (٤) ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٣١٠/٨

(٢) البداية والنهاية : ٢٠١/١٠ ، والنجوم الزاهرة : ١٢٧/٢ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٩

(٣) تاريخ الطبري : ٣٢٢/٨

(٤) انقلب الأمر ، وانتهى كبر نقفور ، لقد وضع اسم الرشيد أولاً قبل اسمه ، إنَّه الرَّشيد أجل ملوك الدنيا بلا منازع .

سلام عليكم ، أمّا بعد أيها الملك ، إنّ لي إليك حاجة لا تضرُّك في دينك ولا دنياك ، هيّنة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هِرقلة ، كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[1] .

واستهداه أيضاً طبيباً وسرادقاً من سُرادقاته ، فأمر الرّشيد بطلب الجارية « وهي ابنة بطريق هرقلة » ، فسُلّمت ـ وسرادق كان الرّشيد نازلاً فيه ، مع آنية ومتاع وعطور وتمور .. ـ إلى رسول نقفور .

وفي هذه السّنة اشترط الرّشيد على نقفور ألاّ يُعمِّر هرقلة ، وعلى أن يحمل نقفور ثلاث مئة ألف دينار .

لقد فتحت هرقلة عنوة بعد حصار وحرب شديدين ، ورُميت بالنّار والنفط ، لذلك قال المكّي الشاعر :

هَوَت هِرقلَةُ لما أن رأت عجباً ... جوَّ السّما ترتمي بالنفط والنّار
كأنّ نيراننا في جنب قلعتهم ... مصبّغات على أرسان قصّارِ[2]

وفي غزوة الرّشيد هذه لهرقلة ، اتخذ قلنسوة كُتب عليها « غاز حاج » ، فكان يفخر رضي الله عنه بهاتين الصّفتين ، ومع ذلك ، جاء من شوّه سيرته ، وستبقى السّيرة الحقيقية ، الّتي روتها مراجعنا المعتمدة الصّحيحة ، أكبر حجّة لسيرته العطرة الطّيبة .

رحم الله الغازي في عام ، والحاج في عام يليه .

ورضي عن الحاج في عام ، والغازي في عام يليه ..

ولحكم الله تعالى العادل ، ندع أمر من شوّه سيرته .

☆ ☆ ☆

(١) الطبري : ٣٢١/٨

(٢) معجم البلدان : ٣٩٨/٥

رِجالٌ حَولَ الرَّشيد

« ولسنا نعلم في التَّاريخ كلِّه ، أنَّ حاشية للملوك قد جمعت مثل ماجمعت حاشية الرَّشيد من ذوي العقول الرَّاجحة النَّابهين »[(١)] :

أبو يوسف (صاحب الْخَراج) ، ومحمد بن الحسن (قاضي القضاة) ، وعبد الله بن المبارك (عالم الشَّرق والغرب) ، والفضيل بن عياض (الزَّاهد الناصح) ، والإمام مالك (إمام دار الهجرة) ، والإمام الشَّافعي .

إن الرجال الأفاضل ، والعلماء الأجلاء ، الَّذين لزموا مجلس الرَّشيد في قصره ، أو رحل إليهم ليسمع منهم سيعطوننا فكرة عن الرَّشيد المؤمن ، المجاهد ، محب العلم والعلماء ، الملتزم بالشَّريعة ، الغيور عليها .. ومنهم :

أبو يُوسُف يَعقوب بن إبراهيم بن حبيب[(٢)] : قاضي القضاة عند

---

(١) قصة الحضارة : ٩٢/١٣

(٢) تتلمذ على أبي حنيفة منذ طفولته ، وتنبأ له أبو حنيفة لما أرادت أمه منعه من حضور مجالسه في صنعة يقتات منها ، قال لها أبو حنيفة : سيأتي يوم على ابنك يأكل أطايب الطعام بأطباق من الذهب ، وقد كان ذلك عندما علت مكانته عند الرشيد ، وسيمر تفصيل ذلك في هذا الكتاب .
ولد أبو يوسف عام ١١٣ هـ ، وتوفي سنة ١٨٢ هـ ، وكتابه (الْخَراج) مطبوع عدة طبعات ، منها طبعة (المطبعة السلفية) المقارنة بمخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ ومطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ .
ومما يذكر أن أبا يوسف من نسل صحابي اسمه (سعد بن حسبة) مسح النبي رأسه يوم الخندق .
فلعلَّ أبا يوسف من بركة رسول الله ﷺ على الدولة العباسية .

الرَّشيد ، كلفه الرَّشيد بوضع كتاب نستطيع أن نقول : إنَّـه (منهج اقتصـادي) ، يجمع الرَّشيـد بموجبه الْخَراج في الـدَّولـة الإسلاميـة بمـوجب الشَّريعـة المطهرة ، لايحيـد عنهـا ، ولا يظلم في جبـايتـه أحـداً من الرَّعية على اختـلاف أجنـاسهم وديـاناتهم .

وضع (أبو يوسف) كتابه (الْخَرَاج) ، بطلب من الرَّشيـد ، وقـد قـدم لـه بنصيحة وموعظة للرَّشيد ، نورد نصَّها ، لقيمتها التَّاريخية ، ولما تحملـه من معـانٍ سامية وجهها أبو يوسف للرَّشيد ، وهذا نصُّ الموعظة :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم : هـذا مـا كتب بـه أبـو يـوسف رحمـه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرَّشيد :

أطال الله بقـاء أمير المؤمنين ، وأدام لـه العزَّ في تمـام من النِّعمـة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ماأنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الَّـذي لا ينفـد ولا يزول ، ومرافقة النَّبيِّ ﷺ .

إنَّ أمير المؤمنين أيَّده الله تعـالى سـألني أن أضع كتـابـاً جـامعـاً يعمل بـه في جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالي[1] ، وغير ذلك مما يجب عليـه النَّظر فيه والعمل به ، وإنَّما أراد بـذلـك رفع الظلم عن رعيتـه ، والصَّلاح لأمرهم ، وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدَّده وأعانه على ماتولى من ذلـك ، وسلمـه ممـا يخـاف ويحذر ، وطلب أن أُبيِّن له ماسألني عنه مما يريـد العمل بـه ، وأُفسِّره وأشرحـه ، وقد فسرت ذلك وشرحته .

---

(١) جمع جالية ، وأصلها الجماعة الَّتي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، ومنه قيل لأهل الـذِّمَّة الَّـذين أجلاهم عمر رضي الله عنه عن جزيرة العرب « جالية » ، ثم نقلت هـذه اللفظـة إلى الجزيـة الَّتي أخذت منهم ، ثم استعملت في كلِّ جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه .

يا أمير المؤمنين ، إنّ الله ـ وله الحمد ـ قد قلّدك أمراً عظيماً ، ثوابه أعظم الثّواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأُمّة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاّك أمرهم ، وليس يلبث البُنْيان ـ إذا أسس على غير التّقوى ـ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأُمّة والرّعية ، فإنّ القوة في العمل بإذن الله .

لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت ، إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنّه لا عمل بعد الأجل ، إنّ الرعاة مؤدُّون إلى ربهم ما يؤدّي الرّاعي إلى ربّه ، فأقم الحقّ فيما ولاّك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرُّعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب ، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة ، والآخر للدُّنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدُّنيا ، فإن الآخرة تبقى والدُّنيا تفنى . وكن من خشية الله على حذر ، واجعل النّاس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم ، واحذر فإنّ الحذر بالقلب وليس باللّسان ، واتق الله فإنّما التّقوى بالتّوقّي ، ومن يتق الله يقه ، واعمل لأجلٍ مفضوض ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود ، فإنّ ذلك المورد الحق ، والموقف الأعظم الّذي تطير فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته ، وكأنّ ذلك قد كان . فكفى بالحسرة والنّدامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزلّ فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب ، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج ٢٢/٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُم

والأوّلينَ ﴾[المرسلات ٧٧/٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ إنّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقاتُهم أجْمَعين ﴾ [الدُّخان ٤٤/٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ كأنّهم يَوْمَ يَرَوْنَ ما يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعةً مِنْ نَهارٍ ﴾ [الأحقاف ٤٦/٣٥] ، وقال : ﴿ كأنّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثوا إلاّ عَشِيّةً أو ضُحاها ﴾ [النازعات ٧٩/٤٦] ، فيا لها من عثرة لاتقال ، ويا لها من ندامة لاتنفع ، إنّما هو اختلاف اللّيل والنّهار : يبليان كلّ جديد ، ويقرّبان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إنّ الله سريع الحساب ، فالله الله فإنّ البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدُّنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هي دار القرار ، فلا تلقَ الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فإنّ ديّان يوم الدّين إنّما يدين العباد بأعمالهم ، ولا يدينهم بمنازلهم ، وقد حذّرك الله فاحذر ، فإنّك لم تُخلَق عبثاً ، ولن تترك سُدى ، وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب .

واعلم أنّه لن تزول غداً قَدَما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلاّ من بعد المسألة ، فقد قال ﷺ : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يُسْأَل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه » . فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فإن ما عملتَ فأثبتّ فهو عليك غداً يُقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد ، وإني أُوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لاتنظر في ذلك إلاّ إليه وله ، فإنّك إن لاتفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ماتعرف ، وتعرف منه ماتنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج[1] لها لا عليها ، فإنّ الرّاعي المضيع يضمن ماهلك على يديه مما لو شاء ردّه

---

(١) الفلج : الظفر والفوز ، وفي المثل : من يأت الْحَكَمَ وحده يَفْلُج .

عن أماكن الهلكة بإذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضاعه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضرّ ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ، ووقاه الله أضعاف ماوقى له ، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك ـ بما أضعت ـ أجرك ، وإنَّما يدعم البنيان قبل أن ينهدم ، وإنَّما لك من عملك ماعملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ماضيعت منه ، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم ، فليس يُغفل عنك . ولا يضيع حظُّك من هذه الدُّنيا في هذه الأيام واللَّيالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً ، والصَّلاة على رسوله ﷺ نبيّ الرَّحمة ، وإمام الهدى ﷺ ، وإنَّ الله بمنّه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرَّعية ماأظلم عليهم من الأُمور فيما بينهم ، ويبين ماشتبه من الحقوق عليهم ، وإضاءةُ نور ولاة الأمر إقامة الحدود ، وردها إلى أهلها بالتَّثبت والأمر البيّن ، وإحياء السُّنَن الَّتي سنَّها القوم الصَّالحون أعظم موقعاً ، فإنَّ إحياء السُّنن من الخير الَّذي يحيا ولا يموت ، وجور الرَّاعي هلاك للرَّعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة . فاستتمّ ماآتاك الله يا أمير المؤمنين من النِّعم بحسن مجاورتها ، والتمس الزيادة فيها بالشُّكر عليها ، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرْتُم إنَّ عَذابِي لَشَديدٌ ﴾ [إبراهيم ٧/١٤] .

وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعملُ بالمعاصي كفر النعم ، وقلّ من كفر من قوم قطّ النعمة ، ثم لم يفزعوا إلى التَّوبة إلاّ سُلِبوا عزهم وسلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وإنِّي أسأل الله يا أمير المؤمنين الَّذي مَنَّ عليك بمعرفته فيما أولاك ، أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك . وأن يتولى منك ماتتولى من أوليائه وأحبائه ، فإنَّه ولي ذلك والمرغوب إليه فيه .

وقد كتبتُ لك ماأمرتَ به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره ، وردِّد

قراءته حتّى تحفظه ، فإنّي قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه ، وإنّي لأرجو - إن عملتَ بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خَراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم ، والتَّظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتخصيص على ماسألت عنه ، مما تريد العمل به إن شاء الله ، فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك .

ثم ذكر أبو يوسف أحاديث عديدة في التَّرغيب والتَّحضيض ، كان أولها : « حدثني يحي بن سعيد عن الزُّبير عن طاوس عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل ابنُ آدم من عمل أنجى له من النَّار من ذكر الله ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، ولو أن تضرب بسيفك حتَّى ينقطع ، ثم تضرب به حتَّى ينقطع » ، قالها ثلاثاً ، وإنَّ فضل الجهاد يا أمير المؤمنين لعظيم ، وإنَّ الثَّواب عليه لجزيل .

وكان آخرها : وحدثني بعض أشياخنا عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : غضب عمر بن عبد العزيز يوماً فاشتد غضبه - وكان فيه حِدَّة - وعبد الملك ابنه حاضر ، فلما سكن غضبه قال له : يا أمير المؤمنين في قدر نعمة الله عندك ، وموضعك الَّذي وضعك الله به وما أولاك من أمر عباده أن يبلغ بك الغضب ماأرى ؟ قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت يا عبد الملك ؟ قال : ما يغني عني جوفي إن لم أردّ الغضب فيه حتَّى لا يظهر منه شيء !

لقد كانت الوصيَّة السَّابقة ، وصية عالم لا تأخذه في الله لومة لائم إلى خليفة مسلم مؤمن يهمه تطبيق شرع الله ومراعاة مصلحة ورفاه الرَّعيَّة كلِّهم . ويمكننا

القول : إنَّ كتاب (الْخَراج) منهج اقتصادي إسلامي طلبه الرَّشيد من أبي يوسف ـ صاحب الإمام أبي حنيفة ـ ليكون موضع التَّطبيق في دولة بني العباس .

ويجب أن نعلم قيمة أبي يوسف هذا ، ويمكننا ذلك من الإمام أبي حنيفة : مرض أبو يوسف مرضاً خيف عليه منه ، فعاده أبو حنيفة ، فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال : « إن يمت هذا الفتى فإنّه أعلم من عليها » ، وأومأ إلى الأرض[1] .

إنَّه تلميذ أبي حنيفة ، تفرس فيه الخير ، قال أبو يوسف : توفي أبي وأنا صغير ، فأسلمتني أمي إلى قصَّار ، فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة ، فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب إلى القصَّار ، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال ذلك عليها ، قالت لأبي حنيفة : إنَّ هذا صبي يتيم ليس له شيء إلاَّ ماأطعمه من مغزلي ، وإنَّك قد أفسدته عليَّ فقال لها : اسكتي يا رعناء ، هاهو ذا يتعلم العلم ، وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج ، فقالت له : إنَّك شيخ قد خرفت .

وصيَّة أبي حنيفة لأبي يوسف ، وهي من عيون الوصايا[2] :

يا يعقوب ، وقِّر السُّلطان وعظِّم منزلته ، وإياكَ والكذب بين يديه ، ولا تدخل عليه في كلِّ حال مالم يدعك لحاجة علميَّة ؛ فإنَّك إن أكثرت الاختلاف إليه تهاون واستخفَّ بك ، وصغرت منزلتك في عينه ، فكن منه كما أنت من النَّار ، تنتفع بها ، وتتباعد عنها ، ولا تدنُ منها فإنَّك تحترق وتتأذَّى

---

(١) حُسْنُ التَّقاضي : ٣٥

(٢) نَصٌّ هذه الوصيَّة ومضمونها ، يثبتان أن أبا حنيفة ، كان على يقين أن أبا يوسف : « سيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحن الفيروزج » .

منها ، فإن السُّلطان لا يرى لأحدٍ ما يرى لنفسه ، وإيَّاك وكثرة الكلام بين يديه ، فإنَّه يأخذ عليك ماتفوه به ، ليرى من نفسه بين يدي حاشيته أنه أعلم منك ، وأنَّه يخطِّئك فتصغر بذلك في أعين قومه ، ولتكن إذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك ، ولا تدخل عليه وعنده من أهل العلم من لا تعرفه ، فإنَّك إن كنت أدون حالاً منه ، لعلك تترفَّع عليه فيضرّك ، وإن كنت أعلم منه لعلك تنحط عنه فتسقط بذلك من عين السُّلطان ، وإذا عرض عليك شيئاً من أعماله ، فلا تقبل منه إلاَّ بعد أن تعلم أنَّه يرضاك ، ويرضى مذهبك في العِلْم والقضايا ، كي لا تحتاج إلى ارتكاب مذهب غيرك في الحكومات ، ولا تواصل أولياء السُّلطان وحاشيته ، بل تقرَّب إليه فقط ، وتباعد عن حاشيته ليكون محلك وجاهك باقياً ، ولا تتكلَّم بين يدي العامَّة إلاَّ بما تُسأل عنه .

وإيَّاك والكلام في المعاملة والتِّجارة ، إلاَّ بما يرجع إلى العلم ، كي لا يوقف منك على رغبة في المال ، فإنَّهم يسيئون الظَّنَّ بك ، ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرَّشوة منهم ، وبسط اليد إليها .

ولا تضحك ، ولا تتبسَّم فيما بين العامَّة ، ولا تكثر الخروج إلى الأسواق ، ولا تكلِّم الصِّبيان المراهقين فإنَّهم فتنة ، ولا بأس أن تكلِّم الأطفال وتمسح رؤوسهم ، ولا تمش في قارعة الطَّريق مع المشايخ من العامَّة ، فإنَّك إن قدمتهم أزرى ذلك بعلمك ، وإن أخَّرتهم ازدري بك من حيث أنَّهم أحسن منك ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « من لم يوقِّر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا ، فليس منَّا » .

ولا تقعد على قوارع الطَّريق ، وإذا دعاك ذلك فاقعد في المسجد ، ولا تقعد على الحوانيت ، ولا تأكل في الأسواق والمساجد ، ولا تشرب من السِّقايات ومن أيدي السَّقائين ، ولا تلبس الدِّيباج والحلي وأنواع الإبْريسَم [١] ، فإنَّ ذلك يفضي إلى الرُّعونة .

---

(١) الإبْريسَم : الحرير (معرب) ، [اللِّسان : برسم ، والقاموس المحيط : ٧٩/٤] .

ولا تكثر الكلام في بيتك مع أهلك في الفراش ، إلاّ وقت حاجتك إليها بقدر ذلك ، ولا تكثر لمسها ومسها ، ولا تتقرَّب بها إلاّ أن تذكر الله تعالى ، وتستخير فيه ، ولا تتكلّم بأمر نساء الغير بين يديها ، ولا بأمر الجواري ، فإنّها تنبسط إليك في كلامك ، ولعلك إذا تكلّمت عن غيرها ، تكلّمت عن الرِّجال الأجانب ، ولا تتزوّج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت ، إن قدرت ، إلا بشرط أن لا يدخل عليها أحد من أقاربها ، فإنّ المرأة إذا كانت ذات مال ، يدّعي أبوها أنّ جميع مالها له ، وأنّه عارية في يدها ، ولا تدخل بيت أبويها ماقدرت ، وإيّاك أن ترضى أن تزفّ في بيتهم ، فإنّهم يأخذون أموالك ويطمعون فيك غاية الطّمع ، وإياك أن تتزوّج بذات البنين والبنات ، فإنّها تدّخر جميع المال لهم ، وتسرق من مالك وتنفق عليهم ؛ فإنّ الولد أعز عليها منك ، ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة ، ولا تتزوّج إلاّ بعد أن تعلم أنّك تقدر على القيام بجميع حوائجها ، واطلب العِلْم أوّلاً ، ثمّ اجمع المال من الحلال ثم تزوّج ، فإنّك إن اشتغلت بطلب المال في وقت التّعلُّم ، عجزت عن طلب العِلْم ، ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدّنيا ، وإيّاك أن تشتغل بالنِّساء قبل تحصيل العِلْم ، فيضيع وقتك ، ويجتمع عليك الولد ويكثر عيالك ، فتحتاج إلى القيام بحوائجهم وتترك العلم ، واشتغل بالعلم في عنفوان شبابك ، ووقت فراغ قلبك وخاطرك ، ثمّ اشتغل بالمال ليجتمع عندك ، فإنّ كثرة الولد والعيال تشوّش البال ، فإن جمعت المال فاشتغل بالتزوُّج .

وعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة والنّصيحة لجميع الخاصّة والعامّة ، ولا تستخف بالنّاس ووقِّرهم ، ولا تكثر معاشرتهم إلاّ بعد أن يعاشروك ، وقابل معاشرتهم بذكر المسائل ، فإنّه إن كان من تعاشره من أهله اشتغل بالعلم ، وإن لم يكن من أهله اجتنبك .

وإيّاك أن تكلّم العامّة في أصول الدِّين والكلام ، فإنّهم قوم يقلّدونك

فيشتغلون بذلك ، ومن جاءك يستفتيك في المسائل ، فلا تجب إلاَّ عن سؤاله ، ولا تضم إليه غيره ، فإنَّه يتشوّش عليه جواب سؤاله ، وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تُعْرِض عن العلم ، فإنَّكَ إذا أعرضتَ عنه كانت معيشتك ضنكاً على ماقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ ، [طه ١٢٤/٢٠] ، وأقبل على متفقهتك كأنَّك اتخذت كلَّ واحد منهم ابناً وولداً ، لتزيدهم رغبة في العلم ، ومن ناقشك من العامَّة والسُّوقة ، فلا تناقشه ، فإنَّه يذهب ماء وجهك ، ولا تحتشم أحداً عند ذكر الحقّ وإن كان سلطاناً .

ولا ترضَ لنفسك من العبادات إلاَّ بأكثر مما يفعله غيرك ويتعاطاها ، فإنَّ العامّة إذا لم يروا منك الإقبال عليها بأكثر مما يفعلونها ، اعتقدوا فيكَ السُّوء وقلة الرَّغبة فيها ، واعتقدوا أنَّ علمك لا ينفعك إلا مانفعهم الجهل الَّذي هم فيه .

وإذا دخلتَ بلدة فيها أهل العلم فلا تتخذها لنفسك ، بل كن كواحدٍ من أهلها ليعلموا أنَّك لاتقصد جاههم ؛ وإلاَّ يخرجون عليك بأجمعهم ويطعنون في مذهبك ، والعامَّة يخرجون عليك ، وينظرون إليكَ بأعينهم فتصير مطعوناً عندهم بلا فائدة ، ولا تُفْتِ إن استفتوكَ في المسائل ، ولا تناقشهم في المناظرات والمطارحات ، ولا تذكر لهم شيئاً إلاَّ عن دليل واضح ، ولا تطعن في أساتذتهم فإنَّهم يطعنون فيك ، وكن من النَّاس على حذر .

وكن لله تعالى في سرِّك كما أنتَ له في علانيتك ، ولا يصلح أمر العالِم إلاَّ بأن يجعل سِرَّه كعلانيته .

وإذا ولاَّك السُّلطان عملاً مما يصلح لك ، فلا تقبل ذلك منه إلاَّ بعد أن تعلم أنَّكَ لو لم تقبل قبله غيرك ، ويتضرَّر به النَّاس ، وبعد أن تعلم أنَّه إنَّما يوليك ذلك لعلمك .

وإياك أن تتكلّم في مجلس النّظر على خوف أو وجل ؛ فإنّ ذلـك ممـا يورث الخلل في الألفاظ واللكن في اللّسان .

وإياكَ أن تكثر الضّحـك ، فـإنّـه يميت القلب ، ولا تكثر محادثـة النّسـاء ومجـالستهن ، فـإنّـه يميت القلب أيضـاً ، ولا تمشِ إلاّ على الطمأنينـة والسّكـون ، ولا تكن عجولاً في الأُمور ، ومن دعاك من خلفك فلا تجبه ، فإنّ البهائم تنـادى من خلف ، وإذا تكلّمت فلا تكثر صياحك ، ولا ترفع صوتك ، واتّخـذ لنفسـك السّكون وقلة الحركة عادة كي يتحقّق عند النّاس ثبـاتـك ، وأكثر ذكر الله تعـالى فيما بين النّاس ليتعلّموا ذلك منك ، واتخذ لنفسك وِرْداً خلف الصّلوات ، تقرأ فيه القرآن ، وتـذكر الله تعـالى وتشكره على مـاأودعـك من الصّبر ، ومـا أَولاك من النّعم ، واتّخذ لنفسك أياماً معدودة من كلّ شهر تصوم فيهاً ، ليقتـدي غيرك بـك في ذلك ، ولا ترضَ لنفسك من العبادات بما ترضي به العامّـة ، وراقب نفسـك ، وحافظ على العلم لتنتفع في دنياك وآخرتك بعلمك ، ولا تشتر بنفسـك ولا تبع ، بل اتّخذ لك غلاماً مصلحاً يقوم بأشغالك ، وتعتمد عليـه في أُمورك ، ولا تطمئن إلى دنياك وإلى ماأنت فيه ، فـإنّ الله تعـالى سـائلـك عن جميع ذلـك ، ولا تشتر الغلمان الُمرْد .

ولا تظهر من نفسـك التّقرّب إلى السّلطـان ، وإن قرّبـوك فـإنّهم يرفعـون إليك الحوائج ، فإن قمت بها أهانوك ، وإن لم تقم بها عابوك .

ولا تتّبع النّـاس في خطـايـاهم ، بل اتبعهم في صوابهم ، وإذا عرفت إنسـانـاً بالشّرّ فلا تذكره به ، بل اطلب له خيراً فاذكره به ، إلاّ في باب الدّين فـإنّـك إن عرفت في دينه ذلك فاذكره للنّاس ، كي لا يتّبعوه ويحـذروه ، قـال عليـه الصّلاة والسّلام : « اذكروا الفـاجر بمـا فيـه حتّى يحذره النّـاس » . وإن كان ذا جـاه ومنزلة الّذي ترى منه الخلل في الدّين ، فاذكر ذلك ولا تبـال من جـاهـه ، فـإنّ الله تعـالى معينـك ونـاصرك ونـاصر الـدّين ، فـإذا فعلت ذلـك مرّة هـابـوك ولم

يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدِّين ، وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم ، فاذكر ذلك مع طاعتك إياه ، فإنَّ يده أقوى من يدك ، تقول له أنا مطيع لك في الَّذي أنت مُسَلَّطَن فيه علي ، غير أني أذكر من سيرتك ما لا يوافق العلم ، فإذا فعلت ذلك مع السُّلطان مرَّة كفاك ، لأنَّكَ إذا واظبت عليه ودمت ، لعلهم يقمعونك فيكون في ذلك قمع الدِّين ، وافعل ذلك مرَّة أو مرَّتين ليُعْرف منك الجد في الدِّين ، والحرص في الأمر بالمعروف ، فإذا فعل ذلك مرَّة أُخرى ، فادخل عليه وحدك في داره وانصحه في الدِّين وناظره إن كان مبتدعاً ، وإن كان سلطاناً فاذكر له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ، فإن قبل ذلك منك وإلاَّ فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه .

واذكر الموت ، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العِلْم ، وداوم على تلاوة القرآن ، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة ، واقبل من العامَّة ما يعرضون عليك من رؤياهم في النَّبيِّ ﷺ وفي رؤيا الصَّالحين في المساجد والمنازل المباركة والمقابر ، ولا تجالس أحداً من أهل الأهواء ، إلاَّ على سبيل الدَّعوة إلى الدِّين والصِّراط المستقيم ، ولا تكثر اللَّعن والشَّتم ، وإذا أذَّن المؤذِّن فتأهَّب لدخول المسجد ، كي لا يتقدَّم عليك العامَّة .

ولا تتَّخذ دارك في جوار السُّلطان ، وما رأيت على جارك فاستره عليه فإنَّه أمانة عندك ، ولا تظهر أسرار النَّاس ومن استشارك في شيء فأشِر عليه بما تعلم أنَّه يقربك إلى الله تعالى .

واقبل وصيَّتي هذه ، فإنَّك تنتفع بها في أُولاك وأُخراك إن شاء الله تعالى ، وإياكَ والبخل ، فإنَّه يفتضح به المرء ، ولا تَكُ طمّاعاً ولا كذّاباً ، ولا صاحب تخاليط ، بل احفظ مروءتك في الأُمور كلِّها .

والبس من الثِّياب البيض في الأحوال كلِّها ، وكن غني القلب مظهراً من

نفسك قلة الحرص والرّغبة في الدّنيا ، وأظهر من نفسك الغنى ، ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيراً ، وكن ذا همّة ، فإنّ من ضَعُفَت همّته ضَعُفَت منزلته ، وإذا مشيتَ في الطّريق فلا تلتفت يميناً وشِمالاً ، بل داوم النّظر إلى الأرض ، وإذا دخلت الحمّام فلا تساوي النّاس في أُجرة الحمّام والمجلس ، بل ارجح على ما تعطي العامّة ، لتظهر مروءتك بينهم فيعظّمونك ، ولا تسلّم الأمتعة إلى الحائك وسائر الصُّنّاع ، بل اتّخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك ، ولا تماكس بالحبّات والدّوانق ، ولا تزن الدّراهم بل اعتمد على غيرك ، وحقّر الدّنيا المحقّرة عند أهل العِلْم ، فإنّ ماعندك خير منها ، وولّ أُمورك غيرك ليكنك الإقبال على العلم ، فذلك أحفظ لجاهك ، وإياكَ أن تكلّم المجانين ، ومن لا يعرف المناظرة والْحُجّة من أهل العلم والّذين يطلبون الجاه ويتسوّقون بذكر المسائل فيما بين النّاس ، فإنّهم يقصدون تخجيلك ولا يبالون منك وإن عرفوك على الحقّ ، وإذا دخلت على قوم كبار فلا تترفّع عليهم مالم يرفعوك ، لئلا يلحق بك منهم أذيّة ، وإذا كنت في قوم فلا تتقدّم عليهم في الصّلاة مالم يقدّموك على وجه التّعظيم .

ولا تدخل الحمّام إلاّ وقت الظّهيرة أو بالغدوات ، ولا تخرج إلى النّظارات ، ولا تحضر مظالم السّلاطين ، إلاّ إذا عرفت إنّك إذا قلت شيئاً ينزلون على قولك في الحقّ ، فإنّهم إن فعلوا مالا يحل وأنت عندهم ربّما لا تملك منعهم ، ويظنّ النّاس أن ذلك حقّ لسكوتك فيما بينهم وقت الإقدام عليه ، وإياك والغضب في مجلس العِلْم ، ولا تقص على العامّة ، فإنّ القاص لابد له أن يكذب ، وإذا أردت اتّخاذ مجلس العِلْم لأحدٍ من أهل العِلْم ، فإن كان مجلس فقه ، فاحضر بنفسك واذكر فيه ماتعلمه كي لا يغتر النّاس بحضورك ، فيظنّون أنّه على صفة من العلم وليس هو على تلك الصّفة ، فإنْ كان يصلح للفتوى ، فاذكر منه ذلك ، وإلاّ فلا تقعد أنت ليدرس بين يديك ، بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفيّة كلامه وكمية علمه ، ولا تحضر مجالس الذّكر أو مَنْ يتّخذ مجلس عظة بجاهك وتزكيتك له ،

بل وجِّه أهل محلَّتك وعامَّتك الَّذين تعتمد عليهم مع واحد من أصحابك ، وفوِّض أمر الخطبة في المناكح إلى خطيب ناحيتك ، وكذا صلاة الجنائز والعيدَيْن .

ولا تنسني من صالح دعائك ، واقبل هذه الموعظة منّي ، وإنَّما أُوصيك لمصلحتك ومصلحة المسلمين[١] .

قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء - وكان أوَّل من ولاَّه القضاء الهادي ، وهو أوَّل من لقب قاضي القضاة ، وكان يقول له : قاضي قضاة الدنيا ، لأنَّه كان يستنيب في سائر الأقاليم الَّتي يحكم فيها الخليفة - بينما أنا ذات يوم عند الرَّشيد ، إذ أُتِيَ بفالوذج في صحن فيروزج ، فقال لي : كُلْ من هذا ، فإنَّه لا يُصنع لنا في كلِّ وقت ، وقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا الفالوذج ، قال : فتبسمت ، فقال : مالك تبتسم ؟ فقلت : لا شيء ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرني ، فقصصت عليه القصة ، فقال : إنَّ العلم ينفع ويرفع في الدُّنيا والآخرة ، ثم قال : رحم الله أبا حنيفة ، فلقد كان ينظر بعين عقله ، ما لا ينظر بعين رأسه[٢] .

وحين حجَّ أبو يوسف أصاب الواقدي بحال ضيِّقة ، فحمله معه إلى بغداد ، فأُكرم بمال وفير فاستكثره ، فقال أبو يوسف له : لست أرضى لك بها حتَّى أزداد لك ، وهذا يدل على ما كانت عليه منزلة الواقدي عند أبي يوسف ، ومدى نفاذ كلمة أبي يوسف ، ومبلغ تقدير العلم في ذلك العهد .

وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف : إنَّه أعلم أصحابه .

وقال الحسين بن الوليد : كان أبو يوسف إذا تكلَّم يدهش الإنسان ، ويحيِّر من دقَّة كلامه .

---

(١) حُسْنُ التَّقاضي في سيرة الإمام أبي يوسُف القاضي : ٩٤ - ١٠١

(٢) وفيات الأعيان : ٦/٣٨٠

وقال المزني : كان أبو يوسف أتبعهم للحديث .

وكان علي بن صالح إذا حدَّث عن أبي يوسف يقول : حدَّثني أفقه الفقهاء ، وقاضي القضاة ، وسيد العلماء أبو يوسف .

وقال ابن المديني : كان صدوقاً .

وقال ابن معين : كان ثقة ، « ما رأيت في أصحاب الرَّأي أثبت في الحديث ، ولا أحفظ ، ولا أصح رواية من أبي يوسف »(١) .

وقال أبو زرعة : كان سليماً من التَّجهم(٢) .

قال عباد بن العوام في يوم موته(٣) : ينبغي لأهل الإسلام أن يُعزِّي بعضهم بعضاً بأبي يوسف(٤) .

من كلام أبي يوسف : « من طلب المال بالكيا أفلس ، ومن تتبَّع غرائب الحديث كذب ، ومن طلب العلم بالكلام تزندق »(٥) .

كان أبو يوسف يَؤُم الرَّشيد ويعلمه ويحجّ معه على بعير واحد ، ويدخل عليه راكباً بغلته ، ويقول الرَّشيد متعجباً : هاتوا لي مثله ، ولما مات قُدِّرت ثروته بمليونين .

هذا شيء مختصر عن حياة أبي يوسف ، قاضي قضاة الرَّشيد ، ومن وضع

---

(١) النجوم الزاهرة : ١٠٨/٢

(٢) البداية والنهاية : ١٨٠/١٠

(٣) توفي عام : ١٨٢ هـ .

(٤) النجوم الزاهرة : ١٠٨/٢

(٥) البداية والنهاية : ١٨٠/١٠ ، والكيا : يعني بها الكيمياء والمشتغلين بها لتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة .

المنهج الاقتصادي له ، وفق شريعة الله عزّ وجلّ . لقد كان الرّشيد حريصاً على دقة النّظام المالي في دولته ، فلا يُظلم أحدٌ ، ويصل الحق إلى كلّ أفراد أمته ، وما وُضع « كتاب الْخَراج » إلاّ لهذا !!

هذه لمحات من سيرة أبي يوسف القاضي ، وعن كتابه (الْخَراج) ، الّذي كان رسالة إلى الرّشيد في أحكام الأموال ، ألّفها على طلب منه ، ومقدّمتها تدل على أنّه لم يكن يحابي أحداً في الحقّ ، ولم يؤلّف أحد من أهل طبقته مثيل هذا الكتاب ، بل لو قلنا : لم يؤلّف مثله لم نكن مغالين ، فمن طالع الكتاب ، وقارنه بالكتب الّتي أُلّفت في هذا الباب اعترف بذلك .

ومع ذلك لم يَعْدَم أبو يوسف حاسداً حاقداً ، فقد قيل عنه بهتاناً وإفكاً[1] :

لما أفضت الخلافة إلى الرّشيد ، وقَعَت في نفسه جارية من جواري المهدي ، فراودها عن نفسها ، فقالت : لا أصلح لك ، إنّ أباك قد طاف بي ، فشغف بها ، فأرسلَ إلى أبي يوسف ، فسأله أعندك في هذا شيء ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أوَ كلّما ادّعت أَمَةٌ شيئاً ينبغي أن تصدّق ، لا تصدّقها ، فإنّها ليست بمأمونة .

وجُعِلَ تتمة الخبر عن لسان ابن المبارك حيث قال : فلم أدرِ ممّن أعجب ، من هذا الّذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه ، أو من هذه الأَمَة الّتي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين ، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها ! قال : اهْتِكْ حرمة أبيك ، واقض شهوتك ، وصيّره في رقبتي ؟!!

لقد تناولوا أبا يوسف ، كما تناولوا الرّشيد ، وهو الّذي لم تأخذه بالله لومة لائم ، من ذلك :

(١) انظر تاريخ الخلفاء : ٢٩١ وما بعدها ، عن كتاب (الطيوريّات) للسّلَفي .

ردَّ أبو يوسف شهادة الوزير الفضل بن الرَّبيع ، فسأله الرَّشيد فقال : سمعته يقول : أنا عبد الخليفة ، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد ، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة أيضاً لكذبه ، وبالغ الخليفة في الْجدَل ، فقال : وما شأني كشاهد ، أتقبل شهادتي ؟ فقال أبو يوسف : لا ، فيعجب الرَّشيد ، ويسأله عن السَّبب ، فقال : لأنَّك تتكبَّر على الْخَلْق ، ولا تحضر الجماعة من المسلمين ، وهذا ينافي العدالة الَّتي هي شرط لقبول الشَّهادة ، فبنى الرَّشيد مسجداً في داره ، وأذِن للعامَّة في الصَّلاة فيه ، فحضر بذلك صلاة الجماعة .

مناجاته لله لما حضرته الوفاة :

« اللَّهم إنَّك تعلم إنِّي نظرت في كلِّ حادثة وقعت في كتابك ، فإن وجدت الفَرَج وإلاَّ نظرت في سُنَّة نبيِّك عليه السَّلام ، فإن وجدت الفَرَج وإلاَّ نظرت في أقاويل الصَّحابة ، فإن وجدت الفرَج وإلاَّ جعلت أبا حنيفة جسراً بيني وبينك .

اللَّهم وإنَّك تعلم أنِّي ماختصم إليَّ اثنان ، ضعيف وقوي إلاَّ سويت بينهما ، ولم يمل قلبي إلى القوي ، اللَّهم وإن كنت تعلم ذلك فاغفر لي .

يا ليتني لم أدخل في القضاء ، على أنِّي بحمد الله تعالى ماتعمدت جوراً ، ولا حابيت خصماً على خصم من سلطان أو سوقة .

اللَّهم إنَّك تعلم أنِّي لم أَجُرْ في حكم حكمت به بين عبادك متعمِّداً ، ولقد اجتهدت في الأحكام بما يوافق كتابك وسُنَّة نبيِّك ﷺ ، وما أشكل جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان أبو حنيفة يعرف أمرك ولا يخرج عن حكمك »[1] .

ولما ٱحتضر أبو يوسف ، قيل له : في نفسك شيء من هذا الأمر ؟ يعني

---

(١) حُسْنُ التَّقاضي : ٦٣

القضاء ، قال : لا والله ، إلاّ شيئاً واحداً ، ادّعى نصراني مرّة على الرّشيد ضيعة ، فدعوت بالرّشيد وبالنّصراني ، فجاء الرّشيد ومُصَلّى يُحْمَل له فجلس عليه ، ولم أدعُ للنّصراني بمُصَلّى مثله ، فذاك في نفسي .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة مات أبو يوسف وهو ابن تسع وستين سنة ، وولي القضاء سنة ست وستين ومئة وأقام على القضاء إلى أن مات خمس عشرة سنة[1] .

☆ ☆ ☆

أبو عبد الله مُحمّد بن الْحَسَن الشيباني (قاضي القضاة بعد أبي يوسف) :

صاحب أبي حنيفة وإمام أهل الرّأي ، أصله دمشقي من أهل حرستا ، قدم أبوه العراق ، فولد له محمد بواسط عام ١٣٢ هـ ، ونشأ بالكوفة ، وسمع العلم بها من أبي حنيفة وسفيان الثّوري وغيرهما .. وسكن بغداد وحدّث بها .

ولاّه الرّشيد القضاء بعد أبي يوسف ، فلازم الرّشيد وكان يصحبه في سفره ، ومات في خُراسان عندما كان مع الرّشيد ، مات بالرّي ودفن بها سنة ١٨٩ هـ وله ثمان وخمسون سنة تقريباً ، وترك ثلاثين ألف درهم ، فأُنفقت خمسة عشر ألفاً على النّحو والشّعر ، وخمسة عشر ألفاً على الحديث والفقه .

يقول الشّافعي : سمعت محمد بن الحسن يقول : « أقمت على باب مالك ثلاث سنين وكسراً ، وسمعت منه لفظاً أكثر من سبع مئة حديث » . وكان إذا حدث عن مالك امتلأ منزله ، وكثر النّاس عليه ، حتّى يضيق عليه الموضع . وقيل عنه : « هو من أعلم خلق الله بكتاب الله » .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ٣٥١/٣

ويقول الشّافعي : « لو أشاء أن أقول إنّ القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن لقلتُهُ لفصاحته » ، وقال أيضاً : « مارأيت سميناً أخف روحاً من محمد بن الحسن ، وما رأيت أفصح منه ، كنت إذا رأيته يقرأ كأنّ القرآن نزل بلغته » .

سُئِل المزني عن أهل العراق ، فقيل له : ماتقول في أبي حنيفة ؟ قال : سيِّدهم .

ـ فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث .

ـ فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً .

ـ فَزُفَر ؟ قال : أحدُّهم قياساً .

وقال المزني : سمعت الشافعي يقول : « أمَنُّ النّاسِ عليَّ في الفقه محمد بن الحسن »[1] .

هذه الشّخصيّة العلميّة أصبح صاحبها فقيه الدّولة الأوّل بعد موت أبي يوسف ، وهما المعروفان بأنّهما « الصّاحبان » للإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان . هذه الشّخصية كانت ملازمة للرّشيد بعد وفاة أبي يوسف سنة ١٨٢ هـ .

☆ ☆ ☆

عبد الله بن المبارك : عالم المشرق والمغرب وما بينهما ، لما جمع في أعماله من فهم رائع سليم للشّريعة الحنيفة . فلقد جمع : العلم والفقه والأدب والنّحو واللُّغة ، والزُّهد والشّجاعة ، والشِّعر والفصاحة ، والورع والإنصاف ، وقيام اللّيل والعبادة ، والحج والغزو والفروسيّة ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والشدّة في رأيه ، وقلة الخلاف على أصحابه[2] .

---

(١) راجع تاريخ بغداد : ١٧٢/٢ ـ ١٨٢ ، فيها أخبار محمد بن الحسن الشّيباني .

(٢) تذكرة الحفاظ : ٢٥٤/١ ، وتهذيب الأسماء واللغات : ٢٨٥/١

هذه الشّخصيّة المثاليّة ، كان لها عند الرّشيد مكانة عالية ، أخرج ابن عساكر عن ابن علية : أخذ هارون الرّشيد زنديقاً ، فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزّنديق : لم تضرب عنقي ؟

قال الرّشيد له : أُريح العباد منك .

قال الزّنديق : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها مافيها حرف نطق به ؟

قال الرّشيد : فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري ، وعبد الله بن المبارك ، فينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً[١] .

ولما مات ابن المبارك ، وبلغ خبر وفاته الرّشيد قال : مات سيّدُ العلماء ، ثم جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزّوه في ابن المبارك[٢] .

☆ ☆ ☆

الفضيل بن عيّاض : حجَّ الرّشيد عام ١٨١ هـ ، فدعا علماء مكة المكرمة ، وبرَّهم ووصلهم ؛ قال سفيان بن عُيَيْنَة : دعانا هارون فدخلنا عليه ، ودخل الفضيل بن عياض آخرنا ملتفاً رأسه بردائه[٣] .

وتوالت اللّقاءات بين الرّشيد ، الخليفة المسلم ، وبين الفضيل العالم المسلم[٤] .. وكما قال ﷺ : « صنفان من النّاس إذا صَلُحا صلح النّاس ، وإذا

(١) تذكرة الحفاظ : ٢٥٢/١ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

(٢) سير أعلام النُّبلاء : ٢٨٨/٩ ، تاريخ الخلفاء : ٢١٥ . توفي ابن المبارك في سنة إحدى وثمانين ومئة ببلدة (هيت) بعد منصرفه من طَرَسوس . مروج الذهب : ٣٥٠/٣

(٣) وقد مر الخبر مفصلاً ص ٨١

(٤) من دعاء الفضيل : « اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو الاستغفار والإيمان ، وعصيتُ الشّيطان في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك ، فاغفر لي ما بينهما ، اللهم إنّ حسناتي من =

فسدا فسد النّاس ، العلماء والأُمراء »[1] . لقد اجتمع صلاح الأمير مع صلاح العالم ، فزاد العالمُ الأمير صلاحاً وخشية لله عز وجل .

قال الفضل بن الربيع : حجَّ هارون الرَّشيد ، فبينما أنا نائم ، إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟!

فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً ، فإذا أنا به ، أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليَّ أتيتك ، فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلاَّ عالم ، انظر إليَّ رجلاً أسأله .

فقلت : ههنا سفيان بن عيينة .

فقال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً وقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك .

فقال الرَّشيد : جد لنا ماجئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال سفيان بن عيينة : نعم ، فقال الرَّشيد : يا عباس اقضِ دَيْنَه ، ثم انصرفنا .

فقال الرَّشيد لابن الرَّبيع : ماأغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا عبد الرَّزاق بن همام . فقال : امضِ بنا إليه نسأله ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك . فقال : جد لنا

= عطائك ، وسيئاتي من قضائك ، فجد بما أعطيت على مابه قضيت حتّى يُمحى ذلك بذلك » . النجوم الزاهرة : ١٢٣/٢

(١) أبو نُعيم في الحلية .

ماجئنا إليه ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ فقال : نعم ، فقال الرَّشيد : يا عباس اقضِ دينه ، ثم انصرفنا .

فقال الرشيد : ماأغنى عني صاحبك شيئاً ! فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا الفضيل بن عياض ، فقال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلِّي في غرفته يتلو آية من كتاب الله ويردِّدها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين .

فقال : مالي ولأمير المؤمنين ؟!

فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟!

فقال : أو ليس قد رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » ؟ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السِّراج ، ثمَّ التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كفُّ الرَّشيد كفي إليه ، فقال : أواه من كف ماألينها إن نجت من عذاب الله تعالى ، قال : فقلت في نفسي ليكلمنَّه اللَّيلة بكلام نقي من قلب تقي .

قال الرَّشيد : جد لنا ماجئنا له يرحمك الله .

قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك ، وجميع من معك حملوا عليك حتَّى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك جزءاً من ذنب مافعلوا ، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك .

ثم قال : إنَّ عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إنِّي قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ ، فعدّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنتَ وأصحابك نعمة ، فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النَّجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدُّنيا ، وليكن

إفطارك فيها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النَّجاة من عذاب الله غداً ، فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم ولداً ، فبرّ أباك ، وارحم أخاك ، وتحنَّن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إذا أردت النَّجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ماتكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإنِّي لأقول لك هذا ، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزِلّ الأقدام . فهل معك رحمك الله من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟

فبكى الرَّشيد بكاء شديداً ، حتَّى غشي عليه ، فقال الفضل بن الربيع : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال الفضيل بن عياض : يا بن أُمّ الرَّبيع قتلته أنت وأصحابك ، وأُرفق به أنا ، ثمَّ أفاق . فقال : زدني .. فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ العباس عم النَّبيِّ ﷺ جاءه فقال : يا رسول الله أمِّرني على إمارة ، فقال له النبي ﷺ : يا عباس ، يا عم النَّبي ، نفس تحييها خير من إمارة لاتحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لاتكون أميراً فافعل ، فبكى هارون الرَّشيد بكاء شديداً ، ثم قال : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الَّذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النَّار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فإنَّ النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشّاً ، لم يرح رائحة الجنَّة » .

فبكى الرَّشيد بكاءً شديداً ، ثم قال : عليك دَيْن ؟

قال : نعم ، دَيْن لربِّي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجَّتي .

الرَّشيد : إنَّما أعني دَيْن العباد !

الفضيل بن عياض : إنَّ ربي لم يأمرني بهذا ، وأمرني أن أُصدِّق وعده ،

وأُطيع أمره ، قال تعالى : ﴿ وَما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدون ، ما أُريدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ ، وما أُريدُ أنْ يُطعِمُونِ ، إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ الْمَتينُ ﴾ ، [الذاريات ٥١/٥٦ و ٥٧ و ٥٨] .

الرَّشيد : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادة ربِّك .

الفضيل : سبحان الله !! أنا أدلك على النَّجاة ، وتكافئني بمثل هذا ! سلَّمك الله ووفقك .

ثم صمت ولم يكلم أحداً ، فخرج الرَّشيد والفضل بن الربيع ومن معهما ، فقال الرَّشيد : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، هذا سيِّد المسلمين اليوم .

ثم دخلت امرأة من أهل الفضيل عليه ، وقالت : يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به !

فقال : إنَّما مثلي ومثلكم ، كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلَمَّا كبر نحروه ، فأكلوا لحمه ، موتوا يا أهلي جوعاً ، ولا تذبحوا فضيلاً .

فلما سمع الرَّشيد ذلك ، قال : ادخل فعسى أن يقبل المال ، قال الفضل بن الربيع : فدخلنا فلما علم بنا الفضيل ، خرج وجلس على التُّراب على السَّطح ، فجاء هارون الرَّشيد ، فجلس إلى جانبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينما نحن كذلك إذ خرجت طفلة سوداء فقالت : يا هذا .. قد آذيت الشَّيخ منذ اللَّيلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا .

وموقف الفضيل هذا لا يعني أنَّه كان قاسياً مبغضاً للرَّشيد ، هذا الموقف كان دواء لموقف يحتاج هذا الدَّواء ، لقد كان الفضيل يقدِّر الرَّشيد ويجلّه ، ويحبه حبّاً عظيماً ، وكلٌّ من الرَّجلَيْن يعرف مكانة الآخر ، فالرَّشيد يرى الفضيل العالم الفاضل ، يشع إيماناً وتقوى وورعاً ويقيناً وإخلاصاً ، والفضيل يرى الرَّشيد

الخليفة المسلم ، غزير الدَّمع إذا ذُكِّر بالله ورسوله ، مجالسه تقوى وأدب وعلم ، قاضي قضاته أبو يوسف صاحب كتاب (الْخَرَاج) ، يعرفه مؤمناً يحج عاماً ، ويغزو في سبيل الله عاماً ، يعرفه محباً لله عزَّ وجلَّ ، ومحباً لرسول الله ﷺ كلُّ ذلك يجعله يتقبل النُّصح ، ويترك هذا الموقف في نفسه أثراً عميقاً ، يبقى ذخيرة إيمان ومراقبة لله زمناً طويلاً . ولو كان إيمان الرَّشيد رقيقاً ضحلاً ، لكانت حكمة الفضيل تجعله في موقف مغاير .

فالفضيل يعلم قيمة صلاح الإمام الأمير ، لذلك قال : لو كانت لي دعوة مستجابة لاأجعلها إلاَّ في إمام صالح ، لأنَّه إذا صلح الإمام أمِنَ العباد .

وقال له الرَّشيد يوماً : ماأزهدك ! فقال الفضيل : أنت أزهد مني ، لأنِّي أنا زهدت في الدُّنيا الَّتي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة ، فأنا زاهد في الفاني ، وأنت زاهد في الباقي ، ومن زهد في درة ، أزهد ممن زهد في بعرة(١) .

لقد كانت مثل هذه المواقف وقوداً روحيّاً للرَّشيد ، تذكره بالله ولقائه ، فيها النُّصح المناسب ، للرَّجل المناسب ، من الرَّجل المناسب . ودليل نجاعة هذه المواقف ، قول الرَّشيد للفضل بن الربيع : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ؛ هذا سيد المسلمين اليوم .

ومع ماسبق كان الفضيل بن عياض يقول بحق الرَّشيد في غيبته : النَّاس يكرهون هذا ـ وهم الطَّالبيون والشِّيعة ـ وما في الأرض أعز عليَّ منه ، لو أنَّه حتَّى يضع رأسه ، لرأيت أُموراً عظاماً(٢) .

وقال الفضيل أيضاً : مامن نفس تموت أشد عليَّ موتاً من هارون أمير المؤمنين ، قال : وددت أن الله زاد في عمره من عمري(٣)

---

(١) البداية والنهاية : ١٩٨/١٠

(٢و٣) تاريخ بغداد : ١٢/١٤

هذه شهادة للحقيقة ، لأنَّ الفضيل لم ينل درهماً واحداً من الرَّشيد . وكان ماتنبأ به الفضيل بعد وفاة الرَّشيد ؛ فقد ظهرت الفتن ، وكان من المأمون ما حمل النَّاس على أن القرآن مخلوق ، فقال الناس : كان الشَّيخ ـ أي الفضيل ـ أعلم بما تكلم به[1] .

لله در الرَّجُلَيْن ، العالم والخليفة ، فالأوَّل نعم النَّاصح لله ، والثَّاني نعم المتقبِّل للنُّصح لإيمانه العميق بالله .

☆ ☆ ☆

الإمام مالك بن أنس

« قال الإمام مالك : شاورني هارون الرَّشيد في أن يعلِّق الموطأ في الكعبة ، ويحمل النَّاس على مافيه ، فقلت : لا تفعل ، فإنَّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب » .

« قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ماأعلم أنَّ لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرَّشيد ، فإنَّه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله ، قال : وكان أصل الموطَّأ بسماع الرَّشيد في خزانة المصريِّين ، قال : ثمَّ رحل لسماعه السُّلطان صلاح الدِّين بن أيوب إلى الإسكندريَّة ، فسمعه عن ابن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لهما ثالثاً »[2] .

---

(١) توفي الفضيل بن عياض سنة سبع وثمانين ومئة ، ويكنى أبا علي ، وكان مولده بخراسان ، وقدم الكوفة وسمع من المنصور بن المعتمر وغيره ، ثم تعبَّد وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

ألحَّ المهدي على الإمام مالك أن يسعى إلى قصره ليعلِّم ابنيه موسى وهارون ، فقال الإمام مالك : لا يا أمير المؤمنين ، العلم يُؤتى ولا يأتي ، واضطر المهدي (خليفة المسلمين) أن يبعث ولديه موسى وهارون إلى الإمام مالك ليتلقيا العلم من (إمام دار الهجرة) فكانا يقفان على المنزل ، فيدقان الباب والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق[(١)] ، حتَّى يأتي الإذن ، فيسرعان بالدُّخول .

إذن الإمام مالك أُستاذ الرَّشيد في الفقه والحديث ، فنعم الأُستاذ ، ونعم الطَّالب . لقد بقيت خشية الرَّشيد من أُستاذه مع احترامه له ، حتَّى بعد توليه خلافة المسلمين ، كما بقيت هيبة الإمام مالك في نفس الرَّشيد ، لقد زار الرَّشيد المدينة المنوَّرة مرة فزار أُستاذه الإمام مالكاً ، وجلس بين يديه ، وسمع منه ، ومرة أخرى دخل الرَّشيد فقال له مالك : من تواضع إلى الله رفعه ، ومن تكبر وضعه ، فقال الرَّشيد : ماذا صنعت ؟ ـ وكان قد دخل مجلس الحديث ، وأخذ مكانه إلى جوار مالك ـ فقال الإمام مالك : إنَّ من جلال الله ، إجلال ذي الشَّيبة المسلم في مجلس علمه ، فقم واقعد بين يدي ، فأسرع الرَّشيد ممتثلاً .

ومما يذكر أنَّ الرشيد جاءته أيضاً رسالة من الإمام مالك[(٢)] تتضمن خطة حياة كاملة « إسلامية ملتزمة بدينها وطاعة ربها » ، هي[(٣)] :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) العقيق : واد بظاهر المدينة . مختار الصحاح : ٣٨٢

(٢) توفي مالك أيَّام الرَّشيد ، وهو ابن تسعين سنة .

(٣) على مافيها من هنات تشككنا بنسبتها كلها إلى الإمام مالك .

أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك فيه رشداً ، ولم أدخرك فيه نصحاً ، تحميداً لله ، وأدباً عن رسول الله ﷺ فتدبره بعقلك ، وردد فيه بصرك وأعِرْهُ سمعك ، ثم اعقله بقلبك ، وأحضر فهمك ، ولا تغيبن عنه ذهنك ، فإنَّ فيه الفضل في الدُّنيا ، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة .

اذكر نفسك في غمرات الموت وَكَرْبِهِ ، وما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ، ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب ، وأعد لله عزَّ وجلَّ ما يسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وكَرْبها ، فإنَّك لو رأيت أهل سخط الله تعالى ، وما صاروا إليه من ألوان العذاب ، وشدة نقمته عليهم ، وسمعت زفيرهم في النَّار ، وشهيقهم مع كلوح[1] وجوههم وطول غمهم ، وتقلبهم في دركاتها على وجوههم لا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثُّبُور[2] ، وأعظم من ذلك حسرة إعراض الله عنهم ، وانقطاع رجائهم وإجابته إيَّاهم بعد طول الغم بقوله : ﴿ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون ١٠٨/٢٣] ، لم يتعاظمك شيءٌ من الدُّنيا إن أردت النَّجاة من ذلك ، ولا أمنك من هَوْلِهِ ، ولو قدمت في طلب النجاة منه جميع ماملك أهل الدُّنيا ، كان في معاينتك ذلك صغيراً ، ولو رأيت أهل طاعة الله تعالى وما صاروا إليه من كرم الله عزَّ وجلَّ ، ومنزلتهم مع قربهم من الله عزَّ وجلَّ ونضرة وجوههم ، ونور ألوانهم وسرورهم بالنَّعيم المقيم ، والنظر إليه والمكانة منه ، لتقلَّل في عينك عظيم ماطلبت به صغير ماعند الله ، ولصغر في عينك جسيم ماطلبت به صغير ذلك من الدُّنيا ، فاحذر على نفسك حذراً غير تغرير ، وبادر بنفسك قبل أن تسبق إليها وما تخاف الحسرة عند نزول الموت ، وخاصم نفسك على مهل وأنت

---

(١) الكُلُوحُ : تكشُّرٌ في عبوس ، والكُلاحُ والكُلوح : بُدُوُّ الأسنان عند العُبوس .. [اللِّسان : كلح] ، وفي التَّنزيل : ﴿ تَلْفَحُ وُجوهَهم النَّارُ وهم فيها كالحون ﴾ .

(٢) الثُّبور : الهلاك والخسران والويل ، [اللِّسان : ثبر] .

تقدر بإذن الله على جرِّ المنفعة إليها ، وصرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها ، واجعل من نفسك لنفسك نصيباً بالليل والنهار ، وصلِّ من النَّهار اثنتى عشرة ركعة ، واقرأ فيهن ما أحببت ، إن شئت صلهنَّ جميعاً ، وإن شئت متفرقات ؛ فإنه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال : « من صلى من النَّهار اثنتى عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة »(١) ، وصلِّ من اللَّيل ثمان ركعات بجزء من القرآن ، وأعط كل ركعة حقها ، والَّذي ينبغي فيه من تمام الرُّكوع والسُّجود وصلهنَّ مثنى مثنى ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يصلي من اللَّيل ثمان ركعات ، والوتر ثلاث ركعات سوى ذلك ، يُسَلِّم من كلِّ اثنتين .

وصُمْ ثلاثة أيام من كلِّ شهر : الثَّالث عشر والرَّابع عشر والخامس عشر ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « ذلك صيامُ الدَّهر »(٢) .

وأعطِ زكاة مالك طيبة بها نفسك حين يحول عليه الحول ، ولا تؤخرها بعد حلِّها ، وضعها فيمن أمر الله تعالى ولا تضعها إلاَّ في أهل ملتك من المسلمين ، فإنه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : إنَّ الله تعالى لم يرضَ من الصَّدقة بحكم نبي ولا غيره(٣) حتى حدَّها هو على ثمانية أجزاء ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ إنَّما الصَّدقاتُ للفُقَراءِ وَالْمَساكينِ والعامِلينَ عَلَيْها والمؤَلَّفَةِ قُلوبُهُمْ وفي الرِّقابِ والغارِمينَ وفي سَبيلِ اللهِ وابنِ السَّبيلِ .. ﴾ [التَّوبة ٩/٦٠] .

واحجُج حجةَ الإسلام من أطيب مالك وأزكاه عندك ، فإنَّ الله تعالى

(١) « مَنْ صلَّى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة ـ سوى الفريضة ـ بُنِيَ له بيتٌ في الجنَّة » ، أم حبيبة ، وأبو هريرة .

(٢) التِّرمذي في أبواب الصَّوم ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٣) أبو داود عن زياد بن الحارث .

لا يقبل إلاَّ طيِّباً ، وبلغني أنَّ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيهِ .. ﴾ [البقرة ٢٠٣/٢] ، غُفِرَ له .

مُرْ بطاعة الله ، وأَحبب عليها ، وَانْهَ عن معاصي الله تعالى وأبغض عليها ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإنَّما هلك من كان قبلكم بتركهم نهيهم عن المعاصي ، ولم ينههم الرَّبَّانيُّون والأحبار ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، من قبل أن ينزل بكم الَّذي نزل بهم ، فإنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، لا يقدم أجلاً ولا يقطع رزقاً »[١] .

أحسن إلى من خولك الله تعالى ، واشكر تفضيله إيَّاك عليهم ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يصلي فانصرف وقال : « أطَّتِ[٢] السَّماء وحقَّ لها أن تئِط ، مافيها موضع أربع أصابع إلاَّ عليه جبهةُ مَلَكٍ ساجدٍ »[٣] ، فمن كان له خَوَلٌ[٤] فليحسن إليه ، ومن كره فليستبدل ، ولا تعذِّبوا خلق الله ، ألزم الأدب من وُلِّيت أمرَه وأدَبه ، ومن وجب عليك النَّظر في أمره ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال للفضل بن العباس : « لاترفع عصاك على أهلك ، وأخفهم في الله »[٥] ، لاتستسلم إلى الناس واستجرهم في طاعة الله ، لاتغمص[٦] النَّاس ، واخفض لهم جناحك ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « ألا أُحدثكم بوصية نوح لابنه ، قال :

آمرك باثنين وأنهاك عن اثنين ، آمرك بقول لاإله إلاَّ الله ، فإنَّها لو كانت في كفَّة ، والسَّموات والأرض في كفَّة وَزَنَتْها ، ولو وضعتها على حلقة قصمتها .

(١) ابو نعيم في الحلية .
(٢) أطَّت الإبل تئطُّ أطيطاً : أنَّت تعباً أو حنيناً .. [اللِّسان : أطط] .
(٣) أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي ذر مرفوعاً .
(٤) الْخَوَل : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، [اللِّسان : خول] .
(٥) العسكري في الأنفال عن ابن عمر .
(٦) غمصه : حقَّره واستصغره ولم يره شيئاً ، [اللِّسان : غمص] .

وقل : سبحان الله وبحمده ، فإنَّها عبادة الخلق ، وبها تُقْطَع أرزاقهم فإنَّهما يكثران لمن قالهما الولوج على الله عز وجل .

وأنهاك عن الشِّرك والكِبْر ، فإنَّ الله محتجب عنهما ، فقال له بعض أصحابه : أمِن الكبر أن يكون لي الدَّابة النَّجيبة ؟ قال : لا ، قال : أمِنَ الكِبْر أن يكون لي الثَّوب الحسن ؟ قال : لا . قال : أفمن الكِبْرِ أن يكون لي الطعام أجمع عليه النَّاس ؟ قال : لا ، إنَّما الكبر أن تسفه الحق ، وتغمص الخلق » وإياك والكبر والزُّهو فإن الله عزَّ وجلَّ لا يحبهما .

وبلغني عن بعض العلماء أنَّه قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة في صور الذَّرِّ[1] تطؤهم النَّاس بتكبرهم على الله عزَّ وجلَّ .

لا تأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله ، فإنَّه بلغني عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال :
« شاور في أمرك الذين يخافون الله » .

احذر بطانة السُّوء وأهل الرَّدى على نفسك ، فإنه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ قال : « ما من نبيٍّ ولا خليفة إلاَّ وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالاً »[2] . وهو مع الَّتي استولت عليه ، ومن وقي بطانة السُّوء فقد وقي ، واستبطن أهل التَّقوى من النَّاس .

وأكرم ضيفك فإنَّه يحقّ عليك إكرامه ، وأرع حق جارك ببذل المعروف ، وكفّ الأذى عنه ؛ فإنه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[3] .

---

(١) الذَّرُّ : صغار النَّمل ، واحدته ذرَّة ، [اللِّسان : ذرر] .
(٢) الْخَبَل : الفساد ، [اللسان : خبل] . والحديث في مسند الإمام أحمد والأربعة عن أبي هريرة .
(٣) مسلم والترمذي ، وبلفظ مقارب عند البخاري .

وتكلم بخير أو اسكت ؛ فإنه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[1] ، واتَّق فضول المنطق[2] ؛ فإنه بلغني عن ابن مسعود أنَّه قال : أُنذركم فضول المنطق .

وأكرم من وادَّك وكافئه بمودته ، وإياك والغضب في غير الله ، لا تأمر بخير إلاَّ بدأتَ بفعله ، ولا تَنْهَ عن سوءٍ إلاَّ بدأت بتركه ، دع من الأمر ما لا يعنيك ؛ فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[3] .

صِلْ من قطعك ، واعفُ عمَّن ظلمك ؛ وأعطِ من حرمك ، فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّها أفضل أخلاق الدُّنيا والآخرة » .

اتَّقِ كثرة الضَّحك فإنَّه يدعو إلى السَّفه ، فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ « أنَّ ضحكه كان تبسماً »[4] .

لا تمزح فتندم نفسك ؛ فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنِّي لأمزح ولا أقول إلاَّ حقاً »[5] .

لا تخالف إلى ما نهيت عنه ، وإذا نطقت فأوجز ؛ فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « وهل يكبُّ النَّاس في نار جهنم إلاَّ هذا »[6] ، يعني لسانه .

لا تصعِّر خدَّك للنَّاس[7] ؛ فإنَّه بلغني عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّ أهل الجنَّة كلُّ هيِّن ليِّن سهل طلق » .

---

(١) مسلم والترمذي .

(٢) كلام كلِّ شيء : مَنْطقه ، [اللّسان : نطق] .

(٣) الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند .

(٤) البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

(٥) الترمذي وأبو داود .

(٦) متَّفق عليه .

(٧) الصَّعَر : ميلٌ في الوجه ، وقد صَعَّر خدَّه وصاعره : أماله من الكِبْر ، [اللّسان : صعر] .

اترك من أعمال السّر ما لا يحسن بك أن تعمله في العلانية . اتّقِ كلّ شيء تخاف فيه تهمة في دينك ودنياك ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التُّهم » .

أقلل طلب الحوائج من النّاس فإنّ في ذلك غضاضة ؛ وبلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « لا تسأل النّاس » .

وليكن مجلسك بيتك أو مسجدك ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « المساجد بيوت المتّقين »[1] .

لا تكثر الشّخوص من بيتك إلاّ في أمر لا بدّ منه ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « ستة مجالس المسلم ضامن على الله ما كان في شيء منهن : في سبيل الله ، أو في بيت الله ، أو في عيادة مريض ، أو شهود جنازة أو جمعة ، أو عند إمام مقسط يعزره ويوقره »[2] .

أحسن خُلُقك مع أهلك ، ومن اعتزّ بك ، فإنّ في ذلك رضى لربّك ومحبة في أهلك ومثراة في مالك ، ومنسأة في أجَلك ؛ فإنّه بلغني عن بعض العلماء من الصّحابة أنّه قال ذلك .

أحسن البِشْر إلى عامة النّاس ، واتّقِ شتمهم وغيبتهم فإن الله تعالى قال : ﴿ أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ .. ﴾ [الحجرات : ١٢/٤٩] ، وبلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « لا تشتم النّاس »[3] .

---

(١) الطّبراني في الكبير والأوسط والبزّار .

(٢) البزّار والطّبراني عن ابن عمر .

(٣) أبو داود ، وابن حبان .

اتَّقِ أهل الفحش ، ومجالسة أهل الرَّدى ، ومحادثة الضعفة من النَّاس ؛ فإنَّه بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال : « اعتبر النَّاس بأخدانهم[1] ، فإنّما يخادن الرَّجلُ الرجلَ مثله » .

أكرم اليتيم وارحمه واعطف عليه ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « من كفل يتيماً له أو لغيره كنت أنا وهو في الجنة كهاتَيْن »[2] وأشار بأصبعيه فضمّهما .

اعرف لابن السَّبيل حقّه ، واحفظ وصيَّة الله تعالى فيه ؛ فإنّه بلغني أنَّ أوّل من ضاف الضَّيف إبراهيم الخليل عليه السَّلام .

أعنِ المظلوم وانصره مااستطعت ، وخذ على يد الظَّالم ، وادفعه عن ظلمه : فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقّه ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام »[3] .

اتَّقِ اتِّباع الهوى في ترك الحق ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « إني أخاف عليكم اثنتين : اتِّباع الهوى ، وطول الأمل ، فإنَّ اتِّباع الهوى يصدّ عن الحقّ ، وطول الأمل يُنْسِي الآخرة » .

أنصف النَّاس من نفسك ولا تستطل عليهم ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « أشرف الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كلّ حال ، ومواساة الأخ من المال ، وإنصاف النَّاس من نفسك » .

اغضض بصرك عن محارم الله ؛ فإنّه بلغني عن علي كرّم الله وجهه أنّه قال : « لاتتبع النَّظرة النَّظرة ، فإنّما لك النَّظرة الأُولى ، وليست لك الأُخرى »[4] .

---

(١) الخِدْن والخَدين : الصَّديق ، [اللِّسان : خدن] .

(٢) البخاري في الأدب ، والترمذي وأبو داود .

(٣) أبو داود في الأدب .

(٤) القول من رسول الله ﷺ إلى علي ، رواه أحمد في المسند وأبو داود والترمذي والحاكم .

اتَّقِ المطعم الوبي[1] ، والمشرب الوبي ، والملبس الوبي ، فإنَّ ذلك يذهب أنفته وتبقى عاقبته ، وإنّ الله سبحانه أدّب رسله فقال : ﴿ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون : ٥١/٢٣] . وقال النّبي ﷺ : « من أكل بأخيه المسلم أكلة أطعمه الله مكانها أكلة من نار ، ومن سمع بأخيه المسلم سمع الله به يوم القيامة ، ومن لبس بأخيه المسلم ثوباً ألبسه الله مكانه ثوباً من نار »[٢] .

اقبل عذر من اعتذر إليك ورجع عما كرهت ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يعذره كان عليه مثل وزر صاحب مكس »[٣] .

لتكن يدك العليا على كلّ من خالطت ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « اليد العليا خير من اليد السُّفلى »[٤] .

اصحب الأخيار فإنّهم يعينونك على أمر الله عزّ وجلّ ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « ما تحابّ رجلان في الله إلاّ كان أفضلها أشدّهما حبّاً لصاحبه »[٥] .

وصِلْ رحمك وإن قطعك ، ولا تكافئه بمثل ما أتى إليك ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّ رجلاً قال له : إنّ لي أقرباء أعفو ويظلموني ، وأصل ويقطعوني ، وأحسن ويسيئوني ، أفأكافئهم ؟ فقال ﷺ : « إذن تتركوا جميعاً ، ولكن إذا أساؤوا فأحسن فإنه لن يزال لك عليهم من الله ظهير » .

---

(١) الوبي : من وبأ ، المرض بشكل عام .

(٢) أبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان .

(٣) ابن ماجه عن ابن جودان ، وهو رجل غير منسوب ومختلف في صحبته ، والمكْسُ : دراهم كانت تؤخذ من بائع السِّلَع في الأسواق في الجاهليّة ، والمكس : الضَّريبة الّتي يأخذها الماكِسُ ، وأصله الجباية ، والمكس : ما يأخذه العَشّار. [اللسان : مكس] .

(٤) ابن جرير في تهذيبه ، عن صفوان .

(٥) البخاري في الأدب المفرد .

ارحم المسكين المضطر ، والغريب المحتاج ، وأعنه على ما استطعت من أمره ؛ فإنّه بلغني عن ابن عباس أنّه قال : « كلٌّ معروف صدقة » .

ارحم السّائل واردده من بابك بفضل معروفك بالبذل منك ، أو قول معروف تقوله له ، فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « ردّ عنك مذمّة السّائل بمثل رأس الطّير من الطّعام » .

لا تزهد في المعروف عند من تعرفه ، وعند من لا تعرفه ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « لا تزهد في المعروف ، ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي » أرد بكل ما يكون منك من خير إلى أحد الله ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أن قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، [الماعون : ٤/١٠٧ و ٥] ، قال : المنافق الّذي إذا صلّى راءى ، وإن فاتته لم يبلغ إليها ، ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : الماعون الزّكاة الّتي فرضها الله عزّ وجلّ .

إيّاك والرّياء فإنّه بلغني أنّه يصعد عمل المرائي إلى الله عزّ وجلّ ولا يزكيه عنده . إن استطعت أن تعمل بعمل ما علمت فيما بينك وبين الله عزّ وجلّ فافعله ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « نضّر اللهُ امْرأً سمع مقالتي فوعاها حتّى يبلّغها غيره فربّ غائبٍ أحفظ من شاهد ، وربّ حامل فقه غير فقيه »[1] ، لا يغفل قلب امرئ مسلم عن ثلاث خصال : إخلاص العمل لله ، والنّصيحة للإمام العادل ، والنّصيحة لعامّة المسلمين ، فإنّ دعوتهم تحيط من ورائهم .

---

(١) مسند أبي يعلى : ٧٤١٣/١٣ ، و ٧٤١٤

وإيَّاك وسوء الْخُلُق فإنَّه يدعو إلى معاصي الله تعالى ، وقد بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « خياركم أحسنكم أخلاقاً »[١] .

اخضع لله إذا خلوت بعملك ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ مَلَكاً أتاه فقال : إنَّ ربَّك يقرئك السَّلام ، ويقول إن شئت أجعلك ملكاً نبيّاً أو عبداً نبيّاً ، فأشار إليه جبريل عليه السَّلام أن تواضع فما أكل متَّكئاً حتى مات .

لا تظلم النَّاس فيديلهم[٢] الله عليك ؛ فإنَّه بلغني عن بعض العلماء من الصَّحابة أنَّه قال : « ما ظلمت أحداً أشدّ عليَّ ظلماً من أحد لا يستعين عليَّ إلاَّ بالله تعالى » .

احذر البَغْيَ فإنَّه عاجل العقوبة ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال[٣] : « إنَّ أعجل الخير ثواباً صلة الرَّحِم ، وإنَّ أعجل الشَّرِّ عقوبة اليمين الغموس تترك الديار بلاقع »[٤] .

لا تحلف بغير الله في شيء ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، ليحلف حالف بالله أو ليسكت »[٥] ، ولا تحلف بالله في كلِّ شيء ؛ فإنَّه بلغني أنَّ ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٤/٢] .

ارحم النَّاس يرحمك الله ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من لا يرحم النَّاس لا يرحمه الله » .

---

(١) أحمد في المسند والترمذي .

(٢) الإدالة : الغلبة ، يقال : أديل لنا على أعدائنا : أي نُصِرنا عليهم ، [اللِّسان : دول] .

(٣) البيهقي عن مكحول مرسلاً .

(٤) البَلْقع والبلقعة : الأرض القفْر التي لاشيء بها ، [اللِّسان : بلقع] .

(٥) أبو داود والنسائي .

أحبب طاعة الله يحبّك الله ويحبّبْك إلى خلقه ، قال عزّ وجلّ لنبيّه : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] . وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « إنَّ الله جعل قُرَّةَ عيني في السُّجود »(١) ، ولعلّها في الصَّلاة .

وقال بعض العلماء ما أسرّ عبد قط سريرة خير إلا ألبسه الله رداءها ، ولا أسرّ سريرة شرٍّ قط إلاّ ألبسه الله رداءها ، وليكن عليك السَّكينة والوَقَار في منطقك ومجلسك ومركبك ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال والنَّاس يزحفون حوله : « عليكم بالسَّكينة »(٢) .

أعطِ دابتك إذا ركبتها حظَّها من الأرض ، وحظها من المقصد عليها ، فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إذا ركبتم هذه الدَّواب العُجْم(٣) فأعطوها حظَّها من الأرض »(٤) .

عليك بالْحِلْم والإغضاء عما كرهت ، ولا تتتبع ذلك من أحد بلغك عنه أذى ، ولا تكافئه فإنَّ في ذلك الفضل في الدُّنيا والآخرة ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّ الله يحب الحليم الحيي العفيف المتعفِّف »(٥) .

ادْفع السَّيِّئة بالَّتي هي أحسن ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « أيُّها

---

(١) جامع الأُصول : ٥٠٦/٤ و ١٦/١١ عن أنس بن مالك (٢٩١٣ و ٧٠٥١) .

(٢) البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

(٣) كلُّ من لا يقدر على الكلام فهو أعجم ومستعجم ، والأعجم : الأخرس ، والعَجْماء والْمُسْتَعجِمُ : كلُّ بهيمة ، [اللِّسان : عجم] .

(٤) الدَّارقطني في الأفراد عن أبي هريرة .

(٥) مسلم وأحمد عن سعد بن أبي وقاص .

السلمي ، اتّقِ العقوق وقطيعةَ الرَّحِم فإنَّ في ذلك شَيْئاً في الدُّنيا وتباعداً في الآخرة » ؛ وبلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « اشتكت الرَّحِمُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ممن يقطعها فردَّ الله عليها : أما ترضين أنْ أصِلَ من وصلك ، وأقطعَ من قطعك »[1] .

إذا غضبتَ من شيءٍ من أمر الله فاذكر ثواب الله على كظم الغيظ ، قال عزّ وجلّ : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤/٣] .

وبلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « ماامتلأ رجل غيظاً فكظمه لله إلاّ ملأه الله رضواناً يوم القيامة » .

إذا وعدت موعداً في طاعة الله فلا تخلفه وإذا قلت قولاً فيه رضا الله فأوفِ به ودُمْ عليه ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « من تكفَّل لي بستٍّ أتكفل له بالجنة : إذا حدَّث لم يكذب ، وإذا وعد لم يخلف ، وإذا ائتمن لم يَخُنْ ، وغضَّ بصره ، وحفظ فَرْجَه ، وكفَّ يده » .

إذا حلفت على يمين ليست من طاعة الله فلا تهمنَّ بها وكفِّرها ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « لا نذر في معصية الله »[2] ، وكفَّارتها كفارة يمين والنَّذر يمين ، وإذا حلفت على يمين ، ثم رأيت غيرها خيراً منها فأتِ الَّذي هو خير ، وكفِّر عن يمينك ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال ذلك .

إيّاك والتَّزيُّد في القول ، وأن تقول قولاً وأنت تعلم أنّه لم يكن ؛ فإنّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، الإمام الكذّاب ، والعائل المزهُوّ ، والشَّيخُ الزَّاني »[3] .

---

(١) البخاري في الأدب ، وأحمد في مسنده .

(٢) مسلم وأبو داود والنسائي عن عمران بن حصين .

(٣) مسلم والنسائي عن أبي هريرة .

برّ والديك وخصهما منك بالدُّعاء في كلّ صلاة ، وأكثر لهما الاستغفار ، وابدأ بنفسك قبلهما ، فإنّ إبراهيم عليه السّلام قال : ﴿ ربّ اغْفِرْ لي ولوالدي ﴾ فبدأ بنفسه قبل والديه ؛ وبلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « من سرّه أن يُنْسأ[1] له في عمره ، ويُزادَ في رزقه ، فليتّقِ الله ربّه وليصل رَحِمَه »[2] .

اشكر النّاس ماأتوا إليك من خيرهم ، وكافئهم إن قدرت عليه ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « من لم يشكرِ النّاس لم يشكرِ الله »[3] .

إذا ركبت دابة فوضعت رجلك في الركاب فقل : بٱسم الله ، وإذا استويت راكباً فقل ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾[4] [الزخرف : ١٣/٤٣] ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه كان يقول ذلك كلما ركب دابة .

إذا أكلت وشربت فٱذكر اسم الله فإنْ نسيت في أوّل حالك فاذكره إذا ذكرت ؛ بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال : تذكر ٱسم الله حين تذكر ، فإنّه يحول بين الخبيث وبين أن يأكل معه ويتقيأ ماأكل ، فإذا فرغت فقل : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه كان يقول ذلك إذا أكل وشرب .

وإذا أكلت ومعك آخر فكل مما يليك بيمينك ولا تأكل من فوق الطعام ولا من بين يدي أحد ؛ فإنّه بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال لرجل يفعله : « اذكر

---

(١) نَسَأ الشيءَ ينسؤه نَسْأً وأنسأه : أخّره ، ونَسَأ اللهُ في أجله ، وأنسأ أجله : أخّره ، [اللّسان : نسأ] .

(٢) البخاري والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) أبو داود والترمذي .

(٤) مقرنين : مطيقين وغالبين أو ضابطين .

اَسْمَ الله وكُـلْ مما يليـك وكُـلْ بيمينـك »[1] ، ولا تـأكل بشمالـك ، ولا تشرب بشِمالك ؛ وبلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّها إكلة الشَّيطان »[2] .

لا تسافر ما استطعت إلاَّ في يوم الخميس ؛ فإنَّـه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّـه كان يستحب أن يسافر الخميس ، لا يسافر إلاَّ فيه .

إذا أصابك كربٌ فقل : ياحي يـاقيوم برحمتـك أستغيث ؛ فـإنَّـه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول ذلك عند الكُرَب .

احترس ممن يقرب إليـك بـالنَّميـة ، ويبلـغ الكـلام عن النَّـاس ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « ملعون من لعن أباه ، ملعون من لعن أُمَّه ، ملعون من غيَّر تخوم[3] الأرض ، ملعون كل صَقَّار »[4] ، وهو النَّمام .

لا تجر ثيابك ، فإنَّ الله لا يحبّ ذلك ؛ وبلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[5] .

أطـع الله في معصيـة النَّـاس ، ولا تطـع النَّـاس في معصيـةِ الله ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[6] .

إذا أصابك حزن أو سقم أو ذلّـة أو لأواء[7] ـ يعني الجوع ـ فقل : « الله ربي

---

(١) مسلم في الأشربة .

(٢) مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه ومسند أحمد .

(٣) التَّخوم : الحـدود والمعـالم . والمراد هنـا : أن يـدخل الرَّجـل في مُلْك غيره من الأرض فيقطعـه ظلماً .

(٤) الصَّقَّار : النَّمام ، والصَّقَّار : اللَّعَّان لغير المستحقّين ، [اللِّسـان : صقر] ، والحـديث في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس .

(٥) مسند أبي يعلى : ١٣٨٠/٢ ، وأبو داود عن عبد الله بن مسعود .

(٦) أبو نعيم في الحلية عن عمران بن حصين .

(٧) اللأي : الْجَهْد والشِّدَّة والحاجة إلى النَّاس ، [اللِّسان : لأي] .

لا أشرك به شيئاً » ، ثلاث مرات ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يأمر بذلك من أصابه شيء من ذلك .

اصبر على ما أصابك من فجائع الدنيا وأحزانها لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمر : ١٠/٣٩] ، والصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

لا تمارينَّ أحداً وإن كنتَ محقّاً ؛ بلغني أن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ ، [البقرة : ١٩٧/٢] ، أنَّه المراء .

إذا هممت بأمر من أمور الدُّنيا ففكر في عاقبته ، بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إذا هممت بأمر من أُمور الدُّنيا ففكّر في عاقبته ، فإن كان رُشداً فأمضه ، وإن كان غَيّاً فانته عنه »[1] .

إياك والتجريد خالياً فإنه ينبغي لك أن تستحي من الله إذا خلوت ، فإنه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لا أُحب أن يلي لي شيئاً من لا يستحي من الله في الخلاء » ، وإيَّاك أن تدخل الحَمَّام والماء إلاَّ بإزار ، ولا يدخل معك أحد الحَمَّام إلاَّ بإزار ، ولن تقدر على ذلك ، فإن لم تقدر فغض طرفك عن كلِّ أحد كان مكشوفاً ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال : « لا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يدخل الحَمَّام إلاَّ بإزار »[2] .

أفشِ السَّلام وإن استطعت أن لا يسبقك أحدٌ إليه فافعل ، تعطَ بذلك فضلاً عن النَّاس ؛ وبلغني عن ابن مسعود أنَّه قال : « السَّلام اسم من أسماء الله ، وضعه فيكم فأفشوه فيكم ، فإنَّ الرَّجل إذا سلَّم كتب له عشر حسنات » .

أدِّب ولدك ومن وليت أمره على خلقك وأدبك ، حتَّى يتأدبوا على ما أنت عليه ، فيكونوا لك عوناً على طاعة الله ؛ بلغني عن ابن مسعود أنَّه قال : كلُّ مؤدِّبٍ يحب أن يؤخذ بأدبه وإنَّ أدب الله هو القرآن .

(١) هناد عن عبد الله بن مسعود .

(٢) الترمذي وأبو داود وابن ماجه ومسند الإمام أحمد .

وإذا استشارك أحد فإنْ شئت تكلمت وإن شئت سكت ، واجتهد رأيك .

فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « المستشارُ بالخيار ، إنْ شاء تكلم ، وإن شاء سكت »[١] .

لا تفش على أحد سرّاً أفشاه إليك ، فإنَّما هي أمانة استودعكها وائتمنك عليها ، إلاَّ أن يكون إفشاؤه خيراً له في دنياه وآخرته فأفشِها عليه وانصحه فيها ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من حقِّ المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه » .

إذا تعلَّمت علماً من طاعة الله فَلْيُرَ عليك أثره ، وَلْيُرَ فيكَ سمتُه ، وتعلم الَّذي تعمله وتعلَّم له السَّكينة والحلم والوقار ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « العلماء ورثة الأنبياء »[٢] .

رد جواب الكتاب إلى كلِّ أحد كَتَبَ إليك ، فإنَّما هو كردِّ السَّلام ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ، [النِّساء : ٨٦/٤] . وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : أرى رجع الكتاب عليَّ حقاً كما أرى رجع السَّلام .

الزم الحياء فإنَّه خُلُقُ الإسلام ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لكلِّ شيءٍ خُلُق ، وخُلُق الإسلام الحياء »[٣] .

إذا سافرت فقل : اللَّهم إنِّي أعوذ بك من وَعْثَاء السفر[٤] وكآبة المنقلب ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر في الأهل والمال والْحَوْر بعد الكَوْر ـ أي النقصان بعد الزيادة[٥] ـ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه يقول ذلك إذا سافر .

(١) ورد الحديث : « المستشار مؤتمن » أبو هريرة وأُم سلمة ، (الترمذي وأبو داود) .

(٢) ابن النَّجار عن أنس .

(٣) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدَّارمي والموطأ والإمام أحمد .

(٤) الوَعْثاء : ماغابت فيه الحوافرُ والأخفاف من الرَّمل الرقيق ، والدَّهاس من الحصى الصِّغار وشبهه ، ووعثاء السَّفر : مشقَّته وشدَّته ، [اللّسان : وعث] .

(٥) انظر اللّسان : حور ، وكور .

إيّاك وظلم الضّعيف ، ومن لا يستعين عليك إلاّ بالله ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « ثلاثة لا تردّ دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم فإنها تصعد فوق الغمام فيقول الله لها : وعزّتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين »[١] .

إذا ودّعتَ مسافراً فقل : زوّدك الله التّقوى ، وغفر لك ذنبك ، ويسّر لك الخير حيثما كنت ، أستَوْدِع الله دينك ، وأمانتك ، وخواتيم عملك ، بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه كان يأمر بها أصحابه .

إذا حضرت أمراً ليس لله بطاعة ولا تقدر على أن تدفعه ، فقم عنه ولا تقعد . بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « لا يمنعنّ أحدكم مخافة النّاس أن يقول الحقّ إذا شهده أو علمه »[٢] .

الزم السّواك ، فإنه سُنّة ، بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « السّواك من سنن المرسلين »[٣] .

أفشِ الصّدقة ، فإنّها تدفع ميتة السّوء ، وليكن ذلك من أطيب مالك ، فإنّ الله تعالى لا يقبل إلاّ الطّيّب . بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « إنّ أحدكم ليتصدّق بالتّمرة إذا كانت من طيب ، ولا يقبل الله إلاّ الطيب فيجعلها في كفه ، فيربيها له كما يربي أحدكم فِلْوَه[٤] أو فَصيلَه[٥] حتى تكون في يده مثل الجبل » .

إذا نزلت بك كربة من كرب الدّنيا فليكن مفزعك فيها إلى الله عزّ وجلّ

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة ، وأحمد في مسنده وابن ماجه .

(٢) ابن النجار عن ابن عباس .

(٣) ابن عساكر عن أبي هريرة .

(٤) الفِلْوَ : المهر الصّغير ، [اللّسان : فلا] .

(٥) الفصيلة : فخذ الرّجل من قومه الّذين هو منهم ، والفِصال : العظام ، وبه سُمّي الفصيل من الإبل (ولد النّاقة إذا فُصِلَ عن أمّه) ، [اللّسان : فصل] . والحديث في مسند الإمام أحمد .

حين تنزل بك . بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لن ينزل بعبد قط أمر مَفْزَعُه فيه إلى الله إلاَّ فرَّج الله عنه » .

لا تضطجع على بطنك إذا نمت ، ولا في غير نومك ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّها لضجعة يبغضها الله » .

أوفِ بالعهد إذا أعطيته من نفسك لكلِّ أحد ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « أحق ما وُفِّي به عهد الله » .

إذا حضرت السُّلطان [مجلس المظالم][1] فاشفع بخير ، وإيَّاك والكلام [فيه][2] إلاَّ بما يرضي الله ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّ الرَّجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أنَّها تبلغ ما بلغت ، يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة ، وإنَّ الرَّجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة »[3] .

أرد ما أردت به الله ما استطعت ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « صدقة السِّرِّ تطفئ غضب الرَّبِّ »[4] .

اتَّقِ كثرة التَّزكية لنفسك ، أو ترضى بها من أحدٍ يقولها لك في وجهك . بلغني أنَّ رجلاً امتدح رجلاً عند النَّبيِّ ﷺ فقال : « ويحك قطعت عنقه ، ولو سمعها ما أفلح أبداً »[5] .

---

(١) إضافة لابدَّ منها كي يستقيم المعنى ، لأن الرَّشيد هو السُّلطان . لقد كان يرأس (ديوان المظالم) في كل أُسبوع يوماً ، للنَّظر في المظالم ، أو إنَّ الرِّسالة وجِّهت للرَّشيد وهو ولي العهد .

(٢) وردت في الأصل (عنده) ، ولعلها تعود إلى المجلس .

(٣) الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة .

(٤) ابن حبان عن أبي سعيد ، والهيثمي في مجمع الزَّوائد ١١٥/٣

(٥) مسند الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكر .

إيّـاك ومـدح النّـاس والثّنـاء عليهم في وجـوههم ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّـه قال : « احثوا التُّراب في وجوه المدّاحين »[١] .

طهّر ثيابك ونقّها من معـاصي الله تعـالى ؛ فـإنّـه بلغني أنّ قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، [المدثر : ٧٤/٤] . يأمره أنْ لا يلبسهـا على عـذرة ـ الغـائـط ـ الّذي يخرج من الإنسان ـ.

واكره لكلّ أحد ماتكرهـه لنفسـك . بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّـه بـايع جَريراً البجلي[٢] على الإسلام والنّصيحة لكلّ مسلم .

إيّـاك والحسـد والشّرَه ؛ بلغني أنّهما خُلُقـان مرديـان لصـاحبهما في الـدُّنيـا والآخرة ، وقال ﷺ : « لا حسد إلاَّ في اثنتين : رجل آتاه الله مـالاً وسلَّطـه على إنفاقه في الحقّ ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها »[٣] .

اْقتـدِ في أمورك برأي ذوي الإنصـاف من أهل التّقوى ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّـه قـال : « خيـاركم شبّـانكم المتشبّهـون بشيـوخكم ، وشراركم شيـوخكم المتشبّهـون بشبانكم » .

لا تحتقر أحداً ، وتجالس مـأبونـاً ـ متّهماً بشَرٍّ ـ فـإنّ الوحـدة خير من جليس السُّوء ، عليك بمعالي الأخلاق وكريمها ، واتّقِ رذائلهـا ومـا سفسف منهـا ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « إنّ الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها » .

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة .

(٢) جرير بن عبد الله بن جـابر ، أبو عبـد الله البجلي ، أسلم قبل وفـاة النّبيّ ﷺ بـأربعين يومـاً ، وكان حسن الصُّورة ، قـال عمر رضي الله عنـه : جرير يوسف هـذه الأمّـة ، وهو سيّـد قومـه ، قال ﷺ لما دخل عليه جرير فأكرمه : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .
وكان لـه في الحروب بـالعراق أثر عظيم ، وكانت بَجيلـة متفرّقـة ، فجعلهم عمر بن الخطّـاب ، وجعل عليهم جريراً ، [أُسد الغابة : ٣٣٣/١] .

(٣) مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود .

إذا رأيت من فضلت عليه في دينك ودنياك فأكثر حمد الله عليه ، فإنَّ ذلك من الشُّكر ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال الحمد ، إلاَّ كان ذلك أعظم من تلك النِّعمة وإن عَظُمَتْ » .

لا تركب الميثرة الحمرة - نوع من الحرير - ولا تلبس المعصفر ؛ فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن ذلك .

إذا غضبت وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاضطجع ؛ بلغني ذلك عن النَّبيِّ ﷺ ، لا تتطيرن من شيءٍ تراه أو تسمعه ، وإذا كان من ذلك شيءٌ فقل : « اللّهم لا يأتي بالخير إلاَّ أنت ، ولا يدفع السُّوء إلاَّ أنت ، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله » ؛ بلغني أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يأمر بذلك لمن رأى من ذلك شيئاً .

لا تتوضأ بشيء مما تأكل من الطعام ولا تدلك به في الحَمَّام فإنَّ ذلك من الجفاء ، لا تتخلقن بالْخَلُوق إلاَّ أن يكون في أثر النُّورَة - حجر الكِلْس وهو الزَّرنيخ[1] - ليذهب ريحها . بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « بينما رجل في بردَتَيْن له متخلق يتبختر فيهما إذ ساخت به الأرض فهو يتجلجل - يدخل - فيها إلى يوم القيامة »[2] .

لا تغيرن أظفارك بالحناء ويديك إذا دخلت الحَمَّام فإنَّه ليس من شيم أهل الفضل .

ولا تحلف بالطَّلاق ولا بالعتاق فإنَّها من أيمان الفسَّاق . بلغني عن عمر رضي الله تعالى عنه قال : أربع جائزة إذا تكلم بهن ، الطَّلاق ، والعتاق ، والنِّكاح ، والنَّذر ، وأربعة يمسون والله عليهم ساخط ويصبحون والله عليهم

(١) يُحلق به شعر العانة ، يقال : انتَوَر الرَّجلُ وانْتارَ من النُّورَة ، [اللِّسان : نور] .

(٢) البخاري ومسلم ، ومسند الإمام أحمد والبيهقي عن أبي هريرة .

غضبان : المتشبِّهون من الرِّجال بالنِّساء والمتشبِّهات من النِّساء بالرِّجال ، ومن أتى بهيمة ، أو عمل عمل قوم لوط .

لا تطيَّبن بشيء من الطِّيب يظهر لونه ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « طيب الرِّجال ما بطن لونه وظهر ريحه ، وطيب النِّساء ما ظهر لونه وبطن ريحه »[١] .

الزم الرَّأي الحسن والاقتصاد ؛ بلغني عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال : الرَّأي الحسن ، والهدي الحسن ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النُّبوَّة .

إن استطعت أن لا تدع العمامة والبُرْد[٢] في العيدين والجمعة فافعل ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يلبس العمامة والبرد في العيدين والجمعة ، وقال : إن الله تعالى أعزَّ الإسلام بالعمائم والألوية .

إذا طَلاك أحد بالنّورة فبلغ الْمَرَق[٣] ، فلا يَلِ ذلك منك إلاَّ نفسُك ، ومن يحسن ذلك من نسائك ؛ فإنَّه بلغني عن بعض العلماء أنَّه كان يلي ذلك من نفسه ، لا بأس أن تغتسل بماء الحمَّام وأنت جنب وتصلي ، بلغني عن ابن عبَّاس أنَّه سئل عن الجنب يغتسل في الحمَّام فقال إنَّ الماء لا يجنب .

وإذا تنخَّمت في المسجد فادفنه ؛ بلغني عن بعض العلماء أنَّه قال : هي خطيئة وكفَّارتها دفنها .

إذا نمت فقل عند نيامك : اللّهم أنت القائم الدائم لا تزول ، خلقت كلَّ شيءٍ لا شريك لك علمت كلَّ شيءٍ بغير تعليم ، اغفر لي إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلاَّ أنت ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : ألا قلتم كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الَّذي قال ذلك .

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة ، والطبراني عن أنس .

(٢) البُرْدَة : كساء يلتحف به ، [اللِّسان : برد] .

(٣) الْمَرَق : البطن .

إذا أتيت الحاجة فلا تستقبل القِبْلة بفَرْجِكَ ولا تستدبرها ولا تستنجِ بيمينك ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يأمر أصحابه أن لا يستقبلوا القِبْلة ولا يستنجوا بأيمانهم ، ولا يستنجوا بعَظْمٍ ولا روث .

إذا انصرفت من الصَّلاة فقل : اللَّهم إني أسألك من الخير كلِّه ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشَّرِّ كلِّه ما علمت منه وما لم أعلم ، اللَّهم إنِّي أسألك من الخير ما سألك عبادك الصَّالحون ، وأعوذ بك من الشَّرِّ ما عاذ منه عبادك الصَّالحون ، اللَّهم آتنا في الدُّنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النَّار ؛ بلغني عن ابن مسعود أنَّه قال : ما دعا مُرْسَل ولا عبد صالح بشيء حسن ، إلاَّ هو فيه يعني في هذا الدُّعاء .

لا تشتم عبداً لك ولا أمَة بزنى ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من قذف أمَةً ، أو حُرَّةً ، أو يهوديَّةً ، أو نصرانيَّةً ، فلم يُضْرَب في الدُّنيا ، ضُرِبَ يوم القيامة ثمانين جلدة » .

إذا كنت مسافراً أو مقيماً فامسح إن شئت على خُفَّيْك ؛ إن كنت مسافراً ثلاثة أيام ولياليهن ، وإن كنت مقيماً فيوماً وليلة ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال ذلك ، وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عبَّاس رضوان الله عليهم قالوا ذلك .

إذا صافحك أحد ، فلا تنزعن يدك عن يده حتى يكون هو الَّذي ينزع يده عن يدك ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه لم يصافح أحداً فنزع يده حتَّى يكون هو الَّذي ينزع يده .

إذا أقبل عليك رجل بوجهه يحدثك فلا تصرف وجهك عنه حتى يكون هو الَّذي يصرف وجهه عنك .

وإذا جلست إلى جنب رجل أو جلس إلى جنبك رجل فلا تقومن من بين يديه ، ولا تجاوزن ركبتك ركبته . بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه لم تتجاوز ركبته ركبة جليس له .

وإذا أحسست من أمير ظلامة أو تغطرساً فقل : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر أعزّ من خلقه جميعاً ، الله أكبر مما أخاف وأحذر وأعوذ بالله الممسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه من شرّ فلان ، اللّهم كن لي جاراً من فلان وجنوده أن يفرط عليّ أحد منهم أو أن يطغى ، جلّ جلالك وعزّ جارك ولا إله غيرك ، تقول ذلك ثلاث مرّات . بلغني عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال ذلك وأمرنا به .

وإذا كتبت إلى أحد من غير أهل الإسلام فلا تكتبنّ سلام الله عليكم ، ولكن اكتب السّلام على منِ اتّبع الهدى ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه كتب ذلك إلى مسيلمة .

إذا عطست في الخلاء ، فاذكر اسم الله خفياً ، ولا تدهن في مدهن ذهب ولا فضّة ، ولا تستجمر في مجامر الذّهب والفضّة ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنه نهى عن الشّرب في إناء الذّهب والفضّة ، ولا تنم على الحرير والدّيباج فإنّه لبسة النّساء ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه نهى عن لبس الحرير والدّيباج إلاّ للنّساء .

إذا رأيت أمراً في أهلك وخاصتك ، مما ينبغي تغييره ، فلا تحابين منهم أحداً وقُم فيه بالّذي يحقّ عليك ؛ بلغني عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[1] .

إذا هممت بأمر من طاعة الله عزّ وجلّ فلا تحبسه إن استطعت فواقاً[2] حتّى

---

(١) البخاري والترمذي ومسند الإمام أحمد عن أنس .

(٢) الفُوَاق والفَوَاق : مابين الحلبتين من الوقت ، لأنّها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ ثم تحلب ، يقال : ماأقام عنده إلا فُوَاقاً ، [اللّسان : فوق] .

تمضيه ، فإنَّك لا تأمن الأحداث ، وإذا هممت بأمر غير ذلك ، فإن استطعت أن لا تمضيه فواقاً فافعل لعلَّ الله تعالى يحدث لك تركه .

لا تستح إذا دعيت لأمر ليس بحق أن تقول : لا ، فإنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ، [الأحزاب : ٥٣/٣٣] .

إذا سمعت المؤذِّن يؤذِّن ، فقل كما يقول ، إلاَّ أنَّك تقول : حي على الصَّلاة ، حي على الفلاح ، لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله ؛ بلغني ذلك عن النَّبيِّ ﷺ .

لا تخلونَّ بامرأة ليست لك بِمَحْرَم ؛ بلغني عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنه قال : ما خلا رجلٌ بامرأةٍ ليست له بمحرم ، إلاَّ كان ثالثهما الشَّيطان .

إذا قال الإمام آمين ، فقل آمين ، فإنه ينبغي إذا فرغ من أُمِّ القرآن أن يقول آمين ، ويقوله من خلفه سرّاً ولا يجهر به ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا ، فإن الملائكة تؤمِّن لتأمين الإمام ، فمن وافق منكم تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه »[1] .

إذا قضيت الحاجة فلا تبدأ بشيء حتَّى تغسل فرجَك ؛ بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال لأهل مسجد قُبَاء ، إنَّما نزلت هذه الآية فيكم : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ، [التَّوبة : ١٠٨/٩] . فأنبئوني ما هذا التَّطهير الَّذي ذُكِرْتُم به ، فاثبتوا عليه ، قالوا : والَّذي بعثك بالحقِّ نبيّاً ، ما منّا امرأة ولا رجل يأتي الْخَلاء فيبدأ بشيء دون غسل فرجه بالماء .

إذا أكلت طعاماً فعلق بين أصابعك فالعقها ، وأسنانك فتخلَّل ؛ فإنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « ليس شيء أشدّ على الْمَلَك من أن يرى في الرَّجل طعاماً وهو يصلي » .

---

(١) مسلم في الصَّلاة عن أبي هريرة .

إذا نزلت منزلاً فقل : أعوذُ بكلمات الله التَّامات من شرِّ ما خلق : بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « من نزل منزلاً فقال هذه الكلمات وقِيَ شَرَّ منزله حتَّى يرتحل منه »[1] .

لا تأكل شيئاً من ثمن طعام لا يحل لك أكله ، ولا شيئاً من ثمن شراب لا يحل لك شربه ، قال النَّبيُّ ﷺ في الخمر : « إنَّ الَّذي حرم شربها حرَّم ثمنها »[2] .

ولا تداوَ بشيء لا يحل لك أكله ولا شربه ، ولا تبعه ، ولا تشتره ، ولا تَطْعَمه ولا تُطْعِمه أحداً ولا تسقه ولا تداوِ به أحداً صغيراً ولا كبيراً ولا بهيمة ولا غيرها ، بلغني عن بعض علماء الصَّحابة أنَّه نعت لبعير له خمر فقال : لا والله لا أوجره خمراً .

لا تأكل لحم شيء من السِّباع . ولا ذا مخلب من الطَّير ، بلغني أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السِّباع .

إذا فزعت في منامك فقل : أعوذ بكلمات الله التَّامات من غضبه وعقابه ومن شرِّ عباده ومن شرِّ الشَّياطين وأن يحضرون ، بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : إذا فزع أحدكم في منامه فليقل ذلك .

إذا قلت لأحد : أقسمت عليك لتفعلنَّ ، فلم يفعل الَّذي أقسمت عليه أن يفعله ، وجب عليك الحنث وكفِّر عن يمينك ، وكذلك إن قلت له أحلف عليك ، أو أشهد عليك لتفعلن فلم يفعل ، وجب عليك الحنث ، وكذلك إذا كنت وَقَّتَّ له وقتاً معلوماً فتركه حتى جاوز الوقت .

لا تبدأنَّ أحداً من غير أهل الإسلام بالسَّلام ، لكن لو سلم هو فقل : وعليكم ، بلغني أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بذلك .

---

(١) من مراسيل مكحول ، كنز العمال : ٢/٢٦٥

(٢) مسلم والنسائي والإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس .

لا بأس أن تأكل جُنُباً وإن كنت لم تتوضأ إذا غسلت يديك .

لا تقل لأحد صلَّى الله عليك ، بلغني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : لا تنبغي الصَّلاة من أحد لأحد إلاَّ للنَّبيِّ عليه السَّلام . ولا تقل لأحد جعلني الله فداك ، بلغني أنَّ الزبير - بن العوام - قال للنَّبيِّ ﷺ ذلك وهو مريض فقال له النَّبيُّ ﷺ : « ماتركت أعرابيتك بعد » .

وبلغني عن بعض العلماء أنّه قال : لا يَفْدِ أحد أحداً .

لا بأس بمصافحة الجنب ومباشرته ، بلغني عن ابن مسعود أنّه قال : أربعة ليس عليهم جنابة : الأسنان والماء والثَّوب والأرض .

لا بأس بمصافحة اليهودي والنَّصراني والصَّلاة في بيوتهم .

لا تبلغ بشيء عن أدبك إذا أدَّبت وعاقبت أحداً على جرم اجترمه أربعين سوطاً ، قال ﷺ : « من بلغ حدّاً في غير حدٍّ فهو من المعتدين » .

إذا أحببت أحداً لله فأعلمه ، فقد قال رجل للنَّبيِّ ﷺ : إني أُحبُّ فلاناً لله قال : أما أخبرته ؟ فقال : لا ، قال : فأخبره ، فلما أخبره قال : أحبَّك الله الَّذي أحببتني له .

لا تشفع فيمن وجب عليه حدٌّ من حدود الله إذا أُنهي إلى الإمام ولا تحل دونه ، ولا بأس أن تشفع قبل ذلك ، قال ذلك بعض علماء الصَّحابة و - قد - تشفَّع في سارق ، فقيل له : أتشفع فيه وأنت من الصَّحابة فقال : لا بأس به قبل أن يبلغ الإمام ، فإذا بلغه فلا عفا الله عنه إن عفا عنه .

إلزم الصَّمت ، قال النَّبيِّ ﷺ : « لا يستكمل الرَّجل الإيمان حتَّى يخزن لسانه »(١) .

---

(١) البيهقي عن أنس .

وإذا أتيت قرية أو بلداً فقل : اللّهم ارزقنا خيرها ، واصرف عنا وباءها ، كان النّبيُّ ﷺ يقول ذلك إذا دنا من قرية .

إذا عطست فقل : الحمد لله ، فإن قال قائل : يرحمك الله ، فقل : غفر الله لنا ولك ، وإن عطس مسلم فقال : الحمد لله ، فقل : يرحمك الله ، كان عليٌّ رضي الله عنه يقولها لمن عطس : يرحمنا الله وإياك ، ويقول ذلك : يغفر الله لنا ولك . ولا تشمّته حتّى يحمدِ الله ، قال النّبيّ ﷺ : « من حقّ المسلم إذا عطس أن يُشَمَّت إذا حمد الله » .

وقّر الكبير وارحم الصّغير ، قال النّبيُّ ﷺ : « ليس مِنّا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقّر كبيرنا »[1] .

لا تصافح امرأة ليست لك بزوجة ولا ملك يمين ، ولا تضع يدها على شيء من جسدك ، ولا تضع يدك على شيء من جسدها ، ولا تقبّل يدك ولا شيئاً من جسدك ولا تعانق رجلاً ، ولا تقبله ليس بذي رحم لك واصنع ذلك بذي رحمك .

ضمّ النّبيُّ ﷺ جعفرَ بن أبي طالب حين قدم من الحبشة إلى نفسه وقبّل بين عينيه .

لا ترفع صوتك في مسجد جماعة ، ولا تشهر فيه سلاحاً فقد نهى النّبيُّ ﷺ عنه .

إذا دعيت إلى تحمُّل شهادة ، فإنّك مخيّر فإن شهدت فلا يسعك الامتناع .

إذا دعيت إلى الأداء ، لا تمتن على أحد بإحسانك فإنّه يبطل أجرك ، قال عز وجل : ﴿ لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُم بالْمَنِّ والأذى ﴾ [البقرة ٢/٢٦٤] ، ومن أوْلاك

(١) الترمذي في البر ، والإمام أحمد في المسند عن أبي أُمامة .

معروفاً وعجزت عن مكافأته ، فأثن عليه واذكره به ، قال النبيُّ ﷺ : « من أُولِيَ معروفاً فلم يقدر على مكافأته إلاَّ بالثَّناء فقد شكره ومن كتمه فقد كفره » .

إذا طعمت وعندك أحد فادعه ، قال النبيُّ ﷺ : « إنَّ في الجنَّة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » ، قيل : لمن هي ؟ قال : « لمن أطعم الطَّعام وتابع الصِّيام ، وطيَّب الكلام وصلَّى باللَّيل والنَّاس نيام »[1] .

إذا عملت عملاً لله فأحسنه لقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود ١١/٧] .

لا تعجل على أحد بعقوبة ولا تتَّهمه حتَّى تحقه .

لا تأتِ أهلك ، أو جاريتك وغيرها يراك أو يسمع حسك ، قال ﷺ : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » قالوا : كيف نستحي من الله حقَّ الحياء ؟ قال : « احفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، واذكروا الموت والبلى ، وذروا زينة الحياة الدُّنيا »[2] .

إذا أصبحت فقل : اللَّهم لا إله إلاَّ أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد ، لا شريك لك ، عشر مرات ، قال النَّبيُّ ﷺ : « من قالها عشر مرات حين يصبح ، وُكِّل به مَلَكان يحرسانه حتَّى يمسي ، وإذا قالها ليلاً فكذلك حتَّى يصبح » .

إذا كنت في العيدين والجمعة ويوم عرفة بعرفة ، فاغتسل ، وإن توضأت أجزأك[3] ، وسأل رجل علياً عن الغسل فقال : للجمعة والعيدين وعرفة .

---

(١) مسند الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي ، والترمذي عن علي رضي الله عنه .

(٢) مسند الإمام أحمد والتِّرمذي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود .

(٣) أجزأك : كفاك ، أي أغناك الوضوء عن الغُسْل .

إذا رأيت الهلال فلا تستقبله حتّى تدعو وقل : الله أكبر الله أكبر الحمد لله ، أسألك من خير هذا الشهر وأعوذ بك من شرِّ القدر وشرِّ يوم المحشر .

لا تؤمَّنَّ أحداً في بيته ولا في سلطانه إلاَّ أن يأذن لك ، وذلك أنَّه بلغني عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « لا يَؤُمَّنَّ الرَّجلُ الرجلَ في بيته ولا في سلطانه إلاَّ بإذنه » .

ولا تحب من النَّاس أن يمثلوا لك قياماً ، قال ﷺ : « من سرَّه أن يمثل له ابن آدم قياماً وجبت له النار » .

أجب الدَّعوة إذا دعيت ، قال ﷺ : « الدَّعوة يوم العرس حق » وقال : « لو دعيت إلى كُراعٍ[1] لأجبت[2] » .

إذا حلفت على شيءٍ وحلف والداك أو أحدهما على خلافه فأطعهما مالم يكن معصية .

احتجم في سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ، أمر النَّبيُّ ﷺ بذلك[3] .

إذا عدت مريضاً فأخففِ العيادة ، وأقللِ اللَّبثَ .

إذا مررت بالمقابر فقل : السَّلام عليكم أهل الدَّار من المؤمنين والمسلمين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع ، أسأل الله لنا ولكم العافية .

لا بأس أن تمشي أمام الجنازة ، مشى النَّبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر وابن عمر

---

(١) الكُراعُ من الدوابّ : مادون الكعب ، وفي المثل : أُعْطِيَ العبدُ كُراعاً فطلب ذراعاً ، لأنَّ الذراع في اليد وهو الأفضل من الكُراع في الرجْلِ ، [اللّسان : كرع] .

(٢) الطبراني عن ابن عباس .

(٣) البزاز وأبو نعيم عن ابن عباس .

أمامها ، وإذا كنت راكباً فلا تسبقها ، ولا تنزل حتّى توضع عن عواتق الرِّجال ، بلغني ذلك عن بعض الصحابة .

لا تنفخ في الطعام والشراب فإنّه جفاء ، قاله بعض العلماء .

ارفع يدك في عشرة مواطن : إذا دعوت عند افتتاح الصَّلاة والعيدين والقنوت والتَّكبير ، وعند استلام الحجر وعرفة وجمع [الْحَصى] والصَّفا والمروة والجمار ، روي ذلك عن ابن عباس عند افتتاح الصَّلاة والقنوت والعيدين ترفعهما حتى تحاذي إبهامك أذنك وتبسطهما عند صدرك في باقي ذلك .

لا تلعب بالنَّرد ، لعن النَّبيُّ ﷺ اللاَّعب به ، وقال : « إيَّاكم وإياه » .

لا تمضغ العلك ولا تحلل إزارك ، ولا تَجَرَّد[1] ولا تحذف[2] ، قال النَّبيُّ ﷺ إنَّها من أخلاق قوم لوط .

اجمع الصوَّام عند فطرك على طعامك ، قال ﷺ : « من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، ولا ينقص من أجر الصَّائم شيءٌ »[3] .

واعلم رحمك الله أنَّ الله تعالى خصَّك من موعظتي بما نصحتك وأنهيت إليك منه ما أرجو أن يكون سعادة لك وسبباً إلى الجنة ، فليكن منك فيا كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى ، واتِّباع ما هو أهله ، ما ترجو به القربة عند الله تعالى ، ولا يكن ذلك مما تظلف أي تكف عنه نفسك ، وتعاهدها بالأخذ والتَّأديب عليه إن شاء الله حتّى توقفها على الّذي لا ينبغي لك التَّقصير بها عنه إن شاء الله تعالى ، والله الموفق للصَّواب وإليه المرجع والمآب[4] .

---

(١) التَّجريد : التَّعرية من الثياب ، [اللِّسان : جرد] .

(٢) حذفَ الشيءَ يحذفه حذفاً : قطعه من طرفه ، وتحذيف الشَّعر تطريره وتسويته ، والتَّحذيف في الطُّرَّة أن تجعل سُكَيْنِيَّةً كما تفعل النَّصارى ، [اللِّسان : حذف] .

(٣) الترمذي في الصوم ، والإمام أحمد في مسنده ، وابن ماجه .

(٤) (مشكاة المواعظ) ، إبراهيم عبد الباقي .

الإمام الشّافعي :

قال مصعب بن عبد الله لمحمد بن إدريس الشّافعي : إن هارون الرّشيد كتب إليّ أن أصير إلى اليمن قاضياً ، اخرج معي ، فخرج معه الشّافعي ، فلما صارا باليمن جلس مصعب للقضاء ، وارتفع ذكر الشّافعي وعلا شأنه عندما أخذ بأسباب العدل والعلم والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والارتفاع عن ملق أحد ، فكتب عامل اليمن مطرف بن مازن إلى الرّشيد يقول : إذا أردت اليمن لا يفسد عليك ، ولا يخرج من يديك ، فأخرج محمد بن إدريس وذكر أقواماً من الطالبيّين .

لقد حذّر مطرفُ بن مازن الرشيدَ من الشّافعي ووصفه « بأنّه رجل يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » . فأمر الرّشيد بإحضاره ، وإحضار الطالبيّين ، وعقد لهم محاكمة رئيسها رئيس القضاة محمد بن الحسن الشّيباني صاحب أبي حنيفة ، وقاضي القضاة بعد أبي يوسف .

أقرّ الطالبيّون بثورتهم ضدّ الخلافة العباسيّة فأُعدموا ، وتقدم الشّافعي بعزّة العلم عالي الرأس ، هادئ النّفس ، لأنّه رأى أن القضاء عادل ، وما قُتِلَ إلاّ ثائرٌ اعترف بهدمه الدّولة ، ومحاولته تغيير الحكم ، تقدم وقال للرّشيد : يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي ، وإنما أُدخلت في القوم بغياً عليّ ، وإنّما أنا رجل من بني عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي ، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضي يعرف ذلك ـ يعني محمد بن الحسن الشيباني ـ أنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع ..

ودفع الإمام الشّافعي عن نفسه التّهمة بنسبه إلى عبد مناف ، وهذا نسب الرّشيد أيضاً ، وبشهادة محمد بن الحسن الشّيباني ، وهي شهادة لاتُرَدُّ ، لقد أقرّ

بعلم وفقه الشّافعي ، وكان مجرد حظ المرء من العلم والفقه وسيلة قاصدة إلى قلب الرّشيد .

بُرِّئت ساحة الشّافعي ، وأمر الرّشيد له بعطاء قدره خمسون ألفاً ، فأخذه وهو من أموال المسلمين يوزعها الخليفة عليهم لتنفق على العلم والعلماء ، ولحق بالشّافعي هرثمة بن أعين ، أحد كبار قواد الرّشيد ، فقدم له هدية عظيمة ، فردَّها الشّافعي قائلاً : « إني لاآخذ الهديَّة ممن هو دوني » ، وأنفق الإمام الشّافعي المال كلَّه على نسخ الكتب ، وكانت نجاته وبراءته أمام الخليفة ، وشهادة القاضي له بيعة من الملأ العلمي والسّياسي لينطلق إلى حيث قدَّرته السّماء : ثالث الأئمة العظام لأهل الإسلام .

وتكررت اللّقاءات بين الشّافعي والرّشيد ، وقال الرّشيد له : « كثر الله في أهل بيتي مثلك » . وكان الرّشيد إذا أراد لقاء الإمام الشّافعي يقول للفضل بن الربيع : عليَّ بهذا الحجازي .

قال له الرّشيد مرّة بعد أن استقبله وقبّل بين عينيه وهشّ وبشّ : « لم لاتزورنا أو تكون عندنا ؟ » فأجلسه وتحدثا ساعة ، ثم أمر له ببدرة دنانير ، ولما خرج ، أمر الرشيد الفضل بن الرّبيع أن يوصل الشّافعي إلى داره إكراماً لقدره ، قال الفضل : فجعل الشّافعي ينفق ما في البدرة يمنة ويسرة حتّى رجع إلى منزله وما معه دينار .

ومكث الشّافعي ببغداد وذاعت شهرته في الآفاق ، فطلبه الرّشيد لمناظرة طرفها الأول الشّافعي ، وطرفها الثّاني محمد بن الحسن الشّيباني وبشر المرسي . ومكانها قصر الرّشيد وبحضوره .

قال محمد بن الحسن : هات مسألة يا شافعي نتكلم عليها .

فقال لـه الشافعي : سلوني عما أحببتم . فتجرد بشر المرسي وقال لـه : لولا أنّك في مجلس أمير المؤمنين وطاعته فرض ، لننزلنّ بك ماتستحقه ، فليس أنت في كنف العمر ، ولا أنت في ذمّة العلم فيليق بك هذا ، وأنشأ يقول :

أهابك يا عمرو ماهبتني ... وخاف بشراك إذ هبتني
وتزعم أمي عن أبيه ... من أولاد حام بها عبتني

وأجابه الشافعي وهو يقول :

ومن هابَ الرِّجالَ تَهيبوه ... ومن حقَّر الرِّجال فلن يُهابا
من قضت الرِّجال له حقوقاً ... ولم يعص الرِّجال فما أصابا

فأجابه بشر : هذا أوان الحرب فاشتدي زيم .

فأجابه الشّافعي :

سيعلم ما يريد إذا التقينا ... بشطّ الراب أي فتى أكون(١)

فقال بشر : يا أمير المؤمنين دعني وإياه ، فقال له هارون الرّشيد : شأنك وإياه . فسأله بشر أسئلة ، فأجاب الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وتبحُّره في الفقه والحديث وفنون العلوم .. وانبسط الشّافعي في الكلام ، فتكلم بكلام حسن ، فأُعجب به الرّشيد وقرّبه من مجلسه ورفعه عليهما ، على الشّيباني والمرسي ، وقال الرّشيد : أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة ، فلا يدخل عليَّ أحد من الفقهاء قبلك .

وبعد سؤال الرّشيد له يوماً عن كتاب الله ، وسُنّة رسول الله ، والشّعر ، وأنساب العرب ، واللُّغة ، قال له : فهل من موعظة ؟ فقال الشّافعي :

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ٨٢/٩

إنَّك تخلع رداء الكبر عن عاتقك ، وتضع تاج الهيبة عن رأسك ، وتنزع قميص التَّجبر عن جسدك ، وتفتش نفسك ، وتنشر سرك ، وتلقي جلباب الحياء عن وجهك ، مستكيناً بين يدي ربك ، وأكون واعظاً لك عن الحق ، وتكون مستمعاً بحسن القبول ، فينفعني الله بما أقول ، وينفعك بما تسمع .

فقال له الرَّشيد : أما أني قد فعلت وسمعت لله والرَّسول والواعظين بعدهما ، فعظ وأوجز . فحلَّ الشَّافعي عنه إزاره ، وحسر عن ذراعيه ، وقال : « يا أمير المؤمنين ! اعلم أنَّ الله جلَّ ثناؤه امتحنك بالنِّعم ، وابتلاك بالشُّكر ، ففضل النعمة أحسن لتستغرق بقليلها كثيراً من شكرك ، فكن لله تعالى شاكراً ولآلائه ذاكراً ، تستحق منه المزيد ، واتق الله في السِّرِّ والعلانية تستكمل الطَّاعة ، واسمع لقائل الحقِّ وإن كان دونك تشرف عند الله ، وتزد في عين رعيتك ، واعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يفتش سرَّك فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهمِّ الدُّنيا ، وفتق لك ما يزلق عليك ، واستغنى الله والله غني حميد ، وإن وجده موافقاً لعلانيتك أحبك وصرف همَّ الدُّنيا عن قلبك ، وكفاك مؤونة نظرك لغيرك ، وترك لك نظرك لنفسك ، وكان المقوي لسياستك ، ولن تطاع إلاَّ بطاعتك الله تعالى ، فكن له طائعاً تكتسب بذلك السَّلامة في العاجل ، وحسن المنقلب في الآجل : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل ١٦/١٢٨] . واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه ، وغاب عنه وليه ، فتيقظ خوف السرى ، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك ، فإنَّ ذلك مفسدة لك ، وذهاب لدينك ، وأسقط المهابة في الأوَّلين والآخرين ، وعليك بكتاب الله الَّذي لا يضل المسترشد به ، ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك ، وعليك بسنَّة رسول الله ﷺ تكن على طريقة الَّذين هداهم الله فبهداهم اقتده ، وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأرضين ، والسَّواد والمساكن والدِّيارات ، فكن لهم تبعاً وبه عاملاً راضياً مسلماً ، واحذر التَّلبيس فيه فإنَّك مسؤول عن رعيتك ، وعليك بالمهاجرين

والأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ [الحشر ٥٩/٩] ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وآتهم من مال الله الَّذي آتاك ، ولا تكرههم على إمساك عن حق ، ولا على خوض في باطل ، فإنَّهم الَّذين مكنوا لك البلاد ، واستخلصوا لك العباد ونوروا الظلمة ، وكشفوا عنك الغمة ، ومكنوا لك في الأرض ، وعرفوك السِّياسة وقلدوك الرِّياسة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفتهم طمع الزِّيادة لهم ، فلا تطع الخاصة تقرباً إليهم بظلم العامة ، ولا تطع العامة تقرباً إليهم بظلم الخاصَّة لتستديم السَّلامة ، وكن لله كما تحب أن يكون لك ولأوليائك من العامَّة من السَّمع والطَّاعة ، فإنَّه ما ولي أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلاَّ جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه ، وأنت أعرف بنفسك » .

فبكى الرَّشيد - وقد كان في خلال هذه الموعظة يبكي لا يسمع له صوت - فلما بلغ إلى هذا الفصل بكى الرَّشيد وعلا نحيبه وبكى جلساؤه[1] .

فقال أحدهم : يا هذا احبس لسانك عن أمير المؤمنين ، فقد قطعت قلبه حزناً ، وقال محمد بن الحسن الشَّيباني : اغمد لسانك يا شافعي عن أمير المؤمنين فإنَّه أمضى من سيفك .. والرَّشيد يبكي لا يفيق ، فأقبل الشَّافعي على محمَّد ومن حوله فقال : اسكتوا أخرسكم الله لا تذهبوا بنور الحكمة يا معشر عبيد الرَّعاع وعبيد السَّوط والعصا . أخذ الله لأمير المؤمنين منكم لتلبيسكم الحق عليه ، وهو يرثكم الملك لديه ، أما والله مازالت الخلافة بخير ما صدف عنها أمثالكم ، ولن تزال بشر مااعتصمت بكم . فرفع الرَّشيد رأسه وأشار إليهم أن كفُّوا .

وأقبل الرشيد على الشَّافعي فقال : قد أمرت لك بصلة ، فرأيك في قبولها

(١) حلية الأولياء : ٨٩/٩ وما بعدها .

مـ ـب ، فقال لـه الشّافعي : كلا ! والله لا يراني الله قـد سوّدت وجـه مـوعظتي
بـ ـب الجزاء عليها ، ثم نهض وخرج .

☆ ☆ ☆

القاضي أبو يوسف صاحب (الْخَراج) ..
محمد بن الحسن الشّيباني (قاضي القضاة) ..
عبد الله بن المبارك (العالم القدوة) ..
الفضيل بن عياض (العالم الزّاهد الورع النّاصح) ..
مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) ..
الإمام الشّافعي ثالث الأئِمة العظام .

رجال مخلصون ، وعلماء عـاملون ، حيـاتهم إسلام ، وسلوكهم إيمـان .. كلُّهم
ـوا رجـالاً حـول الرّشيـد ، بعضهم بنصحـه وتـوجيهـاتـه ، وبعضهم بمجـالسـه
إسلاته .

فمن هؤلاء وأمثالهم اكتملت للرّشيد شخصيته الإسلامية .

☆ ☆ ☆

مَن شَوَّه سِيرَة الرَّشيد ؟

« وإذا اختلف اللّصّان ... ظهر المسروق » .

هذه أخبار الرَّشيد كما روتها وأوردتها الكتب التّاريخية العربيّة ، إنّها أخبار سيرة عطرة طيبة ، لرجل مؤمن ملتزم بإسلامه ، محب لله ولرسوله ، لا يُحب المراء في الدِّين ويكرهُ الزَّندقة والزَّنادقة ، يُحب العلم والعلماء ، ويحب التفقُّه بالدِّين ، لقد عظم شعائر الإسلام ، ووقف عند محرماته ..

الرَّشيد .. شخصية مستقرة مطمئنة ، شخصية لا ازدواجية فيها ، لم تخشع للموعظة مرة ، بل خشعت لها في كل مرَّة ، تغضب لله في كلّ مرة ، وتتذوَّق الأدب الرَّفيع في كلّ مرة ..

الرَّشيد .. الَّذي نقش على خاتمه : « لا إله إلا الله »[١] ، وكان معه أيضاً خاتم المنصور ، دفعه إلى ابنه عبد الله المأمون عام ١٩٠ هـ ، قبل غزو الروم مكتوباً عليه : « الله ثقتي به آمنت »[٢] .

الرَّشيد .. الذي وقَّع وزيره في ليلة واحدة زيادة على ألف توقيع[٣] ونظر الرَّشيد فيها جميعها ، لم يُخرج شيئاً عن موجب الفقه والدِّين واللُّغة العربية[٤] ،

---

(١) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

(٢) تاريخ الموصل : ٣٠٨

(٣) أي على ألف رسالة إلى الولايات ، وإلى أصحاب الحاجات .

(٤) النُّجوم الزَّاهرة : ١٢٣/٢

لذلك قال منصور النمري[1] في الرَّشيد :

جعلَ القرآنَ إمامَه ودليلَه   لما تخيَّرهُ القُرآنُ ذِمامَا

ـ فلماذا إذن شُوِّهت هذه السِّيرة الطَّيبة ؟ هذه السِّيرة الإسلامية العطرة ؟ ومن شَوَّهها ؟!

☆ ☆ ☆

شوّه سيرة الرَّشيد :

أ

ألف ليلة وليلة

ألف ليلة وليلة : مجموعة منوَّعة من القصص الشَّعبي ، لغته بين الفصحى والعامية يتخللها شعر مصنوع أكثره ، مكسور ، ركيك في نحو ١٤٢٠ مقطوعة .

نُسخ ألف ليلة وليلة معروفة مرتبة على هذا النحو : كلكتا الأُولى ، ثم بولاق ، ثم كلكتا الثَّانية ، ثم بر سلامة ، وأخيراً بولاق الثَّانية .

وكلُّها حديثة ، لاترجع إلى أقدم من أول القرن التَّاسع عشر ، مما جعل البحث في أصلها عسيراً للغاية ، وقد شغل المستشرقين ذلك ، وكان نصُّ ابن النديم المتوفى عام ٤٣٨ هـ ، في (الفهرست) مفتاحاً للبحث ، لقد ذكر ابن النديم أنَّها مترجمة عن أصل فارسي اسمه (الهزار أفسان) ، أي ألف الخرافة ، ولما كان كتاب (الهزار أفسان) غير موجود ، فإنَّ البحث في أصل اللَّيالي يزداد غموضاً[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

(٢) راجع دوائر المعارف التَّالية : دائرة معارف البستاني : ٢٦١/٤ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ٥١٨/٢٨ ، دائرة معارف القرن العشرين لوجدي ، الموسوعة العربية الميسرة : ٢٠٣ ، ط دار الشعب .

ويُسميها الإفرنج : (اللّيالي العربيـة) ، لأنّها ترجمت عن العربيّـة ، وقـام بترجمتهـا الكاتب الفرنسي (أنطوان جـالان)[1] بتصرف ، فـانتشرت في أُوربـة ، وترجمت عن (جـالان) مراراً طـوال القرنين الثّـامن عشر والتّـاسـع عشر ، وما زالت إلى اليوم تصدر لهـا ترجمـات مصورة فـاخرة ، ويعتبر : برتون ، لين ، ليتمان ، أهم من ترجمها .

ومن الملاحظ ، أن قصص ألف ليلة وليلة منتشرة بين أُمم الأرض ، لمـا فيهـا من قصص تلذ للناس مطـالعتهـا ، فهم يرون فيهـا أجمل الغرائب ، ويرون تنوع الأخبار الّتي تخاطب الطَّبع البشري الّذي يميل إلى مطالعة المصادفات والاتفاقـات المدهشة ، والأعمال الدّالة على الشّجاعة والبطش ، مع أن فيه من السّفاهة والفساد ما يجعله كتاباً خطراً جداً على الفتيان والفتيات .

ومن الثّابت أن مادة ألف ليلة وليلـة ، أخـذهـا العرب من الفرس والهنود ، وقـد أسهب في بحث مـوضـوع أصلهـا (سلفستر ده سـاسي Silvestra de Sacy) ، وأيَّد يوسف فون هـامر Joseph Von Hammer مـاقـالـه المسعودي عن أصل ألف ليلة وليلة إنَّها فارسية الأصل يقال لها : (أفسـانـة) ، ونستطيع أن نقرر في كثير من الثقة ، أنَّ نواة كتاب ألف ليلة وليلة مأخوذة عن كتاب قصص فـارسي اسمـه (هزار أفسـان) نقل إلى العربيـة في القرن الثـالث الهجري ، وأنَّ غـالـب القصص من أصل هندي ، ووجوه الشبه الّتي نجدها بين كتب هندية وفـارسيـة لاشـك في أنّها أقـدم من الأصل العربي ، والمقـارنـة بين الطبعـات ، تـدل على ملامح بـارزة تظهر أصلها الفارسي ، فأسماء شاه زمان وشهريار .. أسماء فـارسيّـة والقصص الّتي يتكلم بها البهائم والوحوش لها نظائرها في الأدب الهندي ، والتشـابـه الملحوظ بين الطريقـة الّتي تـدمـج بهـا بعض القصص في بعض قصص ألف ليلـة وليلـة ، وبين الطريقة الّتي تنتهجها الكتابة الهندية ، له أهمية خاصة ، فإنَّ إدماج قصة في قصة

---

(١) ويكتب أيضاً (أنطوان غلّند) ، ولد سنة ١٦٤٦ م .

من خصائص الأدب الهندي ، وهو أمر مشاهد في (المهابهاراته) والـ (بنجه تنتره) .. ولا يحفل الهنود بما في هذه الطريقة من بعد عن الواقع ومنافاة لطبيعة الأشياء ، فإنّهم يظهرون من حين إلى حين أشخاصاً يتكلمون أو يستمعون في حين أن طبيعة موقفهم من القصّة تتنافى مع هذا .

والباعث الأوّل لكتاب ألف ليلة وليلة هو اكتساب الوقت ، وثني المتهور عن عزمه ، وهذا موجود أيضاً في قصة الوزراء السّبعة ، الهندية الأصل ، ونلحظ هذا بصورة أخرى في القصّة الهندية (سوكاستباتي) ، ففيها قصة خليلة تسرد لصاحبها قصة في غياب زوجها ، تَسردُ عليه في كلّ يوم قصة ، وتختمها دائماً بقولها : سأقصُّ البقية غداً إذا بقيت في البيت اللّيلة .. وهذه الطريقة في تكوين هيكل القصص شائعة في الهند نادرة في غيرها .

ونجد اسم هارون الرّشيد في بعض قصص ألف ليلة وليلة ، لقد ذُكر اسمه في كثير من القصص لذلك ظنَّ بعضهم أن ألف ليلة وليلة كُتبت بعد أيامه بزمن قصير .

لقد شوهت ألف ليلة وليلة كذباً وخيالاً سيرة الرّشيد ، إذ أنّه أصبح منذ وقت قديم ، رمزاً للعصر الذّهبي الغابر ، تفعل فيه الأعاجيب ، وتحاك حوله الأساطير .

لقد ظن الأوربيون أنّ الرّفاه في قصر الرّشيد ، لا يمكن أن يكون إلاّ كما كان في قصر شارلمان من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرّشيد بطلاً لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أن الرّشيد لم يسمع بألف ليلة وليلة لأنّها ترجمت إلى العربية في القرن الثالث الهجري والرّشيد عاش في القرن الثّاني الهجري ، وتدل قصص ألف ليلة وليلة على أنّها مؤلفة من قبل عديدين أضافوا عليها حتّى العصر المملوكي .

☆ ☆ ☆

٢
الأغاني لأبي الفرَج الأصفَهاني (١)

جاء في مقدمة (مختار الأغاني) الجزء الرّابع تحت عنوان (كلمة حول أخبار أبي نواس) ، مايلي : « قسم من تاريخنا مصدره قليلو العلم أو رقيقو الدِّين ، الّذين يطلقون فيضاً من الأكاذيب ، ويختلقون ركاماً من الافتراءات .. ويمرّ الزمن فيختفي القائل ، وتنطمس المعالم ، وتغيب القيم ، فتختلط الأكاذيب والحقائق ، وتتشابك ، حتّى ليَعْسُرُ على أكثر النّاس أن يميز الرّغوة من الصّريح » .

وممّا ألصق بالرّشيد زوراً وبهتاناً وافتراءً أخباره مع أبي نواس .. ولقد روج لها في كتب رخيصة بعض دور النشر ، وكل أخبار الرشيد مع أبي نواس مستمدة من الأغاني ، والأغاني كتاب أدبي لا تاريخي ، وهو كتاب مشكوك صراحة بأمانة مؤلفه ، كما سيتضح بعد قليل .

« لقد اشتهر أبو نواس بالمجون ، حتّى صار المجون علماً عليه ، وكأنّما اختص به وحده من بين أترابه ، فإذا عُثر على خبر في المجون أُلصق به ، وإذا اخترع أحد الماجنين ، أو المتماجنين ، حادثة ، عزاها إليه حتّى إنّه ليترك من وقع المجون منه ، لينسب إلى أبي نواس ! » .

« وهنالك دلائل كثيرة تثبت أن ماروي لأبي نواس من خبر وشعر إنّما حدث بعده ، منها ماتراه في الشّعر المنسوب إليه من التّفاوت الكبير في النّسيج

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، وستمر ترجمته مفصلة من (الأعلام) و (معجم الأُدباء) و (ميزان الاعتدال) .. وكتابه (الأغاني) كتاب أدب ، وليس كتاب تاريخ يعتمد ، وهذا لا يعني مطلقاً أن كل كتاب أدب لا يؤخذ به ، بل يؤخذ به إذا كان صاحبه ثقة ، ومعروفاً عنه الأمانة في النقل والرواية .

والرُّوح والسَّبك ، فكثيراً ماترى إلى جانب الشِّعر النَّاصع المطبوع ، الشِّعر الغثَّ الرَّكيك ، بالإضافة إلى التَّضارب الكبير في الأخبار الَّتي تتَّصل بأبي نواس ، التَّضارب الَّذي تكتشفه بقليل من التمعُّن ، سواء من حيث النَّوع ، أو الرُّوح ، أو الحوادث ، أو الرِّجال ، أو التَّاريخ .

وفي كثير من المواضع يظهر الوضع والافتراء سافراً ، مما يجعل أكثر النَّاس تورعاً وتردداً ، لا يتردد في الجزم بالحكم عليه بالوضع والافتراء ، كأخباره الماجنة مع الرَّشيد ، الَّذي كان يصلِّي في اللَّيلة مئة ركعة .. والذي كان من الهيبة بحيث يبطش بأقوى فئة تليه سلطة ومكانة ، ثم لا ينبس أحد بكلمة » .

ويذكر ابن منظور : ١٦٧/٤ ، أنَّ أخبار الرَّشيد مع أبي نواس موضوعات لاتصح ، وأن أبا نواس مادخل على الرَّشيد قط .

وهذا الرَّأي لانأخذ به نحن ، ولكننا نقول : كان أبو نُواس يدخل على الرَّشيد كما يدخل غيره من الشُّعراء ، مع التزام تام بحدود الشَّريعة المطهَّرة ، والأدب الكامل . ودليل دخوله على الرَّشيد أحياناً ، قول أبي العتاهية لأبي نواس : البيت الَّذي مدحتَ به الرَّشيد لوددت أنِّي كنت سبقتك إليه :

قد كنتُ خفتُكَ ثمَّ آمنني مِنْ أن أخافك خوفُكَ اللهَ[1]

وفي أخبار أبي نواس لابن منظور يروي ما يأتي : « قال أبو عبد الله

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ ، والفخري : ٢٠ ، والَّذي يقول بعد ذكره البيت المذكور مباشرة : « ولم يكن الرَّشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي وهم أولاد بنت نبيه لغير جُرم تدلُّ على عدم خوفه من الله تعالى ، ولكن أبا نواس جرى في قوله على عادة الشعراء » !؟! عجيب أمر التحامل ، فشمس الدين الذهبي في (سير أعلام النبلاء) مثلاً ، يذكر بوضوح : وأحسن الرشيد إلى آل البيت [٢٩٠/٩] . ولنا حديث مستقل عن آل البيت والرشيد على صفحات هذا الكتاب .

أحمد بن أبي نضر : كان أبو بحر عبد الرحمن بن أبي الهداهد شاعراً مجيداً ، وكان لا يكاد يقول شيئاً إلاَّ نُسب لأبي نواس ، وكذلك الحسين بن الضحاك ، وقد غلب على الكثير من شعرهما » .

وهذا ابن المعتز في (طبقات الشعراء) يذكر شعراً في المجون لوالبة بنِ الحباب ، ثم يعقب عليه فيقول : وهذا الشِّعر مما ينحله العامة أبا نواس ، وذلك غلط ، لأنَّ العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كلَّ شعر في المجون إلى أبي نواس ، وفي موضع آخر يذكر شعر الحسين بن الضحاك ، ويعقب عليه بقوله : وقد نسبت العوام هذا إلى أبي نواس ، وذلك منحول ، إنَّما هو للحسين بن الضحاك .

ويروي أبو الفرج الأصفهاني أنَّ الحسين بن الضَّحاك قال : لما قلت قصيدتي :

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك درّ الأبل والشاء

أنشدتها أبا نواس ، فقال : ستعلم لمن يرويها النَّاس ، ألي أم لك ! فكان الأمر كما قال : رأيتها في دفاتر النَّاس في أول أشعاره .

وفي موضع آخر يروي أن أبا نواس بعد أن عارض شعراً للحسين ، وأخذ معانيه ، غضب الحسين وسبَّه ، فقال له أبو نواس : دع هذا عنك فوالله لاقلتَ في الخمر شيئاً أبداً وأنا حيّ إلا نُسِبَ إليَّ .

ومما يدل أيضاً على النَّحل والوضع ، ورواية أخبار عن أشخاص ـ لا سيما هارون الرَّشيد ـ أُلصقت بهم إلصاقاً ، أنَّ شعراً لأبي نواس تراه أو بعضه قد نسب في الخبر لغيره ، ففي صفحة ١٦٦ ، نجد خبراً لأبي نواس مع الرَّشيد ، ولو عدنا إلى أغاني أبي الفرج فنظرنا في الصَّفحة ٢٢٥ ، من الجزء الثَّالث ، لرأينا الخبر نفسه ، ولكن ليس لأبي نواس ولا مع الرَّشيد ، وإنَّما يعزى هناك لبشار بن برد مع المهدي .

ثمّ بيّن المؤلّف أنّ هذه الحكايات موضوعة ، وأن أبا نواس مادخل على الرَّشيد قط ، ولا رآه ، وإنّما دخل على محمد الأمين ، الّذي أزمع على قتل أبي نواس إذ بلغه أنّه شرب الخمر مرة .

ومع هذا .. « لانطمع بهذا الادّعاء بأنّ أبا نواس كان من الأتقياء البررة الصَّالحين ، وأنه سابق العُبّاد ، وأوحدَ الزُّهّاد ، لا .. فإنّه لادخان دون نار ، فقد كان أبو نواس على طرف من التّهتك ، وإنه كان ماجناً » .

جاء في الجزء الرَّابع من مختارات الأغاني ص ٢١٩ : أنّ العبّاس بن محمد كان يتشوّق أبا نواس ، ويميل إليه ، فلما رآه وسمع منه ، ورأى ظرفه وكماله ، أقبل عليه ، وقال : ياأبا علي : أُريد أن أقول لك شيئاً . فأستحييك وأستحيي من نفسي في ترك نصحك ، وقد بلغني أنّك مكبٌّ على المعاصي ، مشتهر بالقبائح والمجون ، فقال : أيُّها الأمير ، أما المعاصي فإنّي أثق فيها بعفو الله عزّ وجلّ ، وقوله تعالى ، فوالله لوأنّ السندي يقول ماقاله الله سبحانه وتعالى لوثقت به ، فكيف بقول ربّ العالمين عزّ وجلّ وهو يقول : ﴿ قُلْ ياعِبَادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً .. ﴾ ، [الزُّمر : ٥٣/٣٩] .

وأمّا المجون ، فما كلُّ أحد يحسن أن يمجن ، إنّما المجون ظرف ، ولست أبعد فيه عن حدِّ الأدب ، ولا أتجاوز مقداره ، ثم نهض ، فقال العباس : هذا والله الأدب الّذي يحسن معه كلُّ شيء .

وقد روى أبو هفان ص ٤٩ من أخبار أبي نواس ، أنّ يوسف بن الداية حدَّثه أن أبا نواس كان محافظاً على صلاته ، إلاّ أن يسكر ، وكان يقضي مايفوته منها حين يفيق من سُكْرِه .

وفي (تهذيب ابن عساكر) أن محمد بن عمير قال : سمعت أبا نواس يقول : والله مافتحت سراويلي لحرام قط .

دخل الحسن بن هانئ (أبو نواس) على الأمين ، فقال له : ياحسن بن هانئ ! قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، قال : إنَّك زنديق ، فقلت ياأمير المؤمنين ، وأنا أقول مثل هذا الشِّعر ؟!

أُصلِّي صلاةَ الْخَمْس في حين وقتها ... وأشهدُ بالتَّوحيد لله خاضعاً
وأُحسِنُ غُسْلاً إنْ ركبت جنابةً ... وإن جاءني المسكينُ لم أكُ مانعا
وإنِّي وإن حانت من الكأس دعوة ... إلى بيعة السَّاقي أجبت مسارعا
وأشربها صرفاً على لحم ماعز ... وجَدْيٍ كثير الشَّحم أصبح راضعا
جواذب[1] جدي وجوزٌ وسكَّرٌ ... وما زال للمخمور مذ كان نافعا
واجعل تخليط الرَّوافض كلهم ... لفقحة بختيشوع في النَّار طابعا

فقال لي : كيف وقعت على فقحة بختيشوع ويلك ؟

قلت : بما تمت القافية ، فضحك وأمر لي بجائزة وانصرفت .

كتب أبو نواس قبل وفاته رقعة جاء فيها :

يا ربِّ إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ
إن كان لا يرجوكَ إلاَّ محسنٌ ... فمن الَّذي يدعو ويرجو المجرمُ ؟
أدعوك ربِّ كما أمرت تضرُّعاً ... فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحمُ
مالي إليكَ وسيلةٌ إلاَّ الرَّجا ... وجميل عفوك ، ثُمَّ أنِّي مسلمُ

قال أبو العتاهية : قد قلت عشرين ألف بيت في الزُّهد ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثَّلاثة الَّتي قالها أبو نواس :

---

(١) الجواذب : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم .

يـــــا نــــــواسي تـــوقَّر وتعـــــــــــــزَّى وتصبَّر
إن يكن ســـــــــاءك دهرٌ إن مـــــــــــاسرَّك أكثر
يـــــا كبير الـــــذَّنب عفـــــــــو اللهِ من ذنبــــــك أكبر

وهذه الأبيات مكتوبة على قبر النواسي .

فما نسب إلى أبي نواس ، معظمه منحول ، فمن باب أوْلى صلته بالرَّشيد ، الَّذي عرفنا مجالسه كيف كانت ، وثقافته مامستواها ، وهذه ناحية هامة جداً ، فالقصص الَّتي تذكرها الكتب الشَّعبية مرفوضة قطعاً ، لاصحّة لها ، وإنَّما هي افتراء على الخليفة الورع التَّقي ، سيِّد ملوك بني العبَّاس .

إن كتاب الأغاني الَّذي جعله كثيرون مرجعاً تاريخيّاً ، فقرن بين الرَّشيد وأبي نواس ، صاحبه متهم في أمانته الأدبية والتَّاريخية . ومن المخزي أن تُختار افتراءات الأغاني بكتاب تحت عنوان « نوادرِ أبي النواس ، وما كان بينه وبين الخليفة هارون الرَّشيد من المداعبات الخفيفة واللَّطائف الظَّريفة » ، ومع كل أسف أن يكون هذا الكتاب صادراً عن (المكتبة الأدبيَّة) ، وشتَّان بين المضمون وبين الواقع التَّاريخي الحقيقي ، وشتَّان بين أثر هذا الكتاب في المجتمع وبين اسم المكتبة (الأدبيَّة) !

ومما جاء في الكتاب على سبيل المثال : « ولأبي نواس مع الرَّشيد كلام ظريف في المجون والخلاعة ! » ، ولا يسعنا هنا أن نسجّل أكثر من هذا !

جاء في « ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال »(1) ؛ أنَّ الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب بحدَّثنا وأخبرنا .

---

(1) لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق علي محمد البجاوي : ٣/١٢٣ ـ ١٢٤

وقال الخطيب : حدّثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي ، سمعت أبا محمد بن الحسين بن النوبختي كان يقول : كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب النَّاس ، كان يشتري شيئاً من الصُّحف ثمّ تكون رواياته كلُّها منها ، ثمَّ قال العلوي : وكان أبو الحسن البَتّي يقول : لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج الأصبهاني ، فمن هو أبو الحسن البَتّي ؟ من البتّي هذا الّذي شهد هذه الشّهادة للأصبهاني ؟ إذا رجعنا إلى ترجمته في الأعلام[1] مثلاً نجده ماجناً خليعاً ، فماجن خليع ترفض شهادته بحقّ ماجن خليع مثله !

وجاء في معجم الأُدباء[2] ، أنَّ أبا الفرج الأصبهاني : علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرَّحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو الفرج الأصبهاني . مات في رابع عشر ذي الحجة سنة ٣٥٦/هـ/ في خلافة المطيع لله ، من كتبه : أخبار القيان ، كتاب المماليك الشُّعراء ، كتاب أُدباء الغرباء ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب الخَمّارين والخَمّارات ، كتاب الغلمان والمغنين ، كتاب مناجيب الخصيان .

وكان وسخاً قذراً لم يغسل ثوباً منذ فصّله إلى أن قطّعه ، كان وسخاً في نفسه ، ثم في ثوبه ونعله ، وحتّى إنه لم يكن ينزع دُرّاعة[3] إلاّ بعد إبلائها وتقطيعها ، ولا يعرف لشيء من ثيابه غسلاً ولا يطلب منه في مدة بقائه عوضاً[4] .

وجاء في (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، كان وسخاً قذراً لم يغسل

---

(١) أحمد بن علي البَتّي ، أبو الحسن : كاتب أديب ، غلب عليه الظَّرفُ والمجون .. [الأعلام : ١٧١/١] .

(٢) لياقوت الحموي : ٩٤/١٣ وما بعدها .

(٣) الدرّاعة واحدة « الدراريع » ، والمراد هنا ثيابه .

(٤) معجم الأُدباء : ١٠١/١٣

ثوباً منذ فصّله إلى أن قطّعه .. ثم ذكر ماذكره ياقوت الحموي في معجم الأُدباء وأضاف في الصفحات ١٦٠/١٦١/١٦٢ غرامياته ومجونه .

وجاء في (لسان الميزان) بشأن الأصفهاني ما يلي : شيعي ، وهذا نادر في أُموي ، يأتي بالأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا . ثمّ أورد قول الذّهبي في (ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال) .

من يقرأ الأغاني يرى حياة العباسيين لهواً ومجوناً وغناء .. وهذا يناسب المؤلِّف وخياله وحياته وما حوله . وإذا عدنا إلى مراجعنا التّاريخية الصّحيحة نجد حياة الرّشيد ديناً وورعاً وتقوى ، الصُّورة الأُولى نرفضها لأنّ المؤلّف يأتي بالأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا ، والصُّورة الثّانية هي الصُّورة الحقيقيّة الصّادقة لمن يحج عاماً ويغزو عاماً ، ويصلي في كل ليلة مئة ركعة .

☆ ☆ ☆

٣

أحمد أمين

في كتابه هارون الرّشيد(١)

قال أحمد أمين في الصَّفحة الخامسة من كتابه المذكور عن الرّشيد : « إنّه رجل عاطفي ذواق ، يخضع للمؤثرات الوقتيّة ، فيصلي مئة ركعة كلّ يوم ، ويحجّ ماشياً ، ويهيم من ناحية أُخرى بالجمال والغناء ومجالس الشّراب ، ويحدّثه أبو العتاهية حديث الزُّهد فيبكي حتّى تخضلّ لحيته ، ويقول له ابن مريم نكتة فيضحك حتّى يستلقي على قفاه » .

---

(١) العدد ٣ من كتاب الهلال أغسطس « آب » ١٩٥١ م/ذي القعدة ١٣٧٠ هـ .

ويقـول أحمـد أمين في صفحـة ٢١ : « كُتُب الأدب والشِّعر الَّتي روت عن مجالس الرَّشيد ، والقصص والحكايات الَّتي روتها عنه ألف ليلة وليلة ، وعلى الجملة فقد صوَّر ألف ليلة وليلة الرَّشيد تصويراً بديعاً لطيفاً » .

وقال أحمد أمين في صفحة ١٤٥ : « كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ الرَّشيد ، فقد أعلى البرامكة ، ثمّ فتك بهم ، وقد زلزلت الحادثة الشَّرق والغرب معاً ، لأنَّ البرامكة كان يحسنون معاملة الرَّعية ويتولون كلَّ شؤونهم ، ويتقرَّبون من الشُّعراء » .

وقال في صفحة ١٤٦ : « وأمَّا الغربيون ، فقد روعهم الحادث لأنَّه لم يكن في نظرهم عادلاً ، فلم يحاكموا بتهمة معينة ، ولا سمعت أقوالهم ، ولا عرفت أسباب النَّقمة عليهم ... » ثمّ قال في صفحة ١٤٧ : « والحقّ أن هذا عيب الحاكم المستبد دائماً ، فهو عرضة لأن يفعل أقصى الخير ، وأقصى الشَّر » . وقال في صفحة ١٥٩ : « على كل حال لم يخلد اسم هارون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وإنَّما خلدته مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء » ، وكرَّر ذلك في صفحة ١٦٤

وقال في صفحة ١٩٧ : « تجاوز الدِّين وأوامره » بسبب اتِّصاله بشارلمان .

وقال في صفحة ٢١٧ : « متوسط عمر الخلفاء ٤٨ سنة ، وإنَّما قصر عمرهم لشدّة مشاغلهم وإفراط أكثرهم في الشَّهوات ، وتحملهم أكبر المسؤوليات ، وتناسلهم من أصل قصر عمره » .

وهكذا يمضي أحمد أمين في تخبُّطه بحقّ الخليفة المسلم هارون الرَّشيد ليس في كتابه هذا فقط ، بل في كتابه « ضحى الإسلام » أيضاً ، حيث قال في صفحة ١١٢[1] : « فيظهر لي أنَّه كان شابّاً حادَّ العاطفة ، ولكن ليس من هذا

---

(١) ضحى الإسلام : ١١٢/١ ، [مكتبة النهضة المصرية] .

النَّوع الَّذي يستسلم كلَّ الاستسلام لشهواته ، بل هو مع ذلك قوي النَّفس ، جندي بالغريزة وبالتَّربية ، طالما قاد الجيوش وشرَّق وغرَّب ، هذه الحدَّة في العاطفة وقوة النَّفس ، ونضارة الشَّباب ، أظهرته بمظاهر مختلفة .. » .

☆ ☆ ☆

وتعليقنا على تخبُّط أحمد أمين ما يلي :

أحمد أمين أديب وليس مؤرِّخاً أوَّلاً ، فهو في تأليفه أبعد النَّاس عن التَّمحيص ودراسة النُّصوص والمراجع ، وصِدْق المؤلّف ، والثِّقة بما كتب .

وأحمد أمين ذو شخصيتين ثانياً ، شخصيَّة أزهريَّة ، وشخصيَّة استشراقيَّة غربيَّة ، ولقد ذكر لي الدكتور عبد الرَّحمن الحجي [1] ، في صيف عام ١٩٧٥ م ، أنَّ مدرِّساً للتَّاريخ شكا إلى أحمد أمين رفض تلامذته آراء المستشرقين وأفكارهم ، وأنَّ هناك سدّاً بينها وبينهم ، فقال له أحمد أمين ناصحاً وموجِّهاً : دُسَّ آراء المستشرقين وأفكارهم في حديثك وتوجيهك دون أن تذكر أنَّ ذلك من كلام المستشرقين وأفكارهم ، إنَّ ذكر اسم المستشرق ينفِّر الشَّباب المسلم مما سيقال لهم من آراء ، فاذكر الرَّأي الاستشراقي دون ذكر اسم المستشرق ، فيسهل عليك غرس ما تريد في أذهان الجيل !!

هاتان الناحيتان ، هما مفتاح شخصيَّة أحمد أمين ، وهما مفتاح دراسة مؤلَّفاته وآرائه الَّتي قدَّمها في كتبه : (أزهر مع استشراق) !

لقد قال أحمد أمين عن الرَّشيد ، إنَّه يهتم بالجمال والغناء ومجالس الشَّراب ، ونسي أنَّ الشَّراب الَّذي تعاطاه الرَّشيد هو (النَّبيذ) ، النَّبيذ الَّذي رأى أبو حنيفة حله ، وهو طبعاً غير نبيذ اليوم وإن اتفقت التَّسمية .

---

(١) في جلسة « بدار المأمون للتراث » ، بدمشق .

جاء في كتاب (بدائع الصّنائع في ترتيب الشّرائع) ، للإمام علاء الدين الكاساني الملقّب بملك العلماء : « وما يتّخذ من الزّبيب شيئان : نقيع ونبيذ ، فالنّقيع أن ينقع الزّبيب في الماء أياماً حتّى تخرج حلاوته إلى الماء ، ثمّ يطبخ أدنى طبخ ، فما دام حلواً يحلّ شربه ، وإذا غلا واشتدّ وقذف بالزّبد يحرم - أي تخمّر - ، وأمّا النّبيذ فهو الّذي يؤخذ من ماء الزّبيب إذا طُبخ أوفى طبخ ، يحلّ شربه مادام حلواً ، فإذا غلا واشتدّ وقذف بالزّبد يحلّ شربه مادون السّكر عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند محمّد والشّافعي لا يحلّ شربه » ، كما يحلّ عند أبي حنيفة وصاحبه أبي يوسف شرب نبيذ التّمر مادام حلواً .. ويحرم إذا أسكر .. وكذلك الشّراب المتّخذ من حَلّ العسل بالماء دون تخمّر ، وكذلك الأشربة المتّخذة من الشّعير والدّخن والذّرة والتّين والسكّر ، وأبو حنيفة يجيز الوضوء بالنّبيذ عند انعدام الماء ، عن عليٍّ عن النّبيّ ﷺ : « نبيذ التّمر وضوء من لم يجد الماء »[1] .

لذلك .. شرب الرّشيد النّبيذ بعرف زمانهم لا نبيذ هذا الزّمان ، ولقد تنبّه لذلك العلامة ابن خلدون[2] فقال : لم يعاقر الرّشيد الخمر لأنّه كان يصحب العلماء والأولياء ، ويحافظ على الصّلوات والعبادات ويصلّي الصّبح في وقته ، ويغزو عاماً ويحجّ عاماً ، وإنّما كان الرّشيد يشربُ نبيذ التّمر على مذهب أهل العراق وفتاواهم فيه معروفة ، وأمّا الخمر الصّرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها ، ولا **تقليد**

---

(١) ومما يذكر بكل أسف أن الدكتور طه حسين في كتابه « الشّيخان » ، عند حديثه عن مقتل أمير المؤمنين عمر ، قال الطبيب لعمر ، ما أحبُّ الشّراب إليك ؟ قال النّبيذ - أي الماء المحلّى - فسقاه نبيذاً ، فخرج من بعض جرحه .. إلخ .
وسكت الكاتب الكبير ، والمحقّق الشّهير ، الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي عن هذه الرّواية ، دون أن يفسّر ويعلّق على كلمة (نبيذ) ، وما المراد منها ، كما علّق على مسألة الشّورى في الكتاب نفسه !! لقد أظهر طه حسين عمر يشرب النّبيذ وهو يستعدُّ للقاء وجه ربّه ، وقصّته مع ابنه مشهورة معروفة في حدّه عندما سكر من خمر النّبيذ !!

(٢) ابن خلدون : ١٤/١

الأخبار الواهية بها ، فلم يكن الرَّجل بحيث يُواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملّة .

وابن حزم يقول عن الرَّشيد أيضاً : أراه كان يشرب النَّبيذ المختَلَف فيه ، لا الخمر المتَّفق على حرمتها[1] .

وأحمد أمين يعرف الحقيقة ويراوغ عنها لأمر في نفسه ، فهو يقول : « ونحن مع اتفاقنا في الرَّأي مع ابن خلدون في أنَّ الرَّشيد لم يشرب الخمر ، إنَّما المعروف عنه أنَّه شرب النَّبيذ »[2] ، لكنه لم يذكر أي نبيذ !!

وهنا ننبه إلى أمر فطن له ابن خلدون ، وهو : وضع الأخبار الكاذبة في الملاذ تقرُّباً إلى الكبراء ، فكانوا يبالغون في أخبار الملاهي ليغروهم عليها ، وليكسبوا من وراء ذلك مالاً أو جاهاً أو نحوهما .

ومما نذكره هنا أيضاً ، أنَّ العلماء الأتقياء ، والأولياء النُّصحاء ، كالفضيل بن عياض ، وأبي يوسف ، والإمام مالك لم ينبِّهوا الرَّشيد ولو مرة واحدة إلى ارتكابه الحرام ، كشرب الخمر مثلاً ، لقد كانت نصائحهم كلُّها عامَّة ، لقاء الله ، الخشية من الله ، ذكر الموت والدار الآخرة ، الزُّهد في المُلك .. ولو وُجِدَ خمر مسكر في حياة الرَّشيد لَنَبَّهه لذلك الفضيل ، أو أبو يوسف ، أو أبو العتاهية ، أو الإمام مالك ، أو الكسائي .. أو أبو معاوية الضَّرير .

أمَّا الغناء الَّذي يذكره أحمد أمين ، فهو غناء له معانيه السَّامية بشكل حتمي دون شك ، لأنَّ مجالس الرَّشيد معروفة ، والتزامه فيها بحدود الشَّرع من أهمِّ صفاتها ، ولقد كان الغناء ، معنى وأدباً ، مع لحن جميل .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٩٠/٩

(٢) ضحى الإسلام : ١١٤/١

ولقد أباح أهل الحرمين الغناء وحرّموا النّبيذ ، وأباح أهل العراق النّبيذ وحرّموا الغناء ، فأوجدوا رخصة باختلافهما ، قال الشّاعر :

رَأيُـهُ في السّماعِ رأيٌ حِجازيٌّ   وفي الشّراب رَأيُ أهلِ العراقِ

فأوّل اتّهام موجّه للرّشيد ـ شراب وغناء ـ مرفوض قطعاً على محكّ البحث الموضوعي العلمي .

ثمّ ذكر أحمد أمين ، مشوّهاً صورة الرّشيد الحقيقيّة ، أنّ الرّشيد ذوشخصيّتين ، ولو كان أحمد أمين مؤرّخاً متخصّصاً لرفض الأغاني ولرفض ألف ليلة وليلة ، عندها تظهر شخصيّة حقيقيّة واحدة للرّشيد . لقد اعتمد على كتاب (الأغاني) وعلى صاحبه الّذي يأتي بالأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا ، فلو حذف روح الاستشراق الّتي تعج بها نفسه ، لظهرت شخصيّة الرّشيد على حقيقتها ، ولما بدأت مجلة (روز اليوسف) تصوّر الرّشيد في كل عدد من أعدادها الأسبوعيّة في الخمسينات ، على أنّه صاحب جوارٍ وقينات ، متناسين دوره في إدارة دولة مترامية الأطراف ، مع تأمين حاجاتها ، وتأمين حدودها عزيزة كريمة الجانب ، مع نهضة علميّة عمرانيّة عظيمة ، وتجارة وصلت من أندونيسية شرقاً ، إلى مَرّاكُش وإسبانية وفرنسة غرباً .

ومن الغريب ، أن أحمد أمين يعتمد في تصويره حياة الرّشيد على كتاب ألف ليلة وليلة ، ثمّ يذكر هو نفسه في صفحة ٢٣ من كتابه هارون الرّشيد قول ابن النّديم : « ألف ليلة وليلة قصص تافهة » . فكيف يتم التّأليف على هذا النّحو ؟ كيف يضعُ الرّأي ونقيضَه في مؤلّف واحد ؟!

فإذا حذفنا مانقله أحمد أمين من الأغاني وألف ليلة وليلة ، لخرج كتابه ينطق بحقيقة الرّشيد ، ويتحدّث عن شخصيّته الوحيدة المعروفة بإيمانها وورعها وتربيتها ، ولما قال عنه : إنّه ذوشخصيّتين .

وقال أحمد أمين : إنّ نكبة البرامكة نقطة سوداء في حياة الرَّشيد ، ونحن سنفصِّل نكبة البرامكة كما هي بحسب مراجعنا العربيَّة المعتمدة ، ولكن أحمد أمين قال في ضحى الإسلام[1] : « كان وراء الثَّقافة الفارسيَّة ووراء العلماء الفرس قُوى تحميها وتدفعها ، هذه القوى ظاهرة أحياناً ، وخفية أحياناً ، وتنطوي على نيَّة خيّرة أحياناً ، ونيَّة سوء أحياناً ، منهم من يريد خدمة العلم والعمل على نشره ، لا يريد بذلك إلا وجه الله والعلم ، ومنهم من يريد أن يشيد بالقوميَّة الفارسيَّة والحطّ من القوميَّة العربيَّة ، بل منهم من يريد الكيد للإسلام وأهله .. ومنهم من يريد الشُّعوبيَّة ، ومنهم من ينشر الزَّندقة ، ومنهم من يغلو في التَّشيُّع لأهل البيت ، وهو يضمر السُّوء للمسلمين » .

ثمَّ قال أحمد أمين : « وقد كان من أعظم من يحمي الثَّقافة الفارسيَّة وينشرها (البرامكة) الفُرس ، ومالهم من مال وفير وكرم واسع يحقِّق رجاءهم ، ويبسط نفوذهم . روى الجاحظ عن ثُمامة قال : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكي) دار إلاَّ خالد بناها له ، ولا ضيعة إلاَّ وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلاَّ وخالد ابتاع أمَّهُ إن كانت أمَة ، أو أدَّى مهرها إن كانت حُرَّة ، ولا دابَّة إلاَّ وخالد حمله عليها »[2] .

ثمّ قال : كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثَّقافة الفارسيَّة . اتهموا بالزَّندقة ، فكان البرامكة يحسنون إلى محمد بن الليث الخطيب ، ويقدِّمونه ، وكان ممن يرمى بالزَّندقة[3] ، وكان هشام بن الحكم الرَّافضي منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان القيِّم بمجالس كلامه .. » .

---

(١) ضحى الإسلام : ١/١٩٢ وما بعدها .

(٢) نقلها أحمد أمين عن الجهشياري : ١٧٣ ، وتاريخ بغداد : ٤/١٤٤

(٣) عن ابن النَّديم : ١٢٠

وقال : « رأى الفُرْس أنّ انتقال الخلافة من الأُمويين إلى العباسيين لم يحقّق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربيّة وهي اليد الأُموية ، إلى يد أُخرى هي يد العباسيين ، ومطمع نفوسهم أن تكون الحكومة فارسيّة في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها ، ورأوا أنّ ذلك لا يتحقّق والإسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانويّة والزّرادُشْتِيّة والمزدكيّة ظاهراً إن أمكن ، وخفية إذا لم يمكن » .

أفبعد هذا كله ، كيف تكون نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ أو حياة الرّشيد ؟ نكبة البرامكة نكبة جماعية ، ضدّ عمل جماعي كما ظهر من قول أحمد أمين وكما سنرى .

ثمّ ذكر أحمد أمين « والحقُّ أن هذا عيب الحاكم المستبد فهو عرضة لأن يعمل أقصى الخير وأقصى الشّر » . وهذا كلام مرفوض أيضاً ، لأنّ خشية الله في قلب الرّشيد ، كانت تمنعه من عمل أقل شر ، لا أقصى الشّر ، وكلام أحمد أمين هذا ، يحتاج إلى أمثلة عن أعمال الرّشيد الّتي في أقصى الشّر ، علماً أنّ الرّشيد كان يطبّق شرع الله ، لقد وقع في ليلة واحدة ألف توقيع كلها في حدود الشّرع ، فأين أقصى الشّر ، إلا إذا كان يعني أحمد أمين أن أقصى الشّر هو نكبة البرامكة ؟!

ويؤسفنا أخيراً في حديثنا عن أحمد أمين ، أنّه قال : « على كلّ حال لم يخلّد اسم هارون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وإنّما خلدته مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء » ، وهذا الحكم لا ندري ما سنده ، لماذا لم يخلّده (بيت الحكمة) أو الصّناعة المتطوّرة في مجال السّفن والسّاعات والاصطرلاب ؟

لماذا لم تخلّده حروبه مع البيزنطيين ؟

لماذا لم يخلّده عدله وقربه من العلم والعلماء ؟

لماذا لم يخلده النظام الاقتصادي الذي وضعه أبو يوسف له خاصة ؟

كل ذلك لا ندري ماسبب تغافل أحمد أمين عنه ، ليجعل مجالس الغناء سبب خلود الرَّشيد ، ولكن له وجهة نظره المستمدة من الأغاني ومن ألف ليلة وليلة !!

لقد وصف ابن خلدون حياة الرَّشيد كما هي على حقيقتها ، فكانت صورة مشرقة مسلمة فاضلة ، فأغاظ ذلك الشَّخصيَّة الاستشراقيَّة عند أحمد أمين ، فقال متهكِّماً على ابن خلدون عندما قال قول الحق : « لقد نصَّب نفسه للدِّفاع عنه »[1] . فهو مُصر على إدانة الرَّشيد ولو لفق حوله قصصاً من الأغاني ، كتاب الأدب المعروف صاحبه بإتيانه بالأعاجيب ، ومن ألف ليلة وليلة ، قصص الخيال الهندي الفارسي .

☆ ☆ ☆

٤

كتاب إعلام الناس

بما وقع للبرامكة مع بني العبَّاس

قدم (الإمام الفاضل ، والهمام الكامل) محمد المعروف بدياب الإتليدي كتاباً طبعته مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر . وقد خصص الكتاب لتشويه الرَّشيد في عِرضِه وشرفه هذه المرَّة .

أورد الإتليدي قصة العبَّاسة مع جعفر البرمكيّ . وقبل أن نبدأ بمضمون الكتاب لنتعرّف على الإتليدي أوّلاً ، والعباسة ثانياً ، ثمّ نتعرّف القصة الّتي روّج لها الإتليدي في كتابه .

الإتليدي : محمد دياب ، مؤرّخ من إقليم المُنيَة ، وكما جاء في معجم

(١) في كتابه « هارون الرَّشيد » ، ص : ٦ . طبعة دار الهلال ١٩٥١

المؤلّفين[1] من آثاره : (إعلام النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العباس) ، فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠ هـ/١٦٨٩ م ، أي أن بين المؤلّف وحياة الرّشيد أكثر من تسع مئة عام .

أمّا العبّاسة ، فهي عُليّة بنت المهدي بنت المنصور ، من أجمل النّساء وأظرفهن ، وأكملهن فضلاً وعقلاً وصيانة ، قال الصولي : لا أعرف لخلفاء بني العبّاس بنتاً مثلها ، كانت أكثر أيّام طُهرها مشغولة بالصّلاة ، ودرس القرآن ، ولزوم المحراب ، تزوّجها موسى بن عيسى العباسي[2] .

والإتليدي يروي قصة رَفَضَها المؤرِّخون الأقدمون كالبغدادي في تاريخ بغداد ، وقال كثير من المؤرّخين : وليس من التّاريخ ما يقال عن صلتها ـ صلة العبّاسة ـ بجعفر البرمكي .

والعقل يقول : القصّة أوردها الأصفهاني في الأغاني ، فهي مرفوضة ممن يأتي بالأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا .

والقصّة تؤكِّد أنّ الرّشيد ثمل من الخمر وكذلك أُخته وجعفر ، وحياة الرّشيد تكذب تعاطيه الخمر ، وهذا مما يفسد القصة المختلقة من أرومتها .

والقصّة متعدِّدة الرِّوايات ، مما يثبت أنّها من نسج الخيال ، فمن الروايات أنّ الرّشيد تركها مع جعفر فواقعها جعفر ، وفي رواية أنّها زُيّنت وأُدخلت على جعفر ، فتعدُّد الرِّوايات واختلافها يثبت اختلاقها .

ومن ثمّ في رواية الإتليدي أنّ العباسة ولدت من جعفر ثلاثة بنين ، أولاً :

---

(١) معجم المؤلفين : تراجم مصنفي الكتب العربية لعمر رضا كحالة ، جـ٩ ، ط : ١٣٧٩/١٩٦٠ ، نقلاً عن فهرست الخديوية : ١١/٥ ، والبغدادي : إيضاح المكنون : ١٠٤/١

(٢) الأعلام : ١٨٩/٥

حَمْلٌ لمدة تسعة أشهر وهي في قصر الرَّشيد ، ألم يَرَ الرَّشيد بطنها يكبر ؟ وفي بطنها ولد وليس بذرة زيتون !! ثمّ الأولاد الثّلاثة ، وأحدهم ولد في مكة ، مادورهم في حياة العباسيين ؟ ماهي حياتهم ؟ أين كانت ؟؟! لو وجد هؤلاء لقاموا بدور في أي مجال من مجالات الحياة ، ولو جانبياً ، فما بالنا لا نسمع عنهم شيئاً ؟

ومَن أورد قصة العبَّاسة مع جعفر جعلها سبباً لنكبة البرامكة ، وهذا يجعلها من نسج الخيال أيضاً ، لأن نكبة البرامكة ، عمل حاسم ضدّ عمل خطير هو إساءة استعمال السُّلطة .

فمن وضع القصة ، ومن روَّج لها ؟

القصَّة من وضع البرامكة أو أعوانهم عن قصد ، روَّج لها الفرس ، إذلالاً للرَّشيد الَّذي نكبهم ، فالقصَّة في عرفهم تطاول على عِرض الرَّشيد وإذلال له ، وليطمسوا - عن قصد سوء - نواياهم وشعوبيتهم وتفاخرهم في فارسيتهم ، وليطمسوا تشيُّعهم المغرق في الحقد على العباسيين .

وروّج للقصَّة الخرافية كما يقول صاحب (الأعلام) كُتَّاب الخيال الغربيون ، فنشرت عنها عدة قصص منها مانشره (لاهارب Laharpe) بالفرنسية ، و (فون هامار Von Hammer) بالألمانية .

وقد نسي الإتليدي لأمر في نفسه فضل العبَّاسة وصيانتها لدينها ، وشغلها بالصَّلاة والقرآن ولزوم المحراب .. وألَّف كتاباً اعتمد كله على قصَّة من نسج الخيال البرمكي .

☆ ☆ ☆

وجاء

جرجي زيدان

في مطلع هذا القرن ، فطالعنا بمؤلفات[1] سجَّل فيها تاريخنا العربي الإسلامي باثنتين وعشرين رواية غرامية كان من بينها رواية « العبَّاسة أُخت الرَّشيد »[2] ، اعتمد بها كتاب الإتليدي (إعلام النَّاس بما وقع للبرامكة مع بني العبَّاس) ، وكتاب (الفخري) في الآداب السلطانية ، وديوان أبي نواس ، وكتاب الأغاني .. وهذا ماذكره (كمراجع ومصادر للبحث) على الصَّفحة الثَّانية من روايته .

إنَّ رواية جرجي زيدان ، ساهمت إسهاماً كبيراً ومدروساً في تشويه سيرة الرَّشيد ، فعنوان الرِّواية فيه تشهير ، إنَّ قصَّة الحبِّ الخياليَّة الَّتي شكَّ بها المؤرِّخون ، ودحضها معظمهم ، والَّتي اختُلِقَت حول العبَّاسة ، أنشأ عليها جرجي صيداً سميناً طيباً ، إنَّها العبَّاسة ، ومن تكون ؟ إنَّها (أُخت الرَّشيد) !! فما سينسجه جرجي من غرام وخمريات وحب ، إدانة للرَّشيد ، فالعبَّاسة (أُخت الرَّشيد) !! فالحديث خوض في عِرْض سيِّد ملوك بني العبَّاس ، وبالتَّالي خوض وتشويه في قمَّة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، ولذلك لم يجعل العنوان : (العباسة بنت المهدي) !!

إنَّ كتاب (إعلام النَّاس) لم يصل ليد كل قارئ ، لأنَّ طبعته قديمة ، فجاء

---

(١) أنشئت دار في بيروت باسم « دار مؤلفات زيدان » ، ولقد أصدرنا كتاباً تحت عنوان (جرجي زيدان في الميزان) ، ناقشنا فيه سائر روايات جرجي زيدان وما شوّه وما افترى وما طعن تحت شعار (روايات تاريخ الإسلام) .

(٢) ترجمت رواية (العبَّاسة أُخت الرَّشيد) إلى الفرنسيَّة سنة ١٩١٢ م ، مع مقدمة بقلم (كلود فارير) الروائي الفرنسي .

جرجي زيدان ، ونسج من هذا الكتاب رواية غرام وفجور ، وجاءت دار للنشر تتولى نشر مؤلّفات (المؤرّخ العظيم) بأثمانٍ شكلية تقل عن التّكلفة حتماً ، والهدف معروف ، إنّه تشويه لتاريخ وماضٍ وتراث ، تؤلم روائعه المستشرقين والمبشرين ومن والاهم من أمثال جرجي زيدان .

ولقد كان (لجرجي زيدان) دور رئيسي في تشويه حياة الرّشيد .

☆ ☆ ☆

٥

الطّالبيّون

كتب محمد بن علي طباطبا ، المعروف بابن الطقطقا كتاباً اسمه : (الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلاميّة)[١] ، والكتاب غريب في تناقضه ، يحمل الضّغينة والتّحامل على الرّشيد بشكل جلي واضح ، ويظهر الكتاب تحامل الطّالبيّين على الدّولة العباسيّة .

لقد كان الطّالبيّون يؤيّدون انتقال الحكم إلى العلويّين ، لكن الحكم انتقل من الأمويّين إلى بني العبّاس ، فكادوا للعباسيّين .

جاء في (الفخري في الآداب السّلطانيّة) : « ولم يكن الرّشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي أولاد بنت نبيه لغير جرم ، تدل على عدم خوفه من الله تعالى »[٢] . وهذا ادّعاء نراه يتراجع عنه في الكتاب نفسه حيث يقول :

« كان الرّشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحجُّ

---

(١) طبع دار صادر بيروت .

(٢) الكتاب المذكور : ٢٠

سنة ويغزو سنة .. وكان يصلي في كلّ يوم مئة ركعة ، وحجّ ماشياً ، ولم يحج ماشياً غيره ، وكان إذا حجّ حجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاث مئة رجل بالنّفقة السّابغة ، والكسوة الظّاهرة ، وكان يتشبّه في أفعاله بالمنصور ، إلاّ في بذل المال ، فإنّه لم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال »[1] .

ثم قال : « وكانت دولة الرّشيد من أحسن الدّول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة »[2] ، فالتّناقض واضح جداً بين تحامله على الرّشيد أوّلاً ، ثمّ رجوعه إلى الحقيقة ثانياً .

وفي هذا الكتاب ، يظهر جليّاً تضامن البرامكة مع الطّالبيّين ضدّ الدّولة العبّاسيّة ، فلقد أفرد صاحب (الفخري في الآداب السّلطانيّة) فصلاً كاملاً تحت عنوان (دولة البرامكة) ، وقال عنها :

« اعلم أنّ هذه الدّولة كانت غرّة في جبهة الدّهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشُدّت إليها الرّحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدّنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها ، فكان يحي وبنوه كالنّجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسّيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية ، والدّنيا في أيّامهم عامرة ، وأبّهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللّهف[3] ، ومعتصم الطّريد »[4] .

ثمّ ذكر قصّة العبّاسة وجعفر فقال : « فجامعها جعفر ، فحبلت منه وولدت

---

(١) الفخري في الآداب السّلطانية : ١٩٣

(٢) المرجع السابق : ١٩٥

(٣) اللّهْف واللّهَف : الأسى والحزن والغبط ، وقيل : الأسى على شيء يفوتك بعدما تُشرف عليه ، واللّهيف المضطر ، والملهوف : المظلوم ينادي ويستغيث ، [اللّسان : لهف] .

(٤) المرجع السابق : ١٩٧

ولـدَيْن وكتمت الأمر في ذلـك حتّى علم الرّشيـد ، فكان ذلـك سبب نكبـة البرامكة »[1] .

لقد كانت نكبة البرامكة برأيه بسبب العبّاسة وجعفر ، أمّا ماوصفه في دولة البرامكة « شدت إليها الرّحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدُّنيا أفلاذ أكبادها .. » فكل هذا لاقيمة له داخل الدّولة العباسيّة في رأي صاحب (الفخري في الآداب السُّلطانيّة) ، وعجباً لذلك ، كيف يتعامون عن الحق !!

ومما يذكر أنّ المؤلّف محمد بن طباطبا ، يتحامل على الرّشيد ، لأنّ الرّشيد أخمد حركة طباطبا ، وهو من الطّالبيّين ، واسمه : إبراهيم بن إسماعيل ، وأخمد من الطّالبيّين أيضاً ، يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[2] . مع أنّ الرّشيد أمّنه وكتب له كتاب أمان ، وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم ومنهم عبد الصّمد بن علي .

وهكذا .. من ألف باء التأريخ ، ألاّ يعتمد كتاب فيه تحيز ، لأنّ فيه افتراء ودسّاً وكذباً ، كما هي الحال في كتاب الإتليدي ، وكما هي الحال في كتاب (الفخري في الآداب السُّلطانية) ، وكذلك كل كتاب لطالبيّ يمكر بالدّولة العباسيّة ، وبسيّد ملوكها ، الرّشيد .

علماً أنّ الرّشيد حاول في أوّل خلافته أن يستميل قلوب الطّالبيين بشيء من الإحسان إليهم ، وكان أوّل مافعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد ، وسيّرهم إلى المدينة المنوّرة ، ماخلا العبّاس بن الحسن بن عبد الله بن علي ، ومع هذا الّذي بدا من الرّشيد ، لم يتركه الطّالبيّون على سجيّته ، فكان من أوّل الخارجين عليه يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، فندب الرّشيد

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية : ٢٠٩

(٢) الطبري : ٢٦٨/٨ ، والبداية والنهاية : ١٦٧/١٠

لقتاله الفضل بن خالد بن يحي فأجابه إلى الصُّلح على أن يكتب له الرَّشيد أماناً بخطّه ، فكتب له الرَّشيدُ الأمان ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم ، فجاء بغداد ، وأقام بمنزل يحي بن خالد .

حجَّ الرَّشيد فأتى قبر النَّبيِّ ﷺ زائراً ، وحوله قريش ورؤساء القبائل ، ومعه موسى الكاظم بن جعفر الصَّادق ، فقال : السَّلام عليك يا رسول الله يا ابن عم ، افتخاراً على من حوله ، فقال موسى : السَّلام عليك ياأبتِ ، فقال الرَّشيد : هذا هو الفخر ياأبا الحسن حقّاً[1] .

وقيل : إنَّ الرَّشيد حمل موسى الكاظم معه إلى بغداد ، وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه[2] وهذا مرفوض ، لقد كانت إقامة احترازية إلى زمن محدَّد ـ لم يتجاوز السَّنة ـ ثمَّ أطلقه وأعطاه ثلاثين ألف درهم ، وقال له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ماتُحِب ، وإن أحببت المضيَّ إلى المدينة ، فالإذن في ذلك لك .

والرَّشيد أوَّل خليفة زاد في الكُتُب : .. وأسأله أن يصلّي على محمَّد وآله[3] ..

وعلى الرَّغم من نصٍّ صريح في (سير أعلام النُّبلاء) يقول : وأحسن ـ الرَّشيد ـ إلى آل البيت[4] ، نجد في كتاب (الحياة السِّياسيَّة للإمام الرِّضا) تحاملاً شديداً على الرَّشيد ، ولكنه غير موثّق مطلقاً ، منه :

« أمَّا الرَّشيد .. الَّذي حصد شجرة النُّبوَّة ، واقتلع غرس الإمامة » على حدِّ تعبير الخوارزمي !! بلا مصدر أو مرجع موثّق .

والرَّشيد : « لم يكن يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي عليه السَّلام ، وهم

---

(١) وفيات الأعيان : ٣٠٩/٥

(٢) بلغ الرَّشيد أنَّ بعض النَّاس يبايعون للكاظم في المدينة المنوَّرة .

(٣) صبح الأعشى : ٤٨١/٦ ، مآثر الإنافة : ٣٤٧/٣

(٤) سير أعلام النُّبلاء : ٢٩٠/٩

أولاد بنت نبيّه ، لغير جرم ، تدل على عدم خوفه من الله تعالى » ، والمصدر هنا الفخري في الآداب السُّلطانيَّة : ٢٠ ، ومؤلِّف هذا الكتاب شيعي ، يقول مناقضاً كلامه السَّابق : « كان الرَّشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحجُّ سنة ويغزو سنة ، كذلك مدّة خلافته إلاّ سنين قليلة ، وكان يصلّي في كلّ يوم مئة ركعة ، وحجَّ ماشياً ولم يحجّ خليفة ماشياً غيره ، وكان إذا حجَّ حجَّ معهُ مئة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحجّ أحجَّ ثلاث مئة رجل بالنَّفقة السَّابغة والكسوة الظَّاهرة »(١) ، « وكانت دولة الرَّشيد من أحسن الدُّول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرَّشيدُ معظم الدُّنيا .. »(٢) ، فهل الرَّشيد صدقاً وبموضوعيَّة « لم يكن يخاف الله » ومنصور بن عمَّار يقول : « ما رأيت أغزر دمعاً عند الذِّكر من ثلاثة : فضيل بن عياض ، وأبي عبد الرَّحمن الزَّاهد ، وهارون الرَّشيد »(٣) ، وهو الَّذي يقسم « ووالله ماأُحب أحداً حبِّي له » أي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه(٤) ؟

ويتابع كتاب (الحياة السِّياسيَّة للإمام الرِّضا) فيقول عن الرَّشيد : « .. والَّذي بلغ من كرهه لهم ، أنَّ الشُّعراء كانوا يتقرَّبون إليه بهجاء آل علي عليه السَّلام ، كما يظهر بأدنى مراجعة للتَّاريخ ، ومراجعه التَّاريخية في الصَّفحة ذاتها (كتاب الأغاني) حيث جاء فيه : « .. حتَّام أصبر على آل بني أبي طالب ، والله لأقتلنَّهم ، ولأقتلنَّ شيعتهم ، ولأفعلنَّ وأفعلن » ، ونكرر : إنَّ مصدر هذا القول الأصفهاني في كتابه (الأغاني) ، ولقد تحدَّثنا عنه وعن كتابه بما فيه الكفاية !!

ويذكر الكتاب أيضاً : وهدم الرَّشيد قبر الحسين ، وحرث أرض كربلاء ،

---

(١) الفخري : ١٩٣

(٢) الفخري : ١٩٥

(٣) تاريخ بغداد : ٨/١٤ ، البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، تاريخ الخلفاء : ٢٨٥

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠ ، تاريخ بغداد : ٨/١٤ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

وما المصدر ؟ تاريخ الشّيعة : ٨٩ ، وشرح ميميّة أبي نواس : ٢٠٩ ، والمناقب لابن شهر آشوب : ١٩/٢ ؟!!؟

و « توّج موبقاته كلّها ، وفظائعه تلك بقتل سيّد العلويّين ، وقائدهم ، الإمام موسى بن جعفر » ، فهل قتل الرّشيد موسى أمْ أكرمه بثلاثين ألف درهم ومضى بها إلى المدينة المنوّرة ؟

والعجيب ، أنّه في (سيرة الأئمّة الإثني عشر : ٣٢٨/٢) جاء حرفياً : « وأحياناً كان يتظاهر بإكرامه وتعظيمه [لآل البيت] دجلاً ونفاقاً » ، فالإدانة واقعة ولو أكرم وعظّم ؟!!؟

كنت أودُّ أن أقرأ اسم مصدر واحد موثوق في مثل هذه المؤلّفات .

☆ ☆ ☆

٦

الروايات الكنسية الأوربيّة

اهتمت الرّوايات الكنسية بمراسلات الرّشيد ومعاصره ملك بلاد غاليا - فرنسة حالياً - شارلمان ، وبمراسلات نقفور وعبد الرّحمن بن الحكم ، وهي مراسلات لم تتعدّ السفارات والمجاملة إن ثبتت صحّتها .

إنّ الرّوايات الكنسيّة الأُوربيّة أعطت المراسلات حيّزاً أكبر من حجمها الحقيقي بكثير ، ودليل ذلك .. أنّ الرّوايات العربيّة ، والّتي اشتهر عنها أنّها لاتغفل شيئاً ، لم تذكر هذه المراسلات ، الأمر الّذي جعل العلاقات ، علاقات سفارات تجارية فردية ، أراد منها المسلمون إطلاع الفرنجة على حياة الشّرق

ومخترعاته وتقدمه العلمي والصّناعي والحضاري[1] .

بينما أراد شارلمان تحقيق هدف دعائي من ناحية ، والضّغط على البيزنطيّين من ناحية ثانية ، علماً أنّ الضّغط على البيزنطيّين أمر حاصل من قبل الدّولة العباسيّة ، دون حثّ من قبل شارلمان .

إن ذكريات الفتوحات الإسلاميّة في قلب فرنسة وسويسرة وإيطالية ، تفزع شارلمان وتقلقه ، وزاد عليه خطر البيزنطيين من الشّرق ، فأراد أن يوجّه للبيزنطيّين ضغطاً عباسيّاً ، يتفرغ بعدها للمسلمين في الأندلس ، وهذا مالم يحصل عليه شارلمان ، لأن الرشيد ماأضرته إمارة الأمويين في الأندلس ، فقد بقي الأُمويُّون الأندلسيُّون تحت راية الخلافة الّتي لم تتعدّد ، وحافظوا على دولة الإسلام بخلافة واحدة ، وراية واحدة ، فالرّشيد هو الخليفة في بغداد ، وهو الخليفة الأوحد في عصره ، وهم في الغرب أُمراء ليس غير ، وهذه فضيلة تذكر لعبد الرّحمن الدّاخل (صقر قريش) بالخير والجميل .

وإيمان الرّشيد لا يمكّنه من أن يستعين على المسلمين في الأندلس بالمشركين ، فهم لم يضروه شيئاً ، ووجهوا ضغطهم إلى شارلمان ولم يفكّروا مطلقاً بتوجيه ضغطهم إلى الرّشيد ، فهم الذين احترموا مركز الخلافة وقبلوا بالإمارة .

والرّوايات العربيّة لم تذكر مراسلات شارلمان وبَطْريق بيت المقدس ، الّتي روّجت لها الرّوايات الكنسيّة الأُوربيّة ، بأمر من شارلمان ، وسبب إغفال الرّوايات العربيّة للأمر شيء طبيعي ، لأنّ الدّولة العبّاسيّة أيّام الرّشيد كانت من القوّة بحيث تجعلنا نصفها بالدّولة الأعظم والأقوى في العالم كلّه ، فلا يمكن لمثلها أن تعطي امتيازات لأحد مهما كانت وضعيته ، ولكن شارلمان أراد كسباً إعلامياً دعائياً ، أراد تعظيم وتفخيم المراسلات ، وتكبير مكانتها ـ وقد تكون لا صحّة لها

(١) جاء في قصّة الحضارة : ٩٤/١٣ : « ورأى الرّشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور الرّوم ، فأرسل إليه وفداً مثقلاً بالهدايا ، منها فيل وساعة مائيّة معقّدة التّركيب » .

في التّاريخ - ليعظم نفسه ، ويفخّم مكانته ، أمام شعبه ، فيظهر وكأنّه من القوّة يحاكي الرّشيد في قوّة دولته وسطوتها وجبروتها ، وكأنّه يلوذ بها ويقارعها المكانة والنّدّيّة والعظمة .

ومن هنا قارن المؤرّخون الأُوربيون الرّشيد بشارلمان ، وشارلمان بالرّشيد ، فجعلوا قصر الرّشيد كقصر شارلمان ، على ما فيه من قصص حبّ وغراميّات وشراب ورقص وضيع ، وغناء مائع . فشوّهوا حياة الرّشيد في كتبهم وفكرهم ، وبقيت الحقيقة في كتبنا ومراجعنا العربيّة .

لقد جعلوا حياة الرّشيد ومجالسه ، كحياة شارلمان ومجالسه ، لقد قرنوا بينهما ظلماً وبهتاناً وإفكاً . لقد ظنّ الأُوربيون والمؤرّخون منهم خاصة ، أنّ حياة النّعيم والمال والسُّلطة ، لا يمكن أن تكون إلاّ بالنِّساء والرّاقصات ، وبالخمور والحفلات الحمراء ، وكأنّ الرّفاه والسّعادة والمُلْك لاتتم إلاّ بها ، فألصقوا ما في قصور ملوكهم بالرّشيد ، إمّا عن حسن نِيّة بسبب الجهل ، أو عن سوء قصد ، وتوجيه مدروس !!

وساعد على تشويه صورة الرّشيد في أذهان الغرب أيضاً الرّوايات البيزنطيّة . فقد حطّم الرّشيدُ كبرياء نقفور المفتعلة ، ورسالته الشّهيرة « من أمير المؤمنين هارون الرّشيد ، إلى كلب الرّوم نقفور .. » مشهورة معروفة ، ولقد فعلت فعلتها في نفوس البيزنطيّين ، فكيف يوجّه الرّشيد مثل هذه الرّسالة إلى نقفور ، وهو المصلح الدّيني في حياة بيزنطة ؟!

لقد شهدت منظراً غريباً عندما كنت في السّنة الثّالثة في كليّة الآداب قسم التّاريخ في جامعة دمشق ، عندما وقف الأُستاذ يشرح محاضرة عنوانها : (العلاقات البيزنطيّة العربيّة في صدر الدّولة العباسيّة) ، ولما قرأ الأُستاذ رسالة نقفور ، ثمّ ردّ الرّشيد إليه : « إلى كلب الرّوم نقفور » وقفت راهبة (كانت تدرس التّاريخ معنا) وهي تبكي وتقول بانفعال وعصبيّة : ليس نقفور كلب

الرُّوم ، إنَّه ملك الرُّوم ، إنَّه ملك لا كلب ، وأخذت تبكي وتصرخ بانفعال . فهدَّأ الأُستاذ المحاضِر من انفعالها بحكمة ، وأثبت لها أنَّ كلَّ الرِّوايات العربيَّة ذكرت الرَّدَّ على حقيقته كما أوردناه ، إلا غريغوريوس الملطي ، المعروف بابن العبري ، الَّذي أورد النَّص : « من هارون أمير المؤمنين ، إلى نيقفور (زعيم) الرُّوم ، قد قرأت كتابك والجواب ماتراه دون ماتسمعه »[1] ، وتحريف النَّص من قبل ابن العبري يثبت التَّشويه والحقد والصَّليبيَّة ، ولكنَّها لم تقنع ، وشهقت في بكائها غيرة على نقفور .

فالرِّوايات البيزنطيَّة والكنسيَّة الغربيَّة ، الَّتي جعلت الرَّشيد بطل ألف ليلة وليلة ، ساهمت في تشويه حياة الرَّشيد ، حقداً وافتراء ومكيدة ، ولا ننسى مايحمله تحامل بيزنطة في ثناياه من التَّعصُّب والصَّليبيَّة أيضاً !!

☆ ☆ ☆

٧

نكبةُ البرامكة وهلاكُهُم

« سُئِل الرَّشيد عن سبب نكبة البرامكة فأجاب : لوعلمت يميني بالسَّبب الَّذي له فعلت هذا لقطعتها »[2] .

لما مات الخليفة الهادي أخو الرَّشيد ، جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرَّشيد ، فوجده نائماً ، فأيقظه وبشَّره بالخلافة ، فجعله الرَّشيد وزيره ودفع خاتمه إليه . فمن هو يحيى بن خالد ؟

---

(١) تاريخ مختصر الدُّول : ١٢٨

(٢) البداية والنهاية : ١٠/١٨٩ ، وتاريخ اليعقوبي : ٢/٤٢١ ، والكامل في التَّاريخ : ٥/١١٤ ، وتاريخ ابن الوردي : ١/٤٢٢

إنَّه يحيى بن خالد بن برمك[1] ، أبو الفضل ، سيِّد بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدِّب الرَّشيد ومعلِّمه ، رضع الرَّشيد من زينب بنت منير زوجة يحيى مع ابنها الفضل ، فكان الرَّشيد يدعو يحيى : ياأبي !!

أمرهُ المهدي سنة ١٦٣ هـ ـ وكان الرَّشيد في حينها في الرَّابعة عشرة من عمره ـ أن يلازمه ، ويكون كاتباً له ، وأكرمه بمئة ألف درهم ، وقال : هي معونة لك على السَّفر مع هارون ، ولما ولي الرَّشيد الخلافة ، قلَّده الأمر ، فبدأ يعلو شأنه[2] ، وخصوصاً بعد موت الخيزُران أُمِّ الرَّشيد ، فقد كان يحيى لا يقطع أمراً إلاَّ بمشورتها بناء على أمر مسبق من الرَّشيد ، فكانت هي المشاورة في الأُمور كلِّها ، فتبرم وتحلّ وتمضي وتحكم[3] .

ولما دخلت سنة ١٨٧ هـ ، كان فيها مهلك البرامكة على يد الرَّشيد ، فقتل جعفر بن يحيى ، وحبس يحيى في الرِّقَّة إلى أن مات .

فلماذا نكب الرَّشيد البرامكة ؟

جواب هذا السؤال ، اختلف فيه المؤرِّخون .. وتعدَّدت الرِّوايات في كتبهم .. ويمكن أن نستخلص إجاباتهم من المصادر المعتمدة .. كالطَّبري ، والبداية والنهاية ، والكامل في التَّاريخ ، وتاريخ بغداد ، وتاريخ الموصل ، والنُّجوم الزَّاهرة ، وعيون الأخبار ، وتاريخ اليعقوبي ، ومروج الذَّهب ومعادن الجوهر ، وحسن المحضارة ، والأخبار الطِّوال[4] .. ويمكننا أن نستخلص الأسباب التَّالية :

---

(١) الأعلام : ١٧٥/٩ ، وكانت ولادة يحيى عام : [١٢٠ هـ = ٧٣٨ م] ، وتوفي عام : [١٩٠ هـ = ٨٠٥ م] . « راجع جدول نسب البرامكة في نهاية الكتاب » .

(٢) البداية والنهاية : ١٦١/١٠

(٣) راجع رواية البداية والنهاية : ١٦١/١٠ ، والطَّبري : ٢٠٥/٨ وما بعدها .

(٤) راجع ثبت المراجع للتعرف على أسماء المؤلفين والطبعات المعتمدة في بحثنا هذا .

١ ـ الرّواية الأُولى :

ذكر الطّبري تحت عنوان : (ذكر الخبر عن إيقاع الرّشيد بالبرامكة) ما يلي :

أمّا سبب غضبه عليه ـ على جعفر بن يحيي ـ الّذي قتله عنده ، فإنّه مختلَف فيه ، فمن ذلك ماذكر عن بختيشوع بن جبريل[1] ، عن أبيه أنّه قال : إنّي لقاعد في مجلس الرّشيد ، إذ طلع يحيي بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ، فلما دخل وصار بالقُرب من الرّشيد وسلّم عليه ردّ عليه ردّاً ضعيفاً ، فعلم يحيي أن أمرهم قد تغيّر .

قال : ثمّ أقبل على الرّشيد ، فقال الرّشيد : ياجبريل ! يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت : لا ، ولا يطمع في ذلك ، قال : فما بالُنا يُدخلُ علينا بلا إذن ! فقام يحيي ، فقال : ياأمير المؤمنين ، قدّمني الله قبلك ، والله ماابتدأتُ ذلك السّاعة ، وما هو إلاّ شيء كان خصّني به أمير المؤمنين ، ورفع به ذكري .. وإذ قد علمتُ فإنّي أكون عنده في الطّبقة الثّانية من أهل الإذن ، أو الثّالثة إن أمرني سيدي بذلك ، قال : فاستحيا وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ، وعيناه في الأرض ، مايرفع إليه طرفه ، ثمّ قال : ماأردتُ ماتكره ، ولكن النّاس يقولون . قال : فظننت أنّه لم يسنح له جواب يرضيه فأجاب بهذا القول ثمّ أمسك عنه ، وخرج يحيي[2] .

٢ ـ الرّواية الثّانية :

رفع محمد بن اللّيث رسالة إلى الرّشيد يعظه فيها ، ويذكره قائلاً : إنّ

---

(١) ابن طبيب الرّشيد (جبريل بن بختيشوع) ، مرت ترجمته .

(٢) الطّبري : ٢٨٧/٨

يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيا بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت في عباده وبلاده ، فقلت : يارب إنّي استكفيتُ يحيى أُمور عبادك ! أتراك تحتجّ بحجّة يرضى بها عنك !! مع كلام فيه توبيخ وتقريع .

فدعا الرّشيد يحيى ، وقد تقدّم إليه خبر الرّسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ، قال : فأيّ الرّجال هو ؟ قال : متّهم على الإسلام ، فأمر به فوضع في المطبَق[1] دهراً . فلما تنكّر الرّشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه ، فأُحضر ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يامحمد ، أتحبني ؟ قال : لا والله ياأمير المؤمنين ، قال : تقول هذا ؟ قال : نعم ، وضعت في رجلي الأكبال ، وحُلتَ بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ، ويحب الإلحاد وأهله ، فكيف أُحبُّك ؟ قال : صدقت ، وأمر بإطلاقه ، ثمّ قال : يامحمد ، أتحبني ؟ قال : لا والله ياأمير المؤمنين ، ولكن قد ذهب ما في قلبي ، فأمر أن يُعطى مئة ألف درهم ، فأُحضِرَت ، فقال : يامحمد ، أتُحبني ؟ قال : أما الآن فنعم ، قد أنعمت عليّ ، وأحسنت إليّ . قال : انتقم الله ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك ، قال : فقال النّاس في البرامكة فأكثروا ، وكان ذلك أوّل ما ظهر من تغيُّر حالهم .

دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرّشيد ، فقام الغلمان إليه ، فقال الرّشيد لمسرور الخادم : مُرِ الغلمان ألاّ يقوموا ليحيى إذا دخل الدّار . فقال : فدخل فلم يقم إليه أحد ، فاربدّ لونه ، فقال : وكان الغلمان والحجّاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربّما استسقى الشّربة من الماء أو غيره ، فلا يسقونه ، وبالحري إنْ سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[2] .

---

(١) لعلّه اسم سجن .

(٢) الطبري : ٢٨٨/٨ ، والبداية والنهاية : ١٨٩/١٠

٣ ـ الرّواية الثّالثة :

ذكر أبو محمد اليزيدي ـ وكان فيما قيل من أعلم النّاس بأخبار القوم ـ قال : مَن قال إنّ الرّشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدّقه ، وذلك أنّ الرّشيد دفع يحيى[1] إلى جعفر فحبسه ، ثمّ دعا به ليلة من اللّيالي فسأله عن شيء من أمره ، فأجابه ، إلى أن قال : اتّقِ الله في أمري ، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً محمّد ﷺ ، فوالله ماأحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ، فرقّ عليه ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، قال : وكيف أذهب ولا آمن أن أُؤخذ بعد قليل فأُردّ إليك أو إلى غيرك ! فوجّه معه من أدّاه إلى مأمنه ، وبلغ الخبر الفضل بن الرّبيع ، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه ، فجلا الأمر ، فوجده حقّاً ، وانكشف عنده ، فدخل على الرّشيد فأخبره ، فأراه أنّه لا يعبأ بخبره ، وقال : وما أنت وهذا لاأمّ لك ! فلعل ذلك عن أمري ، فانكسر الفضل ، وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا ، وجعل يلقّمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر مادار بينهما أن قال : مافعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله ياأمير المؤمنين في الحبس الضّيّق والأكبال ، قال : بحياتي ! فأحجم جعفر ـ وكان من أدقّ الخلق ذهناً ، وأصحّهم فكراً ـ وهجس في نفسه أنّه قد علم

---

(١) (يحيى الطّالبي) وهو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، دعا إلى نفسه فبايعه أهل الحرمَيْن واليمن ومصر ، وذهب إلى اليمن فأقام مدة ، ودخل مصر والمغرب ثم العراق ، وقصد بلاد ماوراء النهر ، واشتدّ الرّشيد في طلبه ، فانصرف إلى خاقان (ملك الترك) ومعه شيعته ، ثمّ عاد إلى طبرستان فبلاد الدّيْلم سنة ١٧٥ هـ ، فكثر جمعه ، ندب الرّشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي ، وضعف أمر يحيى فطلب الأمان من الرّشيد ، فأجابه بخطّه ، واستقدمه إلى بغداد ، وأغدق عليه الرّشيد عطاياه إلى أن بلغه أنّه يدعو لنفسه سِرّاً ، فحبسه عند الفضل بن يحيى ، ورقّ له هذا بعد مدة ، فأطلقه ، وعلم الرّشيد ، فأرسل من أعاده إلى الاعتقال ، وكان كثيراً مايدعو به إليه فيناظره ، واستمر إلى أن مات في محبسه . « الأعلام : ١٥٤/٨ » .

بشيء من أمره ، فقال : لا وحياتك ياسيدي ولكن أطلقته وعلمت أنّه لا حياة به ولا مكروه عنده ، قال : نِعمَ مافعلت ، ماعدوتَ ما كان في نفسي ، فلما خرج أتبعه بصره حتّى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثمّ قال : قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضّلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان[1] .

ثمّ ذكر الطّبري : وحدّث إدريس بن بدر ، قال : عرض رجل للرّشيد وهو يناظر يحيى بن خالد البرمكي ، فقال : ياأمير المؤمنين نصيحة ، فادعُ بي إليك ، فقال لهرثمة : خذ الرّجل إليك ، وسله عن نصيحته هذه ، فسأله ، فأبى أن يخبره وقال : هي سرٌّ من أسرار الخليفة ، فأخبر هرثمة الرّشيد بقوله ، قال : فقل له لا يبرح الباب حتّى أفرغ له ، قال : فلما كان في الهاجرة[2] انصرف من كان عنده ، فدعا به ، فقال : أخلني ، فالتفت هارون إلى بنيه فقال : انصرفوا يافتيان ، فوثبوا وبقي خاقان وحسين على رأسه ، فنظر إليهما الرّجل ، فقال الرّشيد : تنحّيا عني ، ففعلا ، ثمّ أقبل على الرّجل ، فقال : هاتِ ماعندك ، فقال : على أن تؤمّنني ! قال : على أن أؤمّنك وأُحسن إليك . قال : كنت بحلوان[3] في خان من خاناتها ، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في دُرّاعة صوف غليظة ، وكساء صوف أخضر غليظ ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه بصدد ، يوهمون مَن رآهم أنّهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ، ومع كلِّ واحد منهم منشور يأمن به إن عُرض له ، قال : أوتعرف يحيى بن عبد الله ؟ قال : أعرفه قديماً ، وذلك الّذي حقّق معرفتي به بالأمس ، قال : فصفه لي ، قال : مربوع أسمر رقيق السّمرة ، أجلح[4] حسن

(١) الطّبري : ٨/٢٨٩

(٢) الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر . مختار الصحاح : ٥٩٤

(٣) حلوان : عدة مواضع ، وحلوان العراق هي في آخر حدود السّواد مما يلي الجبال من بغداد ، [معجم البلدان : ٢/٢٩٠] .

(٤) الجلح : انحسار الشعر عن جانبي الرأس .

العينين ، عظيم البطن ، قال : صدقت ، هو ذاك ، قال : فما سمعته يقول ؟ قال : ما سمعته يقول شيئاً ، غير أنّي رأيته يصلّي ، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب غسيل ، فألقاه في عنقه ونزع جبّة الصُّوف ، فلما كان بعد الزَّوال صلّى صلاة ظننتها العصر ، وأنا أرمقه ، أطال في الأُوليين ، وخفّف في الأُخريين ، فقال الرَّشيد : لله أبوك ! لجاد ما حفظت عليه ، نعم تلك صلاة العصر ، وذاك وقتها عند القوم ، أحسن الله جزاءك وشكر سعيك ! فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدَّولة ، وأصلي من مرو ، ومولدي مدينة السَّلام ، قال : فمنزلك بها ؟ قال : نعم ، فأطرق مليّاً ، ثمَّ قال : كيف احتمالك لمكروه تمتحن به في طاعتي ! قال : أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ، قال : كن بمكانك حتّى أرجع ، فطفر في حجرة كانت خلف ظهره ، فأخرج كيساً فيه ألفا دينار ، فقال : خذ هذه ، ودعني وما أُدبّر فيك ، فأخذها ، وضمّ عليها ثيابه ، ثمَّ قال : يا غلام ، فأجابه خاقان وحسين ، فقال : اصفعا ابن اللّخناء[1] ، فصفعاه نحواً من مئة صفعة ، ثمَّ قال : أخرجاه إلى من بقي في الدّار ، وعمامته في عنقه وقولا : هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين وأوليائه ! ففعلا ذلك ، وتحدّثوا بخبره ، ولم يعلم بحال الرَّجل أحد ، ولا بما كان ألقى إلى الرَّشيد حتّى كان من أمر البرامكة ما كان .

٤ ـ الرِّواية الرَّابعة :

ذكر يعقوب بن إسحاق أنَّ إبراهيم بن المهدي حدَّثه ، قال : أتيت جعفر بن يحيى في داره الَّتي ابتناها ، فقال لي : أما تعجب من منصور بن

---

(١) اللَّخَنُ : نتنُ الرِّيح عامة ، واللَّخَنُ : قُبْح ريح الفَرْج .. [اللّسان : لخن] .

زياد ؟ قال : قلت فماذا ؟ قال : سألته هل ترى في داري عيباً[1] ؟ قال : نعم ، ليس فيها لبِنة ولا صنوبرة ، قال إبراهيم : فقلت : الَّذي يعيبها عندي أنَّك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لاآمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين ، قال : هو يعلم أنَّه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك ، سوى ماعوَّضني له ، قال : قلت : إنَّ العدو إنَّما يأتيه في هذا من جهة أن يقول : ياأمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته ! وأين صِلاته ! وأين النَّوائب الَّتي تنوبه ! وما ظنك ياأمير المؤمنين بما وراء ذلك ! وهذه جملة سريعة إلى القلب ، والموقف على الحاصل منها صعب ، قال : إن سمع مني قلت : إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالسَّتر لها أو بإظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي ، فوضعتها في رأس جبل ، ثمّ قلت للنَّاس : تعالوا فانظروا .

٥ - الرِّواية الخامسة :

ومما قيل عن سبب نكبة البرامكة ، أنَّ الرَّشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته العباسة بنت المهدي ، وكان يُحضرها إذا جلس للشَّراب ، وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلَّة صبره عنه وعنها ، وقال لجعفر : أُزوِّجكها ليحلّ لك النَّظر إليها إذا أحضرتها مجلسي ، وتقدَّم إليه ألا يمسَّها ، ولا يكون منه شيء مما يكون للرَّجل إلى زوجته ، فزوَّجها منه على ذلك ، فكان يُحضرها مجلسه إذا جلس للشُّرب ، ثمَّ يقوم عن مجلسه ويُخليهما ، فيثملان من الشَّراب ، وهما شابَّان ، فيقوم إليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلاماً ، فخافت على نفسها من الرَّشيد إن علم بذلك ، فوجَّهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة ، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون ، حتَّى وقع بين العبَّاسة وبين بعض جواريها شرٌّ ، فأنهت

---

(١) كان جعفر بن يحيي يقول : ليس لدارنا هذه عيب ، إلاَّ أنَّ صاحبها فيها قليل البقاء ، - ويعني نفسه - ، [الطَّبري : ٢٩٢/٨] .

أمرها وأمر الصّبيّ إلى الرّشيد ، وأخبرته بمكانه ، ومع من هو من جواريها ، وما معه من الحلي الّذي كانت زيّنته به أُمُّه ، فلما حجّ هارون أرسل إلى الموضع الّذي كانت الجارية أخبرته أنّ الصّبيّ به مَن يأتيه بالصّبيّ ، وبمن معه من حواضنه ، فلما أُحضروا سأل اللّواتي معهنّ الصّبي ، فأخبرنه بمثل القصّة الّتي أخبَرَتْه بها الجارية عن العبّاسة ، فأراد قتل الصّبي ، ثمّ تحوّب[1] من ذلك .

- وقيل في ذلك رواية أُخرى ..

لمّا زوّج الرّشيد أُخته العبّاسة من جعفر أحبها حبّاً شديداً ، فراودته عن نفسه ، فامتنع أشدّ الامتناع خوفاً من الرّشيد ، فاحتالت عليه ، وكانت أُمّه تهدي له في كلّ ليلة جمعة جارية حسناء بكراً ، فقالت لأُمّه : أدخليني عليه بصفة جارية ، فهابت ذلك فتهددتها حتّى فعلت ذلك ، فلما دخلت عليه لم يتحقّق وجهها فواقعها ، فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟

وحملت من تلك اللّيلة ، فدخل على أُمّه فقال : بعتيني والله برخيص .

ثمّ إنّ والده يحيي بن خالد جعل يضيق على عيال الرّشيد في النّفقة حتّى شكت زبيدة ذلك إلى الرّشيد مرّات ، ثمّ أفشت له سرّ العبّاسة فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أنّ الولد قد أرسلت به إلى مكة ، حجّ في ذلك العام حتّى يتحقّق الأمر .

اختلفت الرّوايتان ، فظهر التّلفيق والكذب جليّاً ، إنّهما روايتان مختلفتان كلّ الاختلاف في مجرى الأحداث ، مما يثبت الخيال والاختلاق .

الرّواية الأُولى ذكرت أيضاً فيا ذكرت ، أنّ الرّشيد كان يعتب على الفضل بن يحيي لتركه الشّراب معه ! وتقول الرّواية ، كان الفضل يقول :

---

(١) أي خاف أن يأثم .

لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته ، وكان جعفر يدخل في منادمة الرَّشيد وأبوه - الفضل - ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأُنس به ، فيترك أباه ، ويدخل مع الرَّشيد فيما يدعوه إليه :

١ - الرَّشيد لا يشرب شراباً مسكراً ، غير أنَّه شرب النَّبيذ ، وهو الماء المحلَّى الَّذي لا يُسكِر ، مما يوضح أنَّ الرِّواية والأقوال ، رواية وأقوال برمكية ، أرادت الحطَّ من قدر الرَّشيد الَّذي نكب البرامكة ، والرَّفع من تربية وأخلاق الفضل بن يحيى وابنه جعفر .

٢ - ما ورد مطلقاً أنَّ الرَّشيد جالس أو نادم النِّساء ، فأراد البرامكة الحطَّ من فضل مجالس الرَّشيد ، وما فيها من احتشام وأدب ودين .

٣ - ذكرت الرِّواية الأُولى أنَّ جعفر كان يقترب من العبَّاسة بعد كل جلسة يثمل بها الرَّشيد !! فولدت منه غلاماً ، وفي الرِّواية الثَّانية ، هي الَّتي دفعت بنفسها إليه كجارية ، لتثبت الرِّواية عفَّة جعفر ، وسوءَ أخلاق العبَّاسة . وفي الرِّواية الثَّانية أيضاً ما ينقضها ، لقد جاء : لقد كانت أُمُّه تهدي إليه بنتاً بِكْراً كلَّ ليلة جمعة ، والعبَّاسة ليست بكراً ، لقد مات عنها زوجها راوي الحديث الشَّريف ، أمير البصرة والكوفة ، محمد بن سلمان بن علي بن عبد الله بن العباس .

٤ - الرِّواية الأُولى تقول : الرَّشيد لا يصبر عن جعفر وعن أُخته العبَّاسة ، فكيف كبر بطن العبَّاسة ، وكيف ولدت في بيته ، ولم ينتبه لذلك ؟! وتقول الرِّواية الَّتي أوردها الإتليدي أنَّ عدد الغلمان ثلاثة ، وفي رواية أُخرى (غلامان) ، وهذا يجعل الرِّواية في منتهى الافتراء !!

٥ - العبَّاسة ، يعرفها جعفر جيداً ، لذلك ذُكِرَت الرواية الثَّانية لتنسجم القصَّة : « دخلت عليه ولم يتحقَّق من وجهها » ، فكيف لم يتحقَّق منها ولم يعرفها ، وهي الَّتي تداوم معه يومياً مجلس الشَّراب ؟!؟

٦ ـ ومما يطعن في الرِّوايتين ، الرِّواية الأُولى جعلت انتشار الخبر على لسان جارية اسمها (الرافعة) ، وفي الرِّواية الثَّانية جعلت الأمر ينتشر على لسان (زبيدة) .

٧ ـ والتَّاريخ لم يذكر لنا مطلقاً مصير الأميرين ابني العبَّاسة ، إنَّهما أميران من نسل (فارسي برمكي) ، لوصحَّ وجودهما ، لاغتنم الفُرْسُ الفرصة ، وبايعوا لهما كيداً بالدَّولة العبَّاسية ، العربيَّة الحكم والمظهر .

وهكذا ، فإن المتفحِّص للرِّوايتين ، يجد التَّناقض واضحاً جليّاً بينهما . فقد نجد تاريخياً حادثة في روايتين (أو ثلاث روايات) ، ولكن تكمل وتدعم إحداهما الأُخرى ، فلا تناقض بينهما ، ولا تخالف إحداهما في البناء الأساسي الأُخرى ، بل تتم بعض جوانبها وهوامشها .

وروايتا (العبَّاسة) تناقضتا في البناء والجوهر ، واتَّفقتا في الطَّعن والتَّجريح والافتراء . لذلك رفض الخطيب البغدادي ، وابن تغري بردي كلَّ ما ورد بشأن العبَّاسة مع جعفر .

☆ ☆ ☆

مناقَشَةُ الرِّوايات الْخَمْس

خمس روايات ، ذكرها مؤلفون مختلفون ، وكلٌّ منهم جعل إحداها سبباً لنكبة البرامكة .

الرِّواية الأُولى جعلت سبب نكبة البرامكة دخول يحي بن خالد بلا استئذان على مجلس الرَّشيد ، وهذا سبب غير كافٍ لنكبة بطشت بالبرامكة كلِّهم .

والرِّواية الثَّانية جعلت السَّبب كيد يحي بن خالد البرمكي للإسلام وأهله ، وحبِّه للإلحاد وأهله ، ولعل هذا السَّبب من جملة أسباب ممكنة .

والرِّواية الثَّالثة جعلت السَّبب إطلاق يحي بن خالد البرمكي ليحي بن عبد الله العلوي ، الَّذي أمَّنه الرَّشيد بعد خروجه في خراسان . ولعلَّ هذا أيضاً عامل من جملة عوامل ممكنة .

والرِّواية الرَّابعة جعلت السَّبب إنفاق المال الكثير ، لبناء قصور البرامكة الَّتي ينافسون بها قصر الرَّشيد ، يتطاولون ويتشبَّهون بأمير المؤمنين بها . ولعلَّ هذا من أسباب النَّكبة الجماعيَّة للبرامكة[1] .

والرِّواية الخامسة جعلت السَّبب قصَّة العبَّاسة مع جعفر ، وهي قصَّة مدحوضة ناقشناها في بداية هذا البحث ، لذلك .. نستبعدها ، ونستبعد الرِّواية الأُولى كسببٍ وحيدٍ لبطش نكَّل بكلِّ البرامكة . قال الرَّشيد : « لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم إلاَّ محمد بن يحي بن خالد ، فإنَّه مستثنى لنصحه للخليفة »[2] .

فرأينا في سبب النكبة ما يلي :

إنَّ نكبة البرامكة نكبة وهلاك جماعي ، فهي لا بد عقاب على فعل جماعي ، خطِّط له لكنه لم يتم ، فالرَّشيد لم يرق دماً يوماً ، ولم يسجن شخصاً في أي يوم .. إلاَّ لسبب يقرُّه الدِّين والعقل والمنطق السَّليم ، فمن باب أوْلى ألاَّ يُنَكِّل بجماعة بسبب ظن ، أو بسبب إساءة فرديَّة من أحد أفرادها .

وعلى ذلك يمكن القول :

---

(١) لما فرّق الرَّشيد البُرُد في الأمصار بقبض أموال البرامكة وغلاتهم ، وجد لهم مما حباهم اثني عشر ألف ألف ، ومن سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وست مئة ألف وستة وأربعين ألفاً . وعلى تقديرات المسعودي في (مروج الذَّهب) تكون ثروتهم الَّتي خلَّفوها : (٤٢,٦٤٦,...) دينار .

(٢) البداية والنهاية : ١٩٠/١٠

نكب الرَّشيد البرامكة لأَنَّهم كانوا يميلون إلى فارسية كسروية ، يظهرون إسلاماً ، وفي نفوسهم مجوسيَّة ظهرت بما يلي :

حكى الجهشياري أنَّ الفضل بن سهل (وكان مجوسيّاً) نقل ليحي بن خالد البرمكي كتاباً من الفارسيّة إلى العربية ، فأُعجب بفهمه وبجودة عبارته ، فقال له يحي : إنّي أراك ذكياً ، وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأَسْلِم حتَّى أجد السَّبيل إلى إدخالك في أُمورنا والإحسان إليك ، وقال له يحي : الآن ، ودعا بسلاَّم مولاه فقال خذ بيد هذا الفتى ، وامضِ به إلى جعفر وقل له يدخله على المأمون حتَّى يسلم على يديه ، ففعل وأسلم على يد المأمون ، وهو الَّذي صار فيما بعد وزير المأمون ، والَّذي لُقِّب بذي الرِّياستَيْن [١] .

فإسلام كثير من الفُرس لم يكن عن قناعة ، كما هو أيضاً إسلام (كاووس) ملك أشروسنة [٢] ، فإنه لما غُلِب في الحرب أظهر الإسلام ، وكذلك ابنه حيدر المعروف (بالإفْشين حيدر بن كاووس) ، الذي مات في سجن المعتصم لزندقته ومجوسيته .

لقد حمى البرامكة الفُرْس - بجاههم ، وبالأموال الَّتي وضعت بين أيديهم - الثَّقافةَ الفارسيَّة ، ونشروها بما لهم من جاه وسلطان . روى الجاحظ عن ثُمامة ، قال : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكي) دار إلاَّ وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلاَّ وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلاَّ وخالد ابتاع أُمَّه إن كانت أَمَة أو أدَّى مهرها إن كانت حُرَّة ، ولا دابة إلاَّ وخالد حمله عليها ، إما

---

(١) جعل المأمون للفضل بن سهل الوزارة وقيادة الجيش معاً ، فكان يلقَّب بذي الرياستَيْن (الحرب والسِّياسة) .

(٢) أشروسنة : مقاطعة في بلاد ماوراء النهر ، تقع إلى الغرب من فَرْغانة والشّاس ، وتقع سمرقند وبخارى إلى الجنوب منها . [القاموس الإسلامي : ١١٦/١] .

من نتاجه أو من غير نتاجه[1] .

ولقد آوى البرامكة كثيرين ممن اتهموا بالزَّندقة كمحمد بن اللَّيث الخطيب[2] ، وهشام بن الحكم الرافضي ، ولقد هال البرامكة الفرس قوة الدَّولة العباسيَّة ، خصوصاً وقد انتقل الحكم من الأُمويين إلى العبَّاسيِّين ، ونفوس الفرس تطمح إلى حكم فارسي في المظهر والمضمون ، في اللُّغة والتُّراث ، لذلك شجعوا المانَويَّة والزرادُشْتِيَّة والمزدكِيَّة بحجَّة حرِّيَّة الرَّأي ..

ولذلك قال كثيرون إن البرامكة يطربون لذكر الشِّرك والكفر في مجالسهم الخاصة . قال الأصمعي في البرامكة :

إذا ذُكِرَ الشِّركُ في مجلسٍ ... أنارتْ وُجوه بني بَرْمَكْ
وإن تُليتْ عِنْدَهُم آيَةٌ ... أتوا بالأحاديثِ عَنْ مَزْدَكْ[3]

وقال آخر :

إنَّ الفَراغَ دَعاني ... إلى ابْتِناءِ الْمَساجِدْ
وَإنَّ رأيي فيها ... كَرَأْيِ يحي بن خالدْ[4]

وقال (أبو عمرو) كلثوم بن عمرو بن الحارث التَّغلبي :

إنَّ البرامكَ لاتنفكُّ أنجيةٌ ... بصفحةِ الدِّين من نجواهم نُدَبُ[5]
تجرَّمت[6] حججٌ منهم ومُنصلُهم ... مضرَّج بدم الإسلام مختضبُ

---

(١) الجهشياري : ١٧٣ ، وتاريخ بغداد : ١٤٤/٤
(٢) ابن النديم : ١٢٠
(٣) عيون الأخبار : ٥١/١
(٤) عيون الأخبار : ٥١/١ أيضاً .
(٥) ندب : جمع ندبة ، أثر الجرح الباقي على الجلد .
(٦) تجرمت : انقضت .

لقد نكب الرشيد البرامكة لمضاهاتهم له . وإطلاق سراح يحي بن عبد الله ، يدل على بدء ترك مشورته ، والبت والأمر والنهي دون الرجوع إليه ، بل مخالفة أمره ، فقد أطلق سراحه ووجّه معه مَن أوصله إلى بلاده دون علم الرشيد[1] . وهذا تثبته رواية الطبري عن إدريس بن بدر في جـ ٨ ، ص : ٢٨٩ .

وقد استعمل أكثر من مؤرّخ كلمة (دولة البرامكة)[2] يقول المسعودي : « وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيّامهم النّضرة الحسنة من استخلاف هارون الرّشيد إلى أن قتل جعفر بن يحي بن خالد بن برمك ، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً .. » . وبالفعل فقد أصبحوا دولة ضمن دولة ، ولم يكن الرّشيد ذلك الخليفة السّاذج البسيط ليدع لهم الحبل على الغارب .

ولقد احتجنوا[3] الأموال دون الرّشيد ، حتّى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه[4] ، حتّى إن أبا جعفر محمد بن مناذر قال لما حجَّ الرّشيد مع البرامكة :

أتانا بنو الأملاك مِنْ آلِ برمك ... فيا طيبَ أخبار ويا حُسنَ منظرِ
إذا راضَ يحي الأمر ذلتْ صِعابُهُ ... وحسبك من راعٍ له ومدبّرِ
ترى النَّاس إجلالاً كأنَّهمْ ... غرانيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصرصِرِ[5]

---

(١) النجوم الزاهرة : ١١٥/٢

(٢) أوردها المسعودي ٣٨٩/٣ ، والفخري : ١٩٧

(٣) احتجنوا الأموال : اصطفوها لأنفسهم من دونه .
ويقال : إن البرامكة ضربوا النُّقود باسمهم ، وهذا يحتاج إلى تحقيق دقيق ، لأنّه لم يثبت بشكل قاطع عن طريق الكتب التاريخية المعتمدة والصحيحة ، فلعل ذلك من نسج خيال الفرس ، تعظيماً (لدولة البرامكة)!!

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣٦٢/٣

(٥) الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود ، وقيل أبيض ، والبازي : الصَّقر ، المصرصر : الصائح صياحاً شديداً .

لما سبق نقول :

لقد نكب الرشيد البرامكة بسبب (**إساءة استعمال السلطة**) ، أطلقوا عدوَّ الرَّشيد دون علمه ، أنفقوا الأموال على قصورهم وخدمهم وبني ملتهم وتطاولوا في بنيانهم ، وحموا الشُّعوبية وكل ما هو فارسي ، كل ذلك على حساب الرَّشيد ، فكأنَّهم هم الخلفاء ، لذلك قال الرشيد بعد نكبتهم :

إنَّ استهانتها إذا وقعَتْ ... لبقَدْرِ ما تعلو بها رُتَبُهْ
وإذا بَدَتْ للنَّمل أجنحةٌ ... حتَّى يطير فقد دنا عَطَبُهْ[1]

فالبيت الأخير يوضح سبب النكبة والهلاك .

رُفعت إلى الرَّشيد قصة لم يعرف رافعها فيها[2] :

قُلْ لأمينِ الله في أرضه ... ومَنْ إليهِ الحلُّ والعَقْدُ
هذا ابن يحي قد غدا مالكاً ... مثلك ، ما بينكما حَدُّ
أمركَ مردود إلى أمرِهِ ... وأمْرُهُ ليسَ لهُ ردُّ
وقَدْ بنى الدَّارَ الَّتي ما بنى الـ ... ـفُرْسُ لها مثلاً ولا الهندُ
الدُّرُّ والياقوت حَصْباؤها ... وتُرْبُها العنبرُ والندُّ
ونحن نخشى أنَّهُ وارثٌ ... ملكَكَ إن غيَّبكَ اللَّحدُ
ولنْ يباهي العبدُ أربابَهُ ... إلاَّ إذا ما بَطِرَ العبدُ

☆ ☆ ☆

---

(١) مروج الذَّهب ومعادن الجوهر : ٤٠٦/٦

(٢) وفيات الأعيان : ٣٣٦/١

هل ندم الرشيد على نكبتهم ؟

كتب يحي بن خالد من الحبس حين أحسَّ الموت : قد تقدَّم الخصمُ إلى موقف الفَصل ، وأنتَ بالأثر ، والله الْحَكَم العدل ، وستُقدَّم فتعلَم ، فوقَّع فيه الرَّشيد : الْحَكَمَ الَّذي رضيتَه في الآخرة لك ، هو الَّذي أعدى الخصمَ في الدُّنيا عليك ، وهو مَنْ لا يُرد حكمه ، ولا يصرف قضاؤه[1] .

فحكم الرَّشيد في البرامكة حكم قطعي ثابت ، لا تردُّد فيه ولا ندم ، لقد حبس الرَّشيد رجلاً بعد محاكمته ، فلما طال حبسُه كتب إليه : إنَّ كلَّ يوم يمضي من نعمك ، يمضي من بؤسي مثله ، والأمد قريب ، والحكم لله ، فأطلقه الرَّشيد[2] !!

قال الأصمعي : وجَّه إليَّ الرَّشيدُ بعد قتله جعفراً ، فجئت فقال : أبيات أردتُ أن تسمعها ، فقلت : إذا شاء أمير المؤمنين ، فأنشدني :

لو أن جعفر خاف أسباب الرَّدى لنَجا بـِهِ منها طِمِرٌّ مُلْجَمُ
ولكان من حذر المنيَّة حيث لا يرجو اللحاق به العقابُ القَشْعَمُ
لكنه لما أتاه يومه لم يدفع الحدثان عنه مُنَجِّمُ

فعلمت أنَّها له ، فقلت : إنَّها أحسن أبيات في معناها ، فقال : إلحق الآن بأهلك يا بن قريب إن شئت[3] .

ومع ذلك ، أورد بعض المؤرخين قولاً للرَّشيد جاء فيه : « لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذَّة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أنِّي شطرت نصف عمري وملكي وأنِّي تركتهم على حالهم » .

---

(١) العقد الفريد : ٤٩/٥

(٢) العقد الفريد : ١٦١/٢

(٣) وفيات الأعيان : ٣٣٩/١

وهذا الكلام مرفوض ، لأنَّ عمل الرَّشيد عمل مدروس ضدَّ أُناس أساؤوا استعمال السُّلطة ، لقد كان إبراهيم بن عثمان بن نهيك يكثر من البكاء على البرامكة ، ولا سيما على جعفر ، ثم خرج من خير البكاء ، إلى خير الانتصار لهم ، والأخذ بثأرهم ، وكان يقول لجاريته ، ائتني بسيفي ، فيسلُّه ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم ، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضلُ الخليفة فاستدعاه ، فاستخبر فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم ، فجاء به فشهد ، فقال الرَّشيد : لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي ، لعلهما قد تواطآ على ذلك[1] ، فأحضره الرَّشيد على الشَّراب المشروع ، ثم خلا به ، فقال : ويحك يا إبراهيم ! إنَّ عندي سراً أُحب أن أُطلعك عليه ، أقلقني في اللَّيل والنهار ، قال : وما هو ؟ إنِّي ندمت على قتل البرامكة ، ووددت أنّي خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ، ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فإنِّي لم أجد بعدهم لذة ولا راحة ، فقال : رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأتَ في قتله ، فقال له : قم لعنك الله ، ثم حبسه ، ثم قتله بعد ثلاثة أيَّام ، وسَلِم أهله وولده[2] .

فالرَّشيد لم يندم لأنَّه قام بعمل ضدَّ أُناس حاولوا أن يجعلوه من بعدهم في الصَّفِّ الثَّاني وحاولوا نقل خيوط الملك إلى أيديهم ، ودليل عدم ندمه ما يلي :

ولما طال حبس يحيى جاءته زوج يحيى - أُمُّ الرَّشيد من الرَّضاع - قال الحاجب : ظِئْرُ أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد .. فلما دخلت قام الرَّشيد محتفياً بها ، وأكبَّ على تقبيل رأسها . قالت : يا

---

(١) لاحظ تحقُّقه من الخبر ، وعدم أخذه الأُمور بالظَّن والتَّخمين .

(٢) ويلاحظ هنا أنَّه لم يأخذ أحداً بجريرة غيره ، وهكذا كانت نكبة البرامكة ، نكبة جماعية ، لعمل جماعي .

أمير المؤمنين .. لقد ربيتك وأخذت لك الأمان من دهري ، ظئرك يحي وأبوك بعد أبيك ، ومع ذلك يردُّ الرَّشيد : قَدَرٌ سبقَ ، وقضاءٌ حُمَّ ، وغضب من الله نزل .

وتعالت المناجاة ، فكان يلوذ بذكر الله ، ويقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » .. وطال استرحامها ، فقال لها الرَّشيد : « يا أُمَّ الرَّشيد أما لي من الحق مثل الَّذي لهم ؟ » يقصد زوجها وأولادها .

قالت : إنَّك لأعزّ عليَّ وهم أحب إليَّ ، وقامت عنه .

وهكذا كانت إنسانية الرَّشيد العالية تستحيل قسوة ضارية كلما كانت الدَّولة محل هجوم عليها ، أو دفاع عنها .

فلو ندم لأطلق سراحهم من سجن الرَّافِقَة (في الرَّقّة) ، الَّذي بقي يحي فيه حتَّى توفي سنة ١٩٠ هـ في ٣ المحرم وهو ابن سبعين سنة(١) .

وكان الرَّشيد يقول بحق البرامكة : « من يَرِدْ غير مائه ، يصدر بمثل دائه » ، ويقول أيضاً : من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته إصلاحه .

ومما قيل بشأن سخاء البرامكة ، وتصرفهم بأموال الدَّولة ، وظهورهم بمظهر السَّخاء للتَّحبُّب إلى النَّاس أنَّ المتوكّل سأل أبا العيناء : « مَن أسخى مَن رأيت ؟ » فقال : « إنَّ الصِّدق ماهو في موضع من المواضع أنفق منه بحضرتك ، والنَّاس يغلطون فيمن ينسبونه إلى السخاء فإذا نَسَب النَّاسُ السَّخاءَ إلى البرامكة ، فإنَّما ذلك من سخاء أمير المؤمنين الرَّشيد ، وإذا نسب النَّاس الحسن بن سهل ، والفضل بن سهل إلى السَّخاء ، فإنَّما ذلك سخاء أمير المؤمنين المأمون ، وإذا نسبوا

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣٢/١٤ ، صلى عليه ابنه الفضل ودفنه على شاطئ الفرات في موضع يقال له : « ربض هرثمة » .

أحمد بن أبي دؤاد إلى السَّخاء ، فذاك سخاء أمير المؤمنين المعتصم ، وإذا نسبوا الفتح بن خاقان ، وعبيد الله بن يحيي إلى السَّخاء فإنَّما هو سخاؤك ، وإلاَّ فما بال هؤلاء القوم لم ينسبوا إلى السخاء قبل صحبتهم الخلفاء » ، فقال المتوكل : صدقت ، وسرِّي عنه[١] .

هذا .. وليس البرامكة من البسطاء أو السُّذَّج ، كانوا في منتهى اللَّباقة والعلم ، أو ما يعرف في عصرنا اليوم (بالبروتوكولات) .. لقد كانوا على ذكاء يساعدهم على تنفيذ مهمتهم ، ومثلهم ينتقى لمثل أعمالهم ..

لقد كان جعفر بن يحيي بن خالد (أبو الفضل) البرمكي « طلق الوجه ، ظاهر البِشْر ، فأمَّا جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر ، وأبْيَن من أن يظهر ، وكان من ذوي الفصاحة ، والمذكورين باللُّسن والبلاغة »[٢] .

ومما يُنْسَب إليه من الفِطْنة أنَّه بلغه أن الرَّشيد مغموم ، لأنَّ منجِّماً يهوديّاً زعم أنَّه يموت في تلك السَّنة ، يعني الرَّشيد ، وأن اليهودي في يده ، فركب جعفر إلى الرَّشيد فرآه شديدَ الغم ، فقال لليهودي : أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً ؟ قال : نعم ، قال : وأنت كم عمرك ؟ قال : كذا وكذا ، أمداً طويلاً ، فقال للرَّشيد : اَقتله حتَّى تعلم أنَّه كذَب في أمدك كما كذَب في أمده ، فقتله وذهب ما كان بالرَّشيد من الغم ، وشكره على ذلك ، وأمر بصَلْب اليهودي .

فقال أشجَع السُّلمي في ذلك :

سلِ الراكبَ الموفي على الجذع هل رأى ... لِراكبِهِ نَجْماً بدا غيرَ أعْوَرِ

---

(١) أمالي المرتضى : ٣٠٠

(٢) تاريخ بغداد : ١٥٢/٧

ولـو كان نجمٌ مخبراً عن مَنيَّـــةٍ لأخْبَرَه عن رأســـــه المتحيِّرِ
يُعَرِّفُنـــا مـــوتَ الإمـــامِ كأنَّـــه يُعَرِّفُنـــا أنبـــاء كِسْرى وقَيْصَرِ
أتخبرُ عن نَحْسٍ لغيركَ شُـؤمُـــه ونجمُـكَ بـادي الشَّر يـا شَرَّ مُخْبرِ

ومضى دم المنجِّم هدراً بحمقه(١) .

قيل ليحي بن خالد بن برمك : أيُّ الأشياء أقل ؟ قال : قنـاعـةُ ذي الهمـة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع ، وسكونُ النَّفس إلى المدح .

وقيل له : ماالكرم ؟ فقال : مَلِكٌ في زيٍّ مسكينٍ .

وقيل له : ماالجود ؟ فقال : عفوٌ بعد قدرةٍ .

وقال مرَّة : إذا فتحتَ بينكَ وبين أحد باباً من المعروف ، فاحـذَرْ أن تغلقَـه ولو بالكلمة الجميلة .

وقال : أحسنُ جملة الولاة إصابةُ السِّيـاسـة ، ورأسُ إصـابـة السِّيـاسـة العملُ بطاعة الله ، وفتحُ بـابين للرَّعيَّـة ، أحـدهـا رأفـةٌ ورحمـة وبـذل وتحنُّن ، والآخر غلظةٌ ومباعدةٌ وإمساك ومنع .

هذا هو يحي الَّذي يقول عنه المأمون : « لم يكن كيحي بن خـالـد وكولـده أحدٌ في البلاغة والكفاية والجود والشَّجاعة » .

مدح بشارُ بن برد خالدَ بن برمك ، فقال فيه :

لعَمْري لقد أجدى عليَّ ٱبنُ برمكٍ وما كل من كان الغنى عنده يُجْدي
حلبتُ بشعري راحتَيْـهِ فـدرَّتـا سَماحـاً كما درَّ السَّحـابُ مع الرَّعدِ

(١) وفيات الأعيان : ٣٢٩/١

إذا جئتَـه للحمـدِ أشرقَ وجهُـهُ	إليـك وأعطـاك الكرامـةَ بـالحمـدِ
لـه نِعَمٌ في القـومِ لا يستثيبهـا	جزاءً وكيـلَ التّـاجرِ المُدّ بـالمدِّ
مُفيـدٌ ومِتـلافٌ سبيـلَ ثرائِـهِ	إذا مـاغـدا أو راح كالْجَـزْرِ والمدِّ
أخـالـدُ إنَّ الحمـدَ يبقى لأهلـه	جمالاً ولا تبقى الكنوزُ على الكـدِّ
فـأَطْعِمْ وَكُـلْ من عـارة مُسْتَرَدَّةٍ	ولا تُبقهـا إنَّ العـواريَ للرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كلِّ وفادةٍ خمسة آلاف درهم ، وأمر خالد أن يُكتبَ هذان البيتان الأخيران ، في صدر مجلسه الّذي كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحي : آخر ما أوصاني به أبي العملُ بهذين البيتين .

☆ ☆ ☆

« فلما حجَّ الرّشيد سنة سبعة وثمانين (ومئة) ورجع من حجِّه ونزل الأنبار[1] أرسل مسروراً الخادم في جماعة من الجند ليلاً ، فأحضر جعفراً ، وأعلم الرشيد فقال : ائتني برأسه ، فطفق جعفر يتذلل لمسرور ويسأله المراجعة في أمره ، فراجع مسرور الرشيد فقذفه الرشيد بعصىً كانت في يده ، وتهدّده ، فخرج وأتاه برأسه ، وحبس الفضل من ليلته وبعث من احتاط على منازل يحي وولده وجميع موجودهم وحبسه في منزله وكتب من ليلته إلى سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم وبعث من الغد بشلو جعفر وأمر أن يقسم قطعتين وينصبان على الجسر . وأعفى محمد بن خالد من النكبة ولم يضيق على يحي ولا بنيه الفضل ومحمد وموسى .. »[2] ، هذه رواية ابن خلدون ، وفي النجوم الزّاهرة :

وفي رواية : ولما غضب الرشيد عليهم ، أرسل للقبض على جعفر (مسروراً) ومعه جماعة ، فكان جعفر في لهوه ومغنيه يُغنيه قولَه :

---

(١) جاء في وفيات الأعيان ٣٣٨/١ : « وكان الرّشيد بالأنبار بموضع يقال له العُمْرُ » .

(٢) ابن خلدون : ٢٢٣/٣

فـلا تَبْعـد فكل فتى سيـأتي ... عليـه المـوتُ يطرُقُ أو يُغـادي
وكل ذخيرةٍ لابـد يـومـاً ... وإن كرمت[1] تصيرُ إلى نفـادِ
ولـو فـوديت من حـدَث اللّيـالي ... فـديتـكَ بـالطّريف وبـالتـلادِ

قـال مسرور : فقلت لـه : يـا جعفر ، الّـذي جئت لـه هـو والله ذاك قـد طرقك ، فـأجب أمير المؤمنين ، فوقع على رجلي يقبلها ، وقـال : حتّى أدخـل وأُوصي ! فقلت : أما الدخول فلا سبيل إليه ، وأمّا الوصيـة ، فـاصنع مـاشئت ، فأوصى ، وأتيت الرّشيد به ، فقال : ائتني برأسه فأتيته به[2] .

قال أحد أبناء يحيى بن خالد لأبيه وهم في السجن والقيود بأيديهم : يـا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هـذه الحـال ؟ فقـال : يـا بني ، دَعْوَةُ مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ، ولم يغفل الله عنها ، ثم أنشأ يقول :

رُبَّ قـومٍ قـد غـدَوْا في نعمـةٍ ... زَمَنـاً والـدَّهرُ ريَّـانٌ غـدَقْ
سكتَ الـدَّهْرُ زَمـانـاً عَنْهُمُ ... ثُمَّ أبكاهُمْ دَمـاً حينَ نَطَـقْ[3]

ولما سبق نقول :

لقد شوَّه الفرس أيضاً سيرة الرّشيد ، انتقاماً للبرامكة ، أو (دولة البرامكـة) كما أسموهـا !! فـالمؤرخون أصحـاب الميول الشّعـوبيّـة ، أو الفـارسيّـة ، أو الـذين يميلون ، أو الذين يرغبون في الكيد للإسلام وأهله وأعلامه ، شوَّهوا سيرة الرّشيـد أيضاً ، وروَّجوا إشاعة العبَّاسة لطمس معالم حركتهم .

☆ ☆ ☆

---

(١) في وفيات الأعيان : « وإن بقيت » ، والبيت الثالث من وفيات الأعيان : ٣٣٨/١
(٢) النجوم الزاهرة : ١١٦/٢
(٣) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

خاتِمَةٌ

لماذا شَوَّهوا سيرَة الرَّشيدِ ؟

« قال إبراهيم بن عبد الله الخراساني : حججت مع أبي سَنَة حجَّ الرَّشيد ، فإذا نحن بالرَّشيد وهو واقف حاسر حافٍ على الحصباء وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ، ويقول : يا رب ! أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذّنب ، وأنت العوّاد إلى المغفرة ، اغفر لي ! فقال لي : يا بني ! انظر إلى جبار الأرض كيفَ يتضرَّع إلى جبار السماء »(١) .

أسئلة ثلاثة ، نختتم به كتابنا هذا :

لماذا شُوِّهت سيرة الرَّشيد بالذّات ؟

لماذا لم تشوَّه سيرةٌ غيره من خلفاء بني العباس ، كالمنصور أو المأمون أو المعتصم ، كما شوِّهت سيرته ؟

لماذا وجِّهت الافتراءات مركّزةً إلى الرشيد بالذّات من بين كل أعلام المسلمين ؟

في رأينا .. كان التّشويه مدروساً محكماً ، سُدِّد لواسطة العقد في الحضارة العربيّة الإسلاميّة . إنّ قمة التّقدم العلمي ، وذروة الحضارة العربيّة الإسلامية ، بما

(١) فضائح الباطنيّة ، لأبي حامد الغزالي : ٢١٨

فيها من خير ورفاه وسعادة ، مع القوة والعزَّة والمنعة ، تمثلت في عصر الرَّشيد ، حين بلغت بغداد برعايته وحكمته وعقيدته ، ذروة القوَّة في كلِّ شيء ، سياسة ، وعلوماً ، واقتصاداً ، وتربية .. لقد كانت بغداد في عهد الرَّشيد ، الدَّولة الأقوى في العالم كلِّه ، قهرت أعداءها شرقاً وغرباً . والمتأمِّل لجدول الخلفاء العباسيين ، يجد في بدايته عشرة خلفاء ، يمثلون ذروة القوَّة والنَّهضة والتَّقدم والعلم ، والرَّشيد يمثِّل قمة هؤلاء العشرة ، لذلك وجِّهت سهام التَّشويه والتُّهم والافتراء إلى الرَّشيد بالذَّات .

وعلى ذلك .. فإنَّ الطَّعن والتَّشويه الموجه إلى الرَّشيد ، طعن وتشويه موجهان ضدَّ ذروة الحضارة العربيَّة الإسلامية بالذَّات ، فالطَّعن في سيرة أعلام الإسلام ، طعن في الإسلام ذاته ، يُرضي حقد الحاقدين ، الَّذين امتهنوا الدَّس والافتراء مهنةً أوقفوا أنفسهم لها بإخلاص .

وإنَّ الطَّعن المباشر العلني ضدَّ الإسلام ، طريقة جرَّبها أعداؤه فلم تُجدِ نفعاً ، فردَّة الفعل عند المسلمين قوية لردِّ الطَّعن أو التَّشويه . فلجؤوا إلى الطَّعن الخفي ، والتَّشويه غير المباشر ، طريقة يتبعها الصَّليبيُّون اليوم ، والحاقدون على تراث هذه الأُمة ، ليأمنوا ردَّة الفعل . فكانت فترة الرَّشيد ، فترة القوَّة والعزَّة والتَّقدم فترة خصبة معطاءة لجرجي زيدان وأمثاله ، كانت فترة خصبة لرواياته ، روايات تاريخ الإسلام ، (كالعبَّاسة أُخت الرَّشيد) ، و (الأمين والمأمون) .

فالطعن في أعلام الإسلام ، طعن في الإسلام .

والدَّس على رجالات الإسلام ، دس على تراث الإسلام ، وفكر الإسلام .

أما شوَّهوا سيرة عثمان بالتَّحدث عن « اشتراكية أبي ذر » ؟

أما شوّهوا سيرة السُّلطان عبد الحميد ، لرفضه قيام دولة يهودية في فلسطين ، ليشوّهوا فكرة الخلافة في أذهان المسلمين كلِّهم ؟!

وفي هذه المرة .. الطعن موجَّه إلى أوج نهضتنا ، وإلى ثمرات إسلامنا تكاتف للطعن حقد صليبي تمثَّل في نقفور ، وروايات كنسية مالأت شارلمان ، واستشراق جعل خيالات ألف ليلة وليلة ، روايات عربية بطلها الرَّشيد ، مع حقد شعوبي فارسي متمثِّل في البرامكة ومن أرَّخ لهم من الطالبيِّين .. مع أُدباء عرب تنطحوا لكتابة التَّاريخ كالإتليدي ، والأصفهاني ، وأحمد أمين ..

دولة الرَّشيد ، الدَّولة الوحيدة الأعظم في العالم في حينها ، كسبت مكانتها من إسلام حيّ ، وخليفة مسلم ملتزم بشريعة الله ، فحثَّ على الخلق الرفيع والعلم والأدب .. والصِّحَّة وكرامة الفرد .. فالطعن في سيرة الرشيد وسلوكه ، طعن لفكر القائد الموجِّه للدَّولة .

دولة الرَّشيد ، الَّتي صوَّرها الحاقدون ، دولة أبي نواس ، ودولة الجواري(١) ، دولة ألف ليلة وليلة ظلماً وبهتاناً ، هي دولة أعلام العلم والاختراع والحضارة حقيقة وصدقاً . فلقد ضمت دولة الرَّشيد أعلام العلم الَّذين تفخر بهم البشريَّة جمعاء ..

جابر بن حيَّان الكوفي(٢) ، كان على اتصال وثيق ببلاط الرَّشيد ، إن جابراً ، (أبا الكيمياء) ، الَّذي قال عنه برتيللو الفرنسي : « إن كلَّ الباحثين في هذا العلم من بعده ، كانوا عالة عليه نقلاً وتعليقاً ، وإنَّه أوَّل واضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء »(٣) ، كان تحت رعاية دولة الرَّشيد ، وبأموالها كان يعمل في مختبره .

---

(١) النِّساء في قصر الرَّشيد ، لخدمة القصر في ساعات معينة ، وباقي السَّاعات لتلاوة القرآن الكريم .

(٢) جابر بن حيان الكوفي : (١٢٣ ـ ١٩٥ هـ / ٧٤٠ ـ ٨١٠ م) ، وعُرف بالغرب باسم (جبير) .

(٣) راجع (سير ملهمة من الشرق والغرب) ، إسماعيل مظهر : ٣٦ ، ط : ١٩٦١ م مؤسسة فرانكلين .

الحسن بن الهيثم ، أكبر عالم بصريات على مرّ العصور ، إياد الله البتّاني ، الفلكي الشّهير شرقاً وغرباً[1] ، الْخُوارزمي ، عالم الرِّياضيات ذائع الصِّيت ، والَّذي افتخرت به الإنسانية لما قدم في عالَم الرياضيات ، أبو حنيفة الدِّينَوَري ، عالم النبات والمصنِّف العظيم ، البيروني ، (مثال العالِم المسلم في أرقى مراتبه) ، كما يقول ديورانت في قصة الحضارة[2] . وباختصار .. العلماء الذين تعتز بهم الإنسانية ، لأنَّ نهضتها تدين لهم بالفضل ، منهم من عاش في كنف الرَّشيد ، ومنهم من هيَّأ له الرَّشيد كنوز العلوم في(بيت الحكمة) ،فنهلوا من مراجعها ومصادرها ، لقد بنى لهم الرَّشيد (بيت الحكمة) مكتبة فريدة لا نظير لها إلاَّ في جوهرة العالم (قرطبة) ، فأينعت هذه المكتبة أيَّام المأمون ، فكلُّ عالم استفاد من هذه الدَّار ، الَّتي جعل فيها الرَّشيد راتب (النَّسَّاخ) ، النَّسَّاخ الَّذي لا يقدم جديداً ، ولا يخترع جديداً ، ولا يؤلِّف جديداً ، النَّسَّاخ ، جعل الرَّشيد راتبه ألْفَيْ دينار في الشَّهر الواحد . فمن استفاد من (بيت الحكمة) فللرَّشيد عليه فضلٌ ومِنَّة .

في دولة الرَّشيد تقدمت الصِّناعات .. الإنْبيق ، السَّاعات الدَّقاقة الَّتي أخافت أُوربة ، أدوات الملاحة ، تقطير الأدوية ، العمليَّات الجراحيَّة الدَّقيقة بأدوات تشريح راقية ، المستشفيات العديدة في كلِّ المدن الكبرى[3] ، وفي كلِّ الأقاليم .. كل هذا ومئات غيره ـ ضاع من بيت الحكمة عندما رماها التتار في الدِّجلة ، فتأخرت النَّهضة ستة قرون ـ كانت كلها أيام الرَّشيد ، بتشجيع منه ومن رجالات دولته ، فلصالح من نردِّد تشويه حياته ؟؟!!

---

(١) له مخطوطات حتَّى يومنا هذا في مكتبة الفاتيكان ، راجع (سير ملهمة) : ٢١

(٢) راجع (سير ملهمة) : ٢٣

(٣) وكانت تسمى (بيمارستانات) .

إنَّ الثَّروة الهائلة عمت دولة الرَّشيد ، فأمَّنت الرَّفاه لكلِّ النَّاس ، لا لبغداد وحدها ، فلم تأتِ هذه الثَّروة بلاط الرَّشيد إلاَّ بعد سدِّ حاجات الأقاليم بشكل كامل . قال القلقشندي[1] : « وكانت خزائن الرَّشيد تفيض بالأموال الَّتي كانت تجبى من الضَّرائب حتَّى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار ، عدا الضَّريبة العينيَّة الَّتي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتَّى إن الرَّشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السَّحابة المارة ويقول : **اذهبي حيث شئت يأتني خراجُك** » . وفي هذا يقول الشاعر محمود غنيم :

أينَ الرَّشيدُ وَقَدْ طافَ الغَمامُ بِهِ ... فحينَ جاوَزَ بَغْداداً تَحَدَّاهُ ؟
مُلْكٌ كَمُلْكِ (بني التَّاميز)[2] ماغَرَبتْ ... شَمْسٌ عليهِ ولا بَرْقٌ تَخطَّاهُ
ماضٍ تعيشُ على أنقاضِهِ أُمَمٌ ... وَتَسْتَمِدُّ القِوَى مِنْ وَحْي ذِكْراهُ

هذه الثَّروة استخدمت في مجالاتها الصَّحيحة ، كما رسمها أبو يوسف في كتاب (الخراج) ، ولم تنفق في قصور ألف ليلة وليلة الأُسطوريَّة .

فالتَّندُّر على تاريخنا صار مهنة تمتهن ، لطعن تراثنا .

والافتراء صار حرفة ، تنفق الملايين عليها ، من قبل جهات يهمها أن يشعر جيلنا بعقدة النَّقص ، ليزهد بصانعي تاريخه ، وأعلام فكره ، وبالتَّالي ليفتش عن رجالات جُدد ، وفكر جديد ، يظنّه مثالياً ، لأنّه صوّر له بتزيينات وزيادات وتفخيم وتبجيل عن قصد ، لأنَّهم يعلمون علم اليقين أنَّ احتقار رجالاتنا ، أو الزُّهد بتاريخنا ، فيه المسخ لذاتيتنا ، وفيه تفكك الأُمَّة ، واضمحلال شخصيتها ، وهذا ما يسعون إليه بكل طاقاتهم .

---

(١) مآثر الإنافة في معالم الخلافة : ١٩٤/١ ، و ٢٢٤/٢

(٢) بنو التَّاميز ، يعني بهم الإنكليز الَّذين أقاموا إمبراطورية لاتغيب عنها الشَّمس ، والتَّاميز تحريف للضرورة لاسم النَّهر الَّذي يمرّ من لندن (العاصمة البريطانية) ألا وهو : نهر التَّايمز .

فلصالح من نجرّح أعلام تاريخنا المجيد ؟!

تراثنا المجيد يوحد قلوب الأُمّة ، ويجعلها في وحدة كلمة ، تتلاقى الأفكار فيه ، وتستمد العزيمة والفداء والنّهضة والتّقدم منه ، فلصالح من نسمح بتشويهه ؟ ولصالح من يعلوه غبار النّسيان ؟ فتُنسى حقائقه وروائعه ودروسه ؟؟!!

أما نقول في نشيدنا الوطني صباح مساء ، في كل قطعة محاربة ، وفي كل مدرسة ابتدائيَّة أو إعدادية أو ثانويَّة ، وفي كلّ احتفال رسمي أو شعبي :

فمنّا الوَليدُ ومِنّا الرَّشيدُ فَلِمْ لانَسُودُ ولِمْ لانَشِيد ؟

فالرَّشيد ختام المسك في نشيدنا الوطني ..

فهل نفخر ونسود بالرَّشيد صاحب أبي نُواس ؟ أم بسيرة الرَّشيد الحقيقية الصَّحيحة ، الَّتي رسم خيوطها الإمام مالك ، والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبو يوسف قاضي القضاة ، والإمام الشَّافعي ، ومحمد بن الحسن الشَّيباني ، واللَّيث بن سعد ؟؟!!

هل نفخر لنسود ونشيد بالرَّشيد صاحب الخمريَّات الخياليَّة ؟ أمْ بالرَّشيد الَّذي رعى العلم والعلماء كجابر بن حيان الكوفي وأمثاله ؟؟

هل نفخر بنشيدنا القوميّ الوطنيّ ، بصورة الرَّشيد كما صورها صاحب الأغاني الَّذي يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا ، وبروايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان ؟ أمْ بالرَّشيد كما هو على حقيقته من حيث الإيمان والتَّقوى ، والخير والرَّفاه ، والصّناعة والعلوم ؟؟

إنَّنا لن نسود ، ولن نشيد مادمنا لانغار على سيرة الرَّشيد والوليد وأمثالهما ، وما دمنا نسمح لجرجي زيدان أن يؤرخ لنا تراثنا .

إنَّنا لن نسود ، ولن نشيد ، مادمنا لانقدس نهجهم وفكرهم وعزيمتهم ..

حتّى أصبحنا غرباءَ عنهم ، نكتفي بالانتساب إليهم فقط . وليس هذا فعل الأُمم الحيَّة ، لأنَّها تغار على أعلامها ، وتدرس حياتهم بدقة ، لتكون سيرهم أُسوة للأجيال ، وقدوة للشَّباب .

فليرحم الله الرَّشيد ، لقد عاش حياة كلَّها إيمان وجهاد وعلم وخشية من الله . دخل شقيق البلخي (الصُّوفي الشهير) ، شيخ خراسان ، على الرَّشيد ، فقال الرَّشيد : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال له : أمَّا شقيق فنعم ، وأمَّا الزَّاهد فيُقال . فقال الرَّشيد : عِظني ! فقال له : إنَّ الله تعالى أنزلك منزلة الصِّدِّيق ، وهو يطلب منك الفرق بين الحقِّ والباطل كما تطلبه منه ، وأنزلك منزلة ذي النُّورين ، وهو يطلب منك الحياء والكرامة كما تطلبه منه ، وأنزلك منزلة علي بن أبي طالب وهو يطلب منك العلم كما تطلب منه ، ثم سكت ، فقال له الرَّشيد : زدني ! قال : نعم ! إنَّ لله تعالى داراً سماها جهنَّم ، وجعلك بواباً لها ، وأعطاك بيت مال المسلمين ، وسيفاً قاطعاً ، وسوطاً موجعاً ، وأمرك أن ترد الْخَلْق عن هذه الدَّار بهذه الثَّلاث ، فمن أتاك من أهل الحاجة فأعطه من هذا البيت ، ومن تقدم على نهي الله فأوجعه بهذا السَّوط ، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بهذا السَّيف بأمر ولي المقتول ، فإنَّك إن لم تفعل ذلك فأنت السَّابق ، والْخَلْق تابع لك إلى النار . قال الرَّشيد : زدني ! قال شقيق البلخي : نعم ! أنت العَيْن ، والعمال الأنهار ، إن صَفَتِ العينُ لم يضر كدر الأنهار ، وإن كدرت العَيْن لم يُرجَ صفاء الأنهار .

لقد صفت العين ، فصفَت الأنهار ، وصفت معها كل الجداول والسَّواقي في كلِّ أنحاء الدَّولة الإسلامية ، أيَّام الرَّشيد : (أميرُ الخلفاء وأجلُّ ملوكِ الدُّنيا) .

اللّهم هذا جهدي بحق (الرَّشيد) ، وهو جهد الْمُقِل .

اجتهدت أن أُظهر فيه سيرة عَلَم مسلم أعتز به ، وأحببت بدافع من ديني أن

أُبدد عنها كل افتراء أو دسٍّ أو تشويه ، فإن كتب لهذه الدِّراسة أن تجد سبيلها اليوم لجيلنا ـ لقد وجدت طريقها بحمد الله وفضله ، بدليل تكرار طبعات هذا الكتاب بشكل ملموس ملحوظ ـ ، فتعيَها أُذن واعية ، فهذا ماأبتغيه ، وهذا ماهدفت إليه ، وإلاّ فلا بد أن تجد هذه الدِّراسة في يوم من الأيام ، ولو بعد حين ، سبيلها إلى العقول الغيورة على تراثها ، والّتي تعشق الحقيقة وتسعى إليها .

والحمد لله ربِّ العالمين أوّلاً وآخراً ..

☆ ☆ ☆

خلفاء العصر العبّاسي الأول

« يبدأ بالسّفاح وينتهي بالخليفة العاشر المتوكّل »

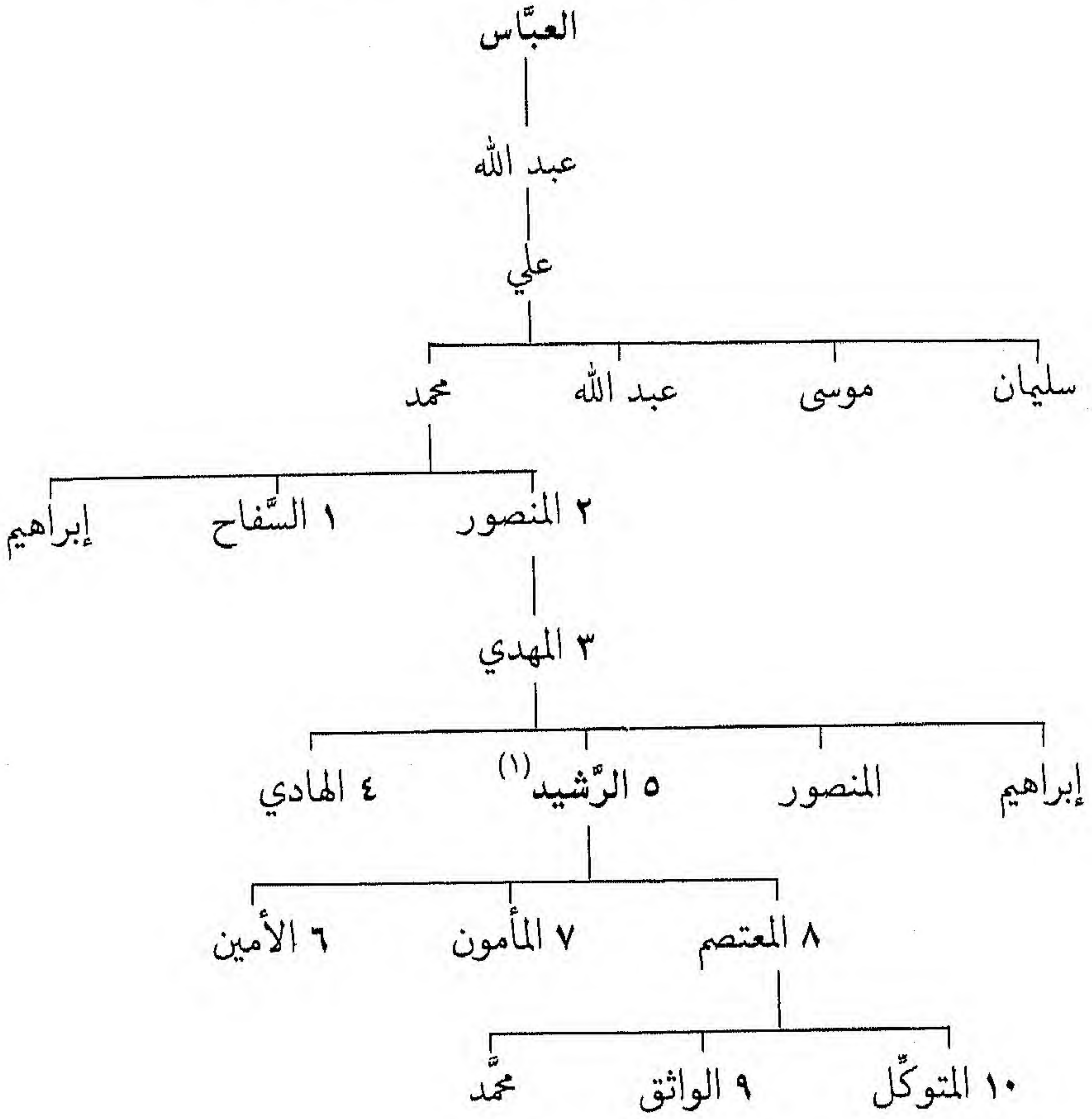

(١) من ١٧٠ إلى ١٩٣ هـ / ومن ٧٨٦ م إلى ٨٠٩ م .

الْخُلَفاءُ العبَّاسيُّونَ

١ - أبو العباس عبد الله السَّفاح بن محمد	١٣ ربيع الأول	١٣٢ هـ
٢ - أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد	١٣ ذي الحجة	١٣٦ هـ
٣ - أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور	٦ ذي الحجة	١٥٨ هـ
٤ - أبو محمد موسى الهادي بن المهدي	٢٢ المحرم	١٦٩ هـ
٥ - أبو جعفر هارون الرَّشيد بن المهدي	١٦ ربيع الأول	١٧٠ هـ
٦ - أبو موسى محمد الأمين بن الرَّشيد	٣ جمادى الآخرة	١٩٣ هـ
٧ - أبو جعفر عبد الله المأمون بن الرَّشيد	٢٦ المحرم	١٩٨ هـ
٨ - أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن الرَّشيد	١٦ رجب	٢١٨ هـ
٩ - أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم	١٨ ربيع الأول	٢٢٧ هـ
١٠ - أبو الفضل جعفر المتوكِّل على الله بن المعتصم	٢٣ ذي الحجة	٢٣٢ هـ
١١ - أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكِّل	٤ شوال	٢٤٧ هـ
١٢ - أبو العباس أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم	٣ ربيع الثاني	٢٤٨ هـ
١٣ - أبو عبد الله محمد المعتز بالله بن المتوكِّل	٤ المحرم	٢٥٢ هـ
١٤ - أبو إسحاق محمد المهتدي بالله بن الواثق	٢٧ رجب	٢٥٥ هـ
١٥ - أبو العباس أحمد المعتمد على الله بن المتوكِّل	١٨ رجب	٢٥٦ هـ
١٦ - أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكِّل	٢٠ رجب	٢٧٩ هـ
١٧ - أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد	٢٢ ربيع الثاني	٢٨٩ هـ
١٨ - أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد[1]	١٢ ذي القعدة	٢٩٥ هـ
١٩ - أبو منصور محمد القاهر بالله بن المعتضد	٢٧ شوال	٣٢٠ هـ
٢٠ - أبو العباس أحمد الرَّاضي بالله بن المقتدر	٦ جمادى الأولى	٣٢٢ هـ

(١) ولي بعده أبو العباس عبد الله المرتضى بن المعتز ليوم واحد فقط ، ثم ولي أبو منصور محمد القاهر ليوم فقط ، ثم حكم القاهر بالله .

٢١ـ أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله بن المقتدر	٢٠ ربيع الأول	٣٢٩ هـ
٢٢ـ أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي	٢٠ صفر	٣٣٣ هـ
٢٣ـ أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر	١٢ جمادى الآخرة	٣٣٤ هـ
٢٤ـ أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع	١٣ ذي القعدة	٣٦٣ هـ
٢٥ـ أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر	١٩ رجب	٣٨١ هـ
٢٦ـ أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر	١١ ذي الحجة	٤٢٢ هـ
٢٧ـ أبو القاسم عبد الله عُدة الدين المقتدي بأمر الله بن محمد القائم	١٣ شعبان	٤٦٧ هـ
٢٨ـ أبو العباس أحمد المستظهر بالله بن المقتدي	١٥ المحرم	٤٨٧ هـ
٢٩ـ أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر	١٦ ربيع الثاني	٥١٢ هـ
٣٠ـ أبو جعفر المنصور الراشد بن المسترشد	١٧ ذي القعدة	٥٢٩ هـ
٣١ـ أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر	١٨ ذي القعدة	٥٣٠ هـ
٣٢ـ أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي	٢ ربيع الأول	٥٥٥ هـ
٣٣ـ أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد	٩ ربيع الثاني	٥٦٦ هـ
٣٤ـ أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء	٢ ذي القعدة	٥٧٥ هـ
٣٥ـ أبو النصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر	٣٠ رمضان	٦٢٢ هـ
٣٦ـ أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر	١٤ رجب	٦٢٣ هـ
٣٧ـ أبو محمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر وقتله هولاكو في ١٤ صفر ٦٥٦ هـ[1]	١٠ جمادى الآخرة	٦٤٠ هـ

إن عصر القوة ، وقمة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة تمثلت في الخلفاء العشرة الأول بدءاً بالسَّفاح وانتهاء بالمتوكل ، ويمثل الرَّشيد واسطة العقد بينهم .

ثمَّ بدأ عصر النفوذ التُّركي من بعد المتوكل وحتَّى المقتدي عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م . وتبعه عصر النفوذ البويهي حتَّى سقوط بغداد بيد هولاكو .

☆ ☆ ☆

(١) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التَّاريخ الإسلامي : ٣ و ٤ ، عن الطَّبري ، والكامل في التَّاريخ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ) .

البرامكة

[انظر ص : ١٣ (من معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التّاريخ الإسلامي)]

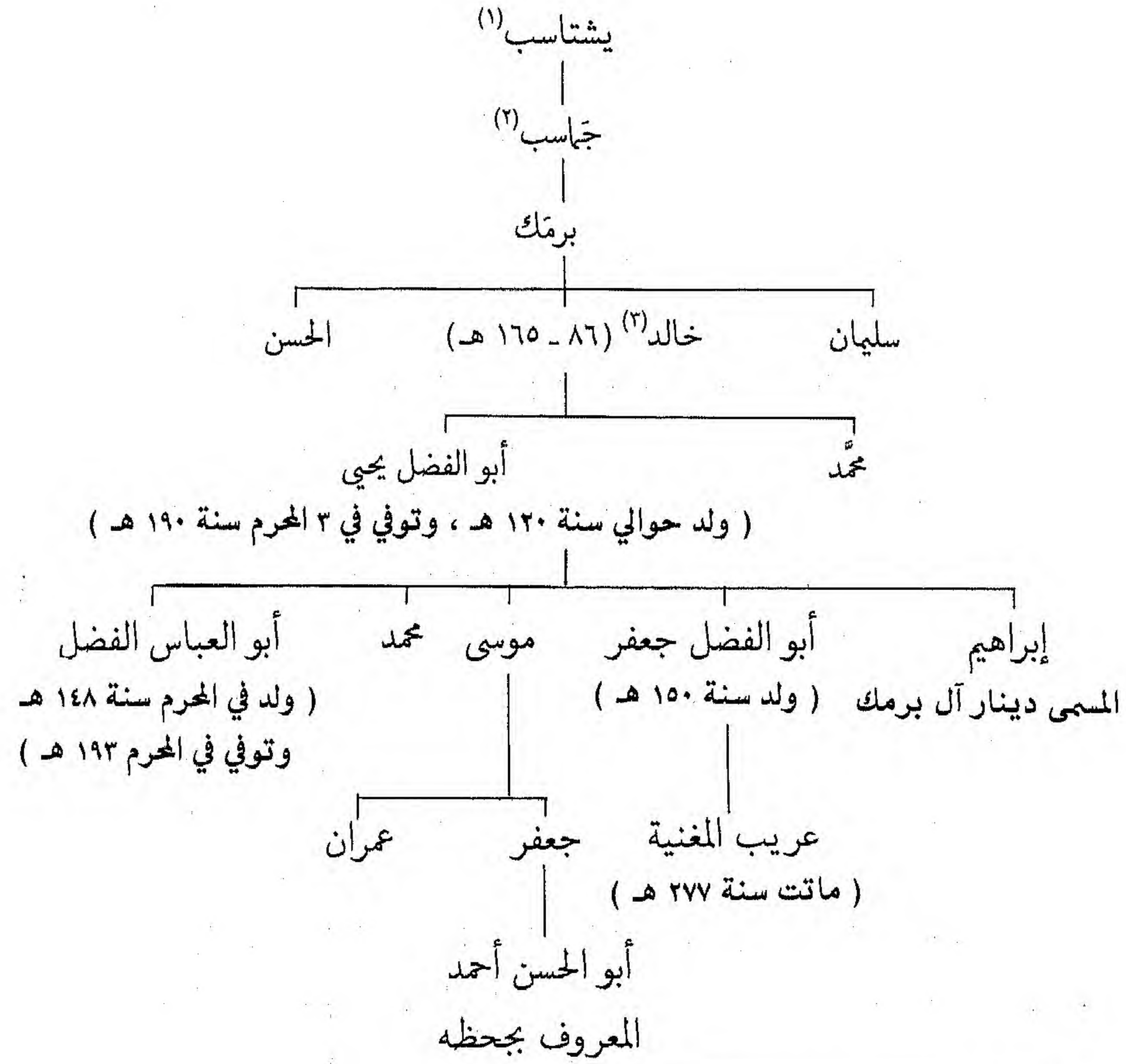

(١ و٢) أجداد وهميون .

(٣) كان رئيساً لديوان الْخَراج منذ سنة ١٣٢ هـ ووزيراً من سنة ١٣٣ إلى ١٣٨ هـ ، وحاكماً لطبرستان والموصل من سنة ١٤٨ إلى ١٥١ هـ ، ويذكر ابن خلدون ٢٢٣/٣ : « إنّ خالد بن برمك كان من كبار الشّيعة » .

مصادرُ الكتابِ ومراجعُه

١ ـ أبو نواس الحسن بن هانئ ، عباس محمود العقاد ، كتاب الهلال العدد ١١٥ ، عام ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

٢ ـ الأخبار الطِّوال ، لأبي حنيفة الدينوري (تراثنا) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ومراجعة د . جمال الدين الشيال (انتشارات آفتاب تهران) .

٣ ـ أخبار القضاة ، لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع) ، عالم الكتب ، بيروت .

٤ ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء ، لياقوت الحموي ط ٢ ، ١٩٢٨ م .

٥ ـ إعلام النَّاس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، محمد المعروف بدياب الإتليدي ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر .

٦ ـ أعلام النِّساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشميَّة بدمشق .

٧ ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، للشَّريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٨ ـ إيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون ، لإسماعيل بن محمد أمين بن ميرسليم الباباني أصلاً والبغدادي مولداً ومسكناً ، طبعة ١٩٤٥ م / ١٣٦٤ هـ .

٩ ـ البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير (الطبعة الثانية ١٩٧٤ م) ، مكتبة دار المعارف ، بيروت .

١٠ ـ بغداد في تاريخ الخلافة الإسلامية ، أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، ط ١٩٦٨ م .

١١ ـ تاريخ ابن خلدون ، طبعة دار البيان المصوَّرة في سبعة أجزاء مع المقدّمة .

١٢ ـ تاريخ ابن الوردي ، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، المطبعة الحيدريَّة النجف ، عام ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

١٣ - تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن ، الطبعة السَّادسة ١٩٦٢ م ، مكتبة النهضة المصريَّة .

١٤ - تاريخ الأمم الإسلامية ، الشَّيخ محمد الخضري ، الطبعة الثَّامنة ١٣٨٢ هـ ، ط المكتبة التجارية الكبرى .

١٥ - تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، هـ. ا. ل. فيشر ، دار المعارف بمصر (الطبعة الثالثة) .

١٦ - تاريخ بغداد أو (مدينة السلام) ، للحافظ أبي بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي للنَّشر والتَّوزيع ، بيروت .

١٧ - تاريخ الخلفاء ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

١٨ - تاريخ الطَّبري (تاريخ الرُّسل والملوك) ، ابن جرير الطبري . (ذخائر العرب) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

١٩ - تاريخ [الطبقات الكبرى لابن سعد] ، طبعة دار صادر ، بيروت .

٢٠ - تاريخ العالم ، سيرجون ا. هامرتن ، مكتبة النهضة المصرية ، دون تاريخ .

٢١ - تاريخ مختصر الدُّول ، لابن العبري (غريغوريوس الملطي) ، دون تاريخ أو دار نشر .

٢٢ - تاريخ الموصل ، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي ، تحقيق د . علي حبيبة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ م .

٢٣ - تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح العباسي المعروف باليعقوبي ، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

٢٤ - التَّمثيل والمحاضرة ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثَّعالبي ، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

٢٥ - حسن التَّقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي ، للإمام الكوثري ، طبعها ونشرها راتب حاكمي ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

٢٦ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ط ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٢٧ ـ الحياة السّياسية للإمام الرضا ، جعفر مرتضى العاملي ، قُمْ ، ط ٢ ، سنة ١٤٠٣ هـ .
٢٨ ـ دائرة المعارف ، بطرس البستاني ، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان تهران ناصر خسرو ، المجلد ٤ ، ص : ٢٦١ و ٢٦٣
٢٩ ـ دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٣٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، ط ١٩٧١/٣ م ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
٣١ ـ رحلة ابن جبير ، دار التراث ، بيروت ، ط عام ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
٣٢ ـ رسالة الإمام مالك إلى أمير المؤمنين هارون الرّشيد ، [ولقد أوردناها كاملة ، محقّقة منقّحة] .
٣٣ ـ رسل الملوك ومن يصلح للرّسالة والسّفارة ، أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفرّاء ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ٢ ، عام ١٩٧٢ م .
٣٤ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ، للقيرواني ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ط ٤ ، ١٩٧٢ م .
٣٥ ـ السّفارات الإسلامية إلى أوربة في العصور الوسطى ، د . إبراهيم أحمد العدوي ، سلسلة اقرأ ١٧٩ ، دار المعارف بمصر .
٣٦ ـ سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ، ط ١ سنة ١٩٨٢ م ، مؤسّسة الرّسالة .
٣٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، نسخة مصورة عن الطّبعة الأميرية (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصريّة العامّة .
٣٨ ـ ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية .
٣٩ ـ العقد الفريد ، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنشر ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٥ م .
٤٠ ـ عيون الأخبار ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري ، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصريّة العامة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، عام ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

٤١ ـ فتوح البلدان ، للإمام أبي الحسن البلاذُري ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، المكتبة التِّجارية الكبرى عام ١٩٥٩ م .
٤٢ ـ الفخري في الآداب السُّلطانيَّة والدُّول الإسلاميَّة ، محمد بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، دار صادر بيروت ، عام ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
٤٣ ـ القاموس الإسلامي ، أحمد عطية الله ، مكتبة النَّهضة المصريَّة ، ١٩٦٣ م .
٤٤ ـ قصة الحضارة ، ول ديورانت ، الإدارة الثقافية ، جامعة الدُّول العربية ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٨ ط ٣ ، سنة ١٩٦٨ م .
٤٥ ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير الجزري ، إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .
٤٦ ـ الكامل في اللُّغة والأدب ، لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرِّد النَّحوي ، مكتبة المعارف ، بيروت .
٤٧ ـ كتاب التَّاريخ الكبير ، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٤٨ ـ كتاب الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ سنة ١٩٦٩ م .
٤٩ ـ كتاب الخراج ، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، اقترح عليه إنشاءه وتصنيفه لكبير ملوك الأرض في عصره هارون الرَّشيد أمير المؤمنين ، عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبها ، الطبعة ٤ ، عام ١٣٩٢ هـ .
٥٠ ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ، لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست ـ طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ، سنة ١٩٠٨ م .
٥١ ـ لسان الميزان ، للإمام الحافظ شهاب الدِّين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط ٢ ، عام ١٩٧١ م / ١٣٩٠ هـ ، طبع حيدرأباد ـ الهند .
٥٢ ـ لمحات من تاريخ العالم ، جواهر لال نهرو ، منشورات المكتب التِّجاري للطباعة والتَّوزيع والنشر ، ط ٢ ، آب (أغسطس) ١٩٥٧ م .
٥٣ ـ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٦٤ م .

٥٤ ـ مختار الأغاني ، جـ ٤ ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، نشر المكتب الإسلامي .

٥٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٥ سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

٥٦ ـ معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التَّاريخ الإسلامي ، للمستشرق زامباور ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، عام ١٩٥١ م .

٥٧ ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان .

٥٨ ـ معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، تأليف عمر رضا كحالة ، مطبعة التَّرقي بدمشق ، عام ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

٥٩ ـ الملل والنِّحل ، الشهرستاني ، البابي الحبي ، مصر ، ط سنة ١٩٦١ م .

٦٠ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، لمحمد عبد الله عنان ، ط ٤ .

٦١ ـ الموسوعة العربية الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار الشعب ، ط ١٩٦٥ م .

٦٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٦٣ ـ النُّجوم الزاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، ط ١ ، دار الكتب المصرية ، عام ١٣٤٠ هـ / ١٩٣٠ م .

٦٤ ـ هارون الرَّشيد ، أحمد أمين ، كتاب الهلال العدد ٣ ، أغسطس (آب) ١٩٥٢ م / ذي القعدة ١٣٧٠ هـ .

٦٥ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خِلِّكان ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٦٦ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، حققه وضبطه ونشره محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

المحتوى

تصدير الطَّبعة الجديدة ٥
تصدير (الطَّبعة الأُولى) ٩
حياة الرَّشيد ١٥
الخيزران أُمُّ الرَّشيد ٢٤
زبيدة بنت جعفر بن المنصور (زوج الرَّشيد) ٢٧
بيت الرَّشيد ٣٩
- ولاية العهد ٤١
وفاة الرَّشيد ٤٤
ثقافة الرَّشيد ٥٢
إيمان الرَّشيد ٧٢
مجالس الرَّشيد ٨٧
عطاء الرَّشيد ١٠١
المجتمع في عصر الرَّشيد ١٠٦
ولاة الرَّشيد وقُضاتُه ١١٨
جهاد الرَّشيد ١٣٠
رجال حول الرَّشيد ١٣٧
- أبو يوسف القاضي ١٣٧
محمد بن الحسن الشَّيباني ١٥٤
- عبد الله بن المبارك ١٥٥

ـ الفضيل بن عياض	١٥٦
ـ الإمام مالك بن أنس	١٦٢
ـ الإمام الشّافعي	١٩٤
من شوّه سيرة الرّشيد	٢٠٠
ـ ألف ليلة وليلة	٢٠١
ـ الأغاني لأبي الفرَج الأصفهاني	٢٠٤
ـ أحمد أمين في كتابه هارون الرشيد	٢١١
ـ كتاب : إعلام النّاس	٢١٩
ـ جرجي زيدان	٢٢٢
ـ الطّالبيون	٢٢٣
ـ الرِّوايات الكنسيَّة الأُوربيَّة	٢٢٨
ـ نكبة البرامكة وهلاكهم	٢٣١
هل ندم الرّشيد على نكبتهم ؟	٢٤٧
خاتمة : لماذا شوّهوا سيرة الرّشيد ؟	٢٥٤
خلفاء العصر العباسي الأوّل	٢٦٢
الخلفاء العباسيُّون	٢٦٣
البرامكة	٢٦٥
مصادر الكتاب ومراجعه	٢٦٦
المحتوى	٢٧١

هذا الكتاب

سيرة الرشيد الحقيقية أهي كما صورها «الأصفهاني» في كتابه «الأغاني» بما فيها من نواسيات؟ أم هي سيرة خليفة مسلم ملتزم، بلغ بملك المسلمين ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من هيبة السلطان وسعة الآفاق وتأمين الحدود والثغور..؟!

• وهل حقاً بغداد الرشيد هي بغداد «ألف ليلة وليلة» بما في هذه الليالي من ملذات وخمور ونساء وفجور؟ أم هي سيرة من كان يصلي الفرائض والنافلة ويحج عاماً ويغزو عاماً، ويحج إلى الديار المقدسة ماشياً ويداوم على المباح، ويوقظ ندماءه لصلاة الفجر قبل الصباح؟!

• من رسم شخصية الرشيد، النواسي والمغنون.. أم أبو يوسف القاضي... وعبد الله بن المبارك.. والفضيل بن عياض.. والإمام مالك بن أنس؟..

هذا الكتاب.. يدرس في قسمه الأول سيرة الرشيد كما حفظتها لنا كتب التاريخ العربية الإسلامية المعتمدة، وفي قسمه الثاني أسباب تشويه سيرة الرشيد «أمير الخلفاء وسيد ملوك الدنيا».. كل ذلك تبعاً للحقيقة لا دفاعاً عن مدان نحاول تبرئته.

الناشر

دار الفكر